محاضرات إسلامية هادفة

د. عمر سليمان الأشقر

دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

مُحاضَراتٌ إسْلامِيَّة

هادِفة

د. عُمَر سُليمان الأشقر

دار النفائس
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

دار النفائس
للنشر والتوزيع

العبدلي - مقابل عمارة جوهرة القدس
ص.ب : ٢١١٥١١ عمان ١١١٢١ الأردن
هاتف : ٤٠ ٣٩ ٦٩ ـ فاكس : ٤١ ٣٩ ٦٩

المقـــدِّمَة

الحمـد لله المتفـرد بالجلال والكمـال، الواحد الأحـد، الفرد الصـمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحـد، والصلاة والسلام على المبـعوث رحـمـة للعالمين، الذي أنقـذ الله به البـشرية مـن ظلمات الكفـر والشـرك والذنوب والمعاصي، إلـى نور الإسلام، وهدي القـرآن، وعلى آله الأطهـار، وصـحـبه الأبرار الذيـن ورثوا هذا الدين، وحـققـوه قـولاً وعملاً، وعلى من سار مسارهم، واتبع سبيلهم إلى يوم الدين، وبعد:

فـقد دعيت فـيمـا مـضى إلى منتـديات كثـيـرة في شتى بـقاع العـالم للمحاضرة في مـوضوعات شتى، وقد هديت إلى تدوين ما أحـاضر فيه مـا أمكنني التـدوين، ذلك أن الانتـفاع بالمحـاضـرة قد لا يتـجـاوز نفعـه السـامعين، ثم يـنتهي ويتـلاشى، فـإذا دون ما يحـاضـر فيـه، ودفع إلى الطبع، وقدر له الانتشار، فإن نفعه يستمرُّ طويلاً، وها هي الكتب التي كتـبهـا أسلافنا، لا يزال ينتفع بهـا عبر الـقرون، فينـال مؤلفوهـا الأجر والثواب، لاستمرار انتفاع الناس بعلمهم.

وقد صـدر عدد من هذه المحاضـرات تحت عنوان سلسلة محـاضرات إسلامية نافعة، وصدر بعض آخر منها بعنوان مستقل، وبلغ عدد المطبوع من هذه المحـاضـرات إحدى عـشـرة مـحاضـرة، وقـد ارتأيت ضم هذه المحاضرات في كـتاب واحد، يحمل عنوانه الاسم الذي ضـم أكثر تلك المحـاضـرات، وهو «مـحـاضـرات إسـلامـيـة هادفـة» وقـد أضـفت إلى المحاضرات المطبوعة ثلاث محاضرات لم يقدر لها أن تطبع من قبل.

لقد عالجت هذه المحاضرات قضايا في غاية الأهمية، فقسم منها عالج الجانب العقدي والإيماني، ومن ذلك المحاضرات الثلاث الأولى، فالمحاضرة الأولى تناولت تاريخ العقيدة، وبينت أن تاريخ البشرية هو تاريخ العقيدة، فتاريخ العقيدة يتمثل في استقامة بني آدم على الإيمان، ثم في انحرافهم عنه، حيث يرسل الله رسله وأنبياءه لإرجاع البشرية الحائرة الضالة إلى جادة الصواب، حتى جاء الله بهذا الدين الخاتم الذي يمثل الدين الإسلامي في أبهى صوره، وأكمل ما نزل به وحي إلى رسول.

والمحاضرة الثانية تُجَلي المحور الذي تدور عليه الحياة الإنسانية، كما تدور عليه التعاليم الإلهية، ألا وهو التوحيد.

وبينت المحاضرة الثالثة «أثر الإيمان في تحرير الإنسان».

وتناولت المحاضرة الرابعة تاريخنا الإسلامي، مركزة على الجهود الهائلة التي حاول بها أعاؤنا تزييف تاريخنا، وعنوانها «التاريخ الإسلامي بين الحقيقة والتزييف».

وتناولت المحاضرة الخامسة «مجالات الصراع بين الخير والشر».

وركزت المحاضرة السادسة على «منهج الإسلام في تزكية النفس الإنسانية» وفي المحاضرة السابعة دعوة إلى «أسلمة التعليم في ديار المسلمين» وحددت المحاضرة الثامنة أصحاب المنهج الأصيل الذين يمثلون الحق عبر التاريخ الإسلامي، وعنوانها: «أهل السنة والجماعة أصحاب المنهج الأصيل والصراط المستقيم».

وبينت المحاضرة التاسعة الكيفية التي يمكن للأمة الإسلامية أن تستعيد بها مكانتها من جديد، وقد بينت هذه المحاضرة فضل الأمة الإسلامية، وحددت الأسباب التي أدت إلى تأخر الأمة الإسلامية، والطريق التي تستطيع بها النهوض والرقي مرة أخرى.

وفي **المحاضرة العاشرة** تحديد المعالم الشخصية الإسلامية.

والمحاضرة الحادية عشرة مخصصة للحديث عن «المرأة بين دعاة الإسلام وأدعياء التقدم». كشفت فيها اللثام عن أولئك الذين زعموا ويزعمون أنهم أنصار المرأة، والهدف من وراء دعوتهم، كما أبنت فيها عن الأنصار الحقيقيين للمرأة الذين يريدون لها السعادة، والذين يحرصون على كل ما فيه نفع لها وهم دعاة الإسلام.

والمحاضرة الثانية عشرة حديث عن مرض فتاك قتال، مفسد للأفراد والمجتمعات، مؤدٍ إلى توهين بناء الأمة الإسلامية وهو مرض العصبية بشتى أشكالها وأنواعها.

والمحاضرة الثالثة عشرة تتحدث عن الأمن الذي يجلبه تطبيق الشريعة الإسلامية، والفساد والإفساد الذي ينتج عن نبذ الشريعة وإهمالها.

والمحاضرة الرابعة عشرة تقرر أن المنهج الوحيد الذي يغير أوضاع الأمة الإسلامية ويصلح أمورها هو الإسلام دون سواه.

لقد كتبت هذه المحاضرات في أزمنة مختلفة متباعدة، للحديث عن موضوعات متعددة، وقد يحدث تداخل بين هذه المحاضرات، وقد يكرر المعنى الواحد في أكثر من محاضرة، ذلك أنها لم تكتب لتكون كتاباً واحداً، ومقالاً واحداً، والمقام قد يقتضي إيراد معنى سبق الحديث عنه في محاضرة لاحقة.

قد يقال: ألم يكن من الأفضل أن يستمر طبع هذه المحاضرات على النحو الذي كانت عليه، متفرقة في كتيبات، فيكثر انتشارها، وتسهل قراءتها.

والجواب: أن الكتيبات الصغيرة ـ على الرغم من الفوائد العظيمة التي تحصل من ورائها، إلا أنها مع مرور الزمن قد تضيع وتنسى، وقد

يعســـر على المرء المحافظة على وجـودها، أضف إلى هذا أن هذه المحاضرات في مجموعها تمثل منهجاً يصلح للتدريس، ومن شاء تدريسها فقد يشق عليه جمعها، فإذا وجدت مجموعة سهل عليه ذلك.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يتقبل هذا العمل بقبول حسن، وأن يغفر لي ما وقعت فيه من تقصير وزلل، والحمد لله رب العالمين.

د. عمر سليمان الأشقر

كلية الشريعة ـ الجامعة الأردنية

عمان ٢٠ صفر ١٤١٨هـ ـ ٢٥ حزيران ١٩٩٧م.

المحاضرة الأولى

نظرة في تاريخ العقيدة

تقديم

الداعي إلى هذه المحاضرة :

الحمدلله، والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

فقة ألقيت هذه المحاضرة في الندوة التي عقدتها جمعية إحياء التراث الإسلامي على مسرح صباح السالم في جامعة الكويت في الفترة من ١٦ ـ ١٠ـ ٤/١٩٨٣ تحت عنوان «تراثنا الإسلامي وكيف نحييه»، وقد تناولت هذه المحاضرة التراث العقائدي في مجاليه: الإنساني والإسلامي، وصورت في هذا البحث فرقة البشرية وحيرتها في أخطر قضية، وخلصت إلى الحق الذي ينبغي أن يتبناه كل إنسان فوق ظهر هذه البسيطة، ومن يطالع هذا البحث يعلم مدى نعمة الله عليه إذ كان من الذين هدوا إلى الحق وإلى صراط مستقيم.

أهمية الموضوع وخطورته

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى من اهتدى بهديه، واتبع سنته إلى يوم الدين، وبعد:

فما انتدبت إلى الحديث في موضوع من الموضوعات إلا واحسست أن من حق الذين انتدبوني والذين سيستمعون إليَّ عليَّ أن أعطي الموضوع حقه، فأنا أعلم كم من الوقت يبذله الذين يُحَضِّرون لمثل هذه المؤتمرات والمحاضرات، وأعلم أن وقت الذين يحضرون هذه المحاضرات ثمين، فالوقت هو الحياة.

وقد ازداد إحساسي بثقل المسؤولية في هذا الموضوع الذي أحاضر فيه الليلة، ذلك أنه موضوع خطير، فالعقيدة هي الأساس الذي تقوم عليه الأديان والمذاهب والمبادىء، وقد قيل قديما: «الإنسان أسير أفكاره ومعتقداته»، ولا زالت عقائد البشر هي التي تسيرهم، ومن خلالها ينظرون إلى الوجود والحياة والتجمعات الإنسانية، وعلى أساسها يقيمون الأنظمة والقوانين، ويضعون القواعد والقيم والموازين، ولم يزل المستبدون والطغاة يتلاعبون بعقائد الناس ليتيسر لهم السيطرة عليهم، والاستبداد بهم.

وعلى الرغم من أني كتبت في موضوع العقيدة عدة مؤلفات إلاَّ أن خطورة الموضوع الذي أتناوله تفرض عليَّ أن أعود إلى التفكير فيه مرة اخرى، وأن أعود للنظر في مسار التراث العقائدي، ومصادره عبر القرون، ولقد نظرت في هذا التراث نظرتين: نظرة في التراث الإنساني، ونظرة في التراث الإسلامي، وعشت مع المؤلفات التي تعرض للعقيدة في هذين التراثين وقتا ليس بالقصير.

ولقد رأيتني وأنا أجول بنظري وفكري في كتب التراث كرجل قابع فوق قمة جبل على شاطىء بحر لجيّ محيط، فكنت وأنا أنظر في عقائد أهل الملل والنحل في القديم والحديث وكيف نشأت، وتفرعت، ثم كيف تلاشت وفنيت، أتخيل أني ذلك الرجل الذي يشاهد أمواج البحر، وهي تنشأ وتتلاشى، ثم وهي تتعارض وتتصادم، لا تتوقف لحظة، كل الذي يحدث أن البحر قد يهدأ في بعض الأحيان فتكون الأمواج هادئة، وقد يثور فإذا بالأمواج كالظلل أو كالجبال.

سر الفرقة العقائدية:

إنني لا أبالغ في الوصف، ومن طالع ما كتبه الكاتبون في تاريخ العقائد وما كتبوه في تاريخ الفكر الإنساني، وما كتب في الملل والنحل - يعلم صدق ما أقوله، ولكثرة المذاهب والعقائد والنحل والفرق - فإن الفكر الإنساني لا يدري إلى أين يسير، وماذا يأخذ وماذا يدع، فالعقيدة لا تقوم كما نعلم على الشك والحيرة والتردد.

العقيدة تحتاج إلى اليقين الصادق الذي يقوم على الأدلة والبراهين التي لا تجد النفس لها مدفعا، والتي تأسر النفوس، وتخضع لها العقول، والفكر الإنساني لا يستطيع أن يقيم من خلال هذا الركام الهائل من التصورات والأفكار والعقائد التي يموج بها تاريخ الإنسان وواقعه أصولا توقفه على اليقين المنافي للشك، وأنى يصل الإنسان إلى اليقين، والقضايا التي يريد أن يصل فيها إليه لا يدخل كثير منها في المجال الذي يحسن العقل الإنساني النظر فيه.

إن الروح التي تسري في جسد الإنسان هي أقرب الأشياء إليه، لأنها نفسه، ومع ذلك فإن الإنسان يشتد جهله بها كلما زاد بحثه عنها، فالروح ليست من جنس الأشياء المشهودة التي يمكن للعقل الإنساني البحث فيها، الروح ليس لها وزن، ولا لون ولا حجم، ولا تدخل تحت المقاييس الإنسانية فأنّى للعقل أن يعرف حقيقتها ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥].

هذا شأن الإنسان في الروح التي تسري في كيانه، وهي سر حياته فما بالكم بالبحث العقلي المجرد عن خالق الوجود، وعن العوالم التي لا نراها ولا نشاهدها، وعن العوالم التي سيصير إليها

الإنسان بعد الموت: البرزخ، واليوم الآخر !! إن الإنسان لا يمكن أن يصل في أمرها إلى قرار،وما يمكن أن يصل إليه في أمرها لا يمكن أن يوقف الإنسان على أرض صلبة،وسيبقى طيلة عمره يعيش حائرا مترددا.

ثمار الضلال العقائدي المرة:

ومتى لم يجد الإنسان برد اليقين في معرفة الحقائق التي يمكن أن يقيم حياته عليها، والتي يمكن أن تفسر له وجوده، وترسم له مساره في الحياة، وغايته التي يرمي إليها، وتوضح له علاقته بالقوة التي أوجدته وأوجدت الكون فإنه يعيش في شقاء ويضل المسار، ويظن في بعض الحيان أنه بلغ الغاية، وشارف المقصد، وأوشك أن يصل.. ولكنه يكتشف أن ذلك وهم من الأوهام ويفاجأ بالأجل وقد أدركه، ثم ينظر فلا يجده قد حقق في رحلته ما كان يصبو إليه.

إنني لا أريد أن أحدثكم عن المرارة والأسى التي كانت تخيم على الذين لم يعرفوا هدى السماء من الفلاسفة والمفكرين، ولكنني أحدثكم عن الذين ينتسبون إلى الإسلام، ولكنهم انحرفوا في مسارهم شيئا ما، فلما شارفت شمس العمر على المغيب ناحوا على أنفسهم، وأعلنوا للناس من حولهم أنهم لم يصلوا إلى اليقين الذي جروا وراءه طويلا.

نواح الرازي على نفسه:

هذا الرازي - وهو أحد هؤلاء - يعلن في نهايه المطاف بعد أن أضناه المسير، وعالج في مسيرته كثيرا من العنت أنه لم يصل إلى شيء، لقد ابتعد عن المنهج القرآني النبوي، وجرى وراء نتائج العقول الإنسانية، فلم تقده الأفكار والنظريات والمقالات إلى اليقين الذي يجده الناهل من وحي السماء، لقد أدرك في نهاية المسار أن روحه لم ترتو

من المنهل الذي ورده، وأن الغاية التي سعى إليها لم تتحقق، وإن ما اعتمد عليه وجمعه إنما هو أقوال تتصارع وتتضارب، إنني كلما قرأت أبياته التي أوردها في كتابه أقسام اللذات، أشتمُّ منها رائحة النواح الحزين الصاعد من قلب مكلوم، إنه النواح على النفس.

نهاية إقدام العقول عقال   وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا   وغاية دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا   سوى أن جمعنا فيه قيل وقال[1]

ثم يقول: لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلا، ولا تروي غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، واقرأ في النفي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، ويختم حديثه قائلا «ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي»[2] وصدق والله فإنه نطق عن خبرة وعلم.

مقالة الشهرستاني:

ويصور لنا عبد الكريم الشهرستاني وهو العَلم الذي لا يشق له غبار في علم الملل والنحل - حال أصحاب الكلام في علوم العقائد في مقدمة كتابه: نهاية الإقدام في علم الكلام[3]، فيقول:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها   وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعا كف حائر   على ذقن أو قارعا سن نادم

---

(١) الصواعق المرسلة لابن القيم: ص٧، مطبعة الامام - القاهرة.

(٢) الفتوى الحموية الكبرى، لشيخ الاسلام ابن تيمية: ص٧.

(٣) ص٣، نشر مكتبة المثنى - بغداد.

حيرة الجويني وندمه:

وإن إنس لا أنس الجويني، وهو الذي كان يدعى بإمام الحرمين، وهو من هو في علم الكلام والجدال والبحث والنظر، وقد حضره الموت، فإذا به ينظر في مساره في الحياة، وينظر في حصيلته التي حصلها فيبكي بكاء الثكلى، لقد أضاع الكثير من عمره في مسار لم يوصله إلى الشاطئ، لقد كان يخوض في بحر خضم من الأفكار والعقائد والموازين لا يقر قلب من خاضها على قرار.

استمع إليه يوصي أصحابه وهو يعالج سكرات الموت فيقول: « لقد خضت البحر الخضم، وتركت أهل الإسلام وعلومهم، وخضت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني الله برحمته فالويل لي، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي»[(١)].

وهذا عالم آخر من علماء الكلام يفتش عن حصيلة العمر وهو على فراش الموت فلا يجد عنده من الحق شيئا، فيعلن ذلك لمن حوله، ويقول: « اشهدوا عليَّ أني أموت وما عرفت إلا أن الممكن مفتقر إلى واجب، ثم قال: والافتقار أمر عدمي فلم أعرف شيئا »[(٢)].

حاجة العباد إلى معرفة الله ربهم:

إن الله العليم الخبير الحكيم الذي خلقنا وهو أعلم بنا من أنفسنا يعلم أننا بحاجة إلى معرفته لأنه خالقنا، ويعلم أن نفوسنا لا يمكن أن يقر لها قرار ما لم تعرف الذي خلقها وفطرها، وما لم تعرف كيف الطريق إليه، ويعلم خالقنا أن العقل الإنساني الذي وهبه لنا لا يمكن أن يصل بنفسه إلى خالقه والهه ولا يعلم كيف يعبده، فتكفل لابينا آدم عندما

(١) الصواعق المرسلة لابن القيم: ص٧ .

(٢) المصدر السابق .

أهبطه إلى الأرض أن يمد ذريته من بعده بالنور والهدى الذي يعرفهم بربهم وبالحقائق الكبرى التي لا بد لهم منها ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ، قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه : ١٢٣ ـ ١٢٦] .

هذا عهد الله إلى أبينا وإلينا أن نتبع هداه الذي يهدينا إليه، وإلى الطريق الموصلة إليه، ويعرفنا بالحق والباطل والخير والشر، وبذلك نسير في هذه الحياة على نور من الله فلا ضلال ولا شقاء، فإن اتبع البشر عقولهم وأعرضوا عن هداية السماء، وعموا عن الحق الإلهي فهناك الشقاء الدنيوي، والمعيشة الضنكة، وفي يوم القيامة عذاب يناسب العمل، يحشر الله هذا الصنف من الناس الذين اتبعوا وساوس الشيطان وعموا عن هداية الرحمن عميا، جزاء وفاقا، ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه : ١٢٦] .

تقبل آدم عهد الله إليه وإلى ذريته، ومضت البشرية في طريقها تتناسل وتتكاثر، وتعمر هذا الكوكب الذي هيأه الله ليكون للإنسان مهدا، وبث فيه من الخيرات ما فيه صلاح الإنسان في معاشه، وبقيت الإنسانية دهرا طاهرة نظيفة، تعرف دورها، وتتجه إلى ربها ومعبودها، قال تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢١٣] ، أي كانوا أمة واحدة على التوحيد والإيمان والتوجه إلى المعبود الذي خلقوا من أجل عبادته، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين .

يقول ابن عباس فيما يرويه البخاري في صحيحه: « كان بين آدم

ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ».

وفي صحيح ابن حيان بإسناد صحيح عن الرسول ﷺ: « انه كان بين آدم ونوح عشرة قرون ».

أول انحراف:

وكان أول انحراف عن صراط الله المستقيم قد حدث في قوم نوح، وقد بين لنا ابن عباس كيف أضل أبليس ذلك الجيل في الماضي البعيد، ففي صحيح البخاري من حديث ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: ٢٣].

قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك، وانتسخ العلم (نُسي ودرس) عُبِدَت.

نوحُ يُقَوِّم المسار:

وأرسل الله نوحا إلى قومه ليردهم إلى الصراط المستقيم، وليعيدهم إلى جادة الحق والصواب، وليضيء قلوبهم ويصلهم بربهم ومعبودهم، ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ، أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ، يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [نوح: ١-٤].

ومضت الأيام والسنون ونوح ماض في دعوته، يحاول أن يوصل الحقَّ إلى تلك النفوس التي انحرفت فطرتها، وغشيتها الشبهات، ولم

ينل منه طول الزمان، ولم يوهنه الإعراض والتكذيب، ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤].

وتنوعت أساليب الدعوة، مارس الدعوة الفردية والجماعية، والدعوة السرية والعلنية، والدعوة بالترغيب والترهيب، فما وجد إلا قلوبا قاسية تغلق آذانها حتى لا يطرق صوت الحق مسامعهم، ويغشون وجوههم بثيابهم، لأنهم لا يطيقون النظر إلى صورة الداعي الذي يدعوهم إلى الحق. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا، وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا، ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا، ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا، فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا، وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ٥-١٢].

وبعد ذلك العناء، والجهد المبذول المتواصل لم يجد نوح إلا أن يلجأ إلى ربه كي يطهر الأرض من هؤلاء الأرجاس الذين استعصوا على الداعي، وقست قلوبهم فهي لا تلين، وأظلمت فلا يدخل إليها بصيص من نور، ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا، إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[نوح:٢٦,٢٧]، إن استمرار الكفر خطر على الفئة التي استجابت للحق، ذلك أنها تقف في وجوههم، وتلقي إليهم بالشبهات، وتفتنهم في دينهم، فهؤلاء كالشجرة الخبيثة لا ينفع معها إلا أن تجتث من جذورها ثم تحرق حتى يستريح الناس من شوكها ورائحتها القذرة وثمارها المرة.

واستجاب الله الدعاء، وأهلك الظالمين بطوفان مدمر، غسل الأرض من الظالمين، وطهر العالم من هذا الصنف الذي جلب لنفسه الدمار، ونَجّى الله نوحا ومن معه من المؤمنين.

تتابع الرسل تحقيقا لوعد الله:

ومضت البشرية في طريقها، وتكاثر المؤمنون، واستقامت ذريتهم على الطريق حينا من الدهر، ثم أصابهم الداء العضال الذي أصاب قوم نوح من قبل، لقد انحرفوا عن الصراط المستقيم فأرسل الله لهم من عنده رسولا اختاره واصطفاه، وأنزل عليه هداه، وطالبه بدعوة قومه إلى الحق الذي عرفه إياه.

ففي سورة المؤمنون قص الله علينا قصة نوح عليه السلام، وما جرى بينه وبين قومه، وكيف انتهى الأمر بتكذيبهم واهلاكهم، ثم قال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ، فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ، وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ، وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ، أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ، إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ، إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ، قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ، قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ، فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١ - ٤١]

وهكذا مضت البشرية تنحرف عن الطريق الواضح المستقيم، وتعرض عن الهدي الإلهي، فيبعث الله لها من يضيء حنادس الظلماء، ويجدد معالم الطريق، فيستجيب للدعاة قلة من أقوامهم، ويعرض الأكثرون، فيصيبهم العذاب ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

أعظم ما صد العباد عن الهدى:

وأعظم ما أضل الأمم عن طريق الهدى عبادة الأصنام، وللأمم في الأصنام فلسفات وضلالات، فبعضهم يزعم أن هذه الأصنام محل تتلبس به الأرواح أو الآلهة التي يعبدونها، وبعضهم ليس له حجة إلا أن الآباء يمجدونها ويقدسونها، والصابئة الذين كانوا يسكنون في بداية أمرهم في وسط العراق ثم سكنوا شماله كانوا يدعون أن الله خلق الأفلاك والكواكب ووكل إليها تدبير أمر العالم من الخير والشر والصحة والمرض، ولذا فإنه يجب على البشر تعظيمها وعبادتها، ومنهم من زعم أن الكواكب التي في الفلك ملائكة، وبنوا لهذه الكواكب بيوتاً لعبادتها، وجعلوا لها الهياكل.

وقد جادلهم إبراهيم عليه السلام فيما يعبدونه من أصنام كما ناقشهم في عبادة الشمس والقمر والنجوم، ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ، إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ، قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ، قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ، قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ، قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥١ ـ ٥٦].

ضلال البراهمة:

وفي بلاد الهند عبد الناس الأشجار والأحجار والثعابين والفئران، وقال فلاسفتهم بوحدة الوجود، والديانة البرهمية تزعم أن طبقة البراهمة خلقوا من رأس الآلة براهمان، وطبقة الجند خلقوا من منكبيه وذراعيه، والزراع والتجار والعمال من فخذيه، والأرقاء من قدميه، ومنعوا ارتفاع الإنسان إلى طبقة فوق طبقته، وقال فلاسفتهم بالتناسخ، فروح الإنسان

بعد الموت قد تحل في ابنه أو أخته أو أخيه أو إنسان آخر أو في كلب أو خنزير، ولهم في ذلك فلسفات يضيق الوقت عن ذكرها.

تأليه البشر:

وألَّه الناس البشر وعبدوهم من دون الله، وزعموا أن الآلهة تحل في بعض البشر، أو أن بعض الملوك من نسل الآلهة، وملوك المصريين القدامى كانوا ينصبون أنفسهم آلهة تقدم لهم الهدايا والقرابين، وكانوا يُعبدون في المعابد، وقد قال فرعون لأهل مصر ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] وقال لهم ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

ضلال الفرس:

وقامت في فارس ديانات كثيرة، ومن أقدمها عبادة زرادشت في القرن السابع قبل الميلاد، وقد ادعوا أنه إله، وعقدوا حوله الأساطير، وجاء مانو بعد الميلاد بأكثر من مائتي عام، وقال بقدم النور والظلمة، فهما إلاهان، وادعى مانو أن الجسد سجن للروح، ولابد من تخليص الروح من سجنها بإبادة الجنس البشري، وقد أمر الملك جلاده أن يجز رأس مانو، ليخلص روح مانو من سجنها كما زعم.

وجاء مزدك في فارس بالشيوعية فلا ملكية ولا زواج، بل تباح النساء والأموال من غير ضابط، ونادى بالغاء القوانين بحجة أنها تحول بين الإنسان وما يشتهي، وقال بألوهية النور والظلام، وكانت النيران لا تخبو من المعابد، وكان الفرس يسجدون لها.

الفلاسفة لم يستطيعوا الخلاص من الوثنيات:

وقد برز على مرّ العصور فلاسفة كثيرون بهروا الناس بسعة علمهم، وقدراتهم العقلية الرائعة، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتخلصوا من البيئات الوثنية التي يعيشون فيها، ولم يستطيعوا أن يضيئوا للبشرية الطريق، ومن أبرز الفلاسفة « أفلاطون » الذي قال بوجود أرباب من دون الله.

وقد أراد بنظريته الشركية هذه أن يعلل ما في العالم من شر ونقص وألم، فالخير عنده كله من العقل المطلق، والعجز كله من الهيولي، والوجود عنده طبقتان متقابلتان فالعقل المطلق هو الخالق للخير، وبين العقل المطلق والهيولي كائنات على درجات تعلو بمقدار ما تأخذ من العقل المطلق، وتسفل بمقدار ما تأخذ من الهيولي، وهذه الكائنات المتوسطة بعضها أرباب وبعضها أنصاف أرباب وبعضها نفوس بشرية. وقال « افلاطون » أيضا بتناسخ الأرواح.

وادعى كثير من الفلاسفة أن العالم قديم أزلي ولم يستطع البشر أن يحصلوا على الهدى والنور من الفلاسفة.

إن الضلال في تاريخ البشرية كثير متشابك تشابك الطرق في صحراء ليس لها حدود، وهو ضلال متداخل ملتو متعرج، وقد استمر الوحي السماوي يواكب الحياة الإنسانية، فالأنبياء والرسل أبلغوا كلمة الله إلى البشر في كل العصور ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقد قرر علماء العربية أن التنكيرفي كلمة رسل من قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٨٤]، يفيد التعظيم والتكثير، أي رسل عظام كثيرون، وقد ذكر الله في سورة المؤمنون أخبار بعض رسله بأسمائهم، وعقب على ذلك بقولة: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤]، وقد سأل أبو ذر رضي الله عنه الرسول ﷺ عن عدد

الأنبياء، فقال: « مائة ألف وأربع وعشرون ألفا، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جما غفيرا »[1].

نعم لقد أبلغ رسل الله وأنبياؤه صوت الحق إلى جميع الأمم، ولكن البشر في كل العصور يرفضون الاستجابة للرسل، فنجدهم يقفون منهم موقف المعاند والمكابر، ويكذبون ويتمردون على وحي السماء ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] .

ضلال بني إسرائيل:

لقد كان موسى من الرسل العظام، أرسله الله لبني اسرائيل، وأنزل معه شريعة التوراة، ولم يستطع كثير من بني إسرائيل أن يرتفعوا إلى مصاف المؤمنين، ولم يطيقوا إبصار الحقيقة بعيدا عن الخرافات والضلال والأوهام.

أنجاهم الله من فرعون، فما كادت تخرج أقدامهم من البحر الذي شقه الله لهم، حتى جاؤوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، فقالوا لنبيهم: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، وتركهم تحت إمرة أخية رسول الله هارون وعجل إلى لقاء ربه في الطور، فصنع لهم السامري عجلا جسدا له خوار، فقالوا: هذا إلهكم وإله موسى فنسي.

وعندما انقطع إرسال الرسل لبني إسرائيل حرفوا التوراة، وأدخلوا فيها الفلسفات الشركية، وطمسوا العقيدة الصافية التي جاءت بها التوراة، لقد وصفوا الله بصفات البشر، ووصفوه بالعجز والظلم، والله كما وصفوه في التوراة يجهل ويتعب وينام، ونسبوا إلى الأنبياء الكبائر والفواحش، وضاعت العقيدة الصافية التي هي سمة العقيدة الإلهية التي تصل الناس بربهم، وكتب علماؤهم التلمود، وقد سبقوا في تلمودهم

---

(١) رواه احمد باسناد صحيح، انظر مشكاة المصابيح: ١٢٢/٣ .

أهل الشرك والوثنيات، لقد صوروا الله - تبارك وتعالى - في تلمودهم إنسانا يلطم ويبكي ويذنب ويستغفر، ويكفرعن ذنبه، تعالى الله عما يصفه الظالمون.

وقد حدثنا الله عن بني إسرائيل وتحريفهم للتوراة حيث يقول: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٧٩].

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٨].

ضلال النصارى:

وجاء عيسى بن مريم بالإنجيل فيه هدى ونور يدعو إلى عبادة الله وحده، والكفر بما يعبد من دونه، ولكن النصارى اختلفوا من بعده، ولم يمض وقت طويل حتى اختلفوا في كتابهم، فعدت الإناجيل فإذا هي تزيد على السبعين في ذلك الوقت، واختلفوا في طبيعة المسيح، فمنهم من قال هو عبد الله ورسوله، ومنهم من قال هو الله، أو ابن الله، ثم اختلفوا فمن قائل له طبيعتان طبيعة إلهية وطبيعة بشرية، وبينهما وحدة، ومن قائل إن له طبيعة واحدة هي الألوهية، وأن تجسده في الصورة البشرية لم يؤثر في ألوهيته.

وقد عقد قسطنطين الذي تنصر مجمع (نيقيه) في عام ٣٢٥م، وعلى الرغم من كون الذين قالوا بألوهية المسيح كانوا قلة إلا أنهم هم الذين غلبوا، وكَفَّروا من لا يقول بذلك، وفي عام (٣٨١م) اجتمع المجمع القسطنطيني الأول والذي قرر ألوهية روح القدس، ولعن الذين لا يقولون بألوهيته، وصارت الألوهية عند النصارى في ثلاثة أقانيم

متداخلة الآب والابن وروح القدس، وما مقالتهم هذه إلا مضاهات لقول الذين كفروا من قبل، الذين الهوا البشر والمخلوقات، وعبدوها من دون الله.

إشراق شمس النبوة الخاتمة:

وقبيل البعثة النبوية المحمدية لم يبق في فجاج الأرض من نور الوحي إلا شموع خافتة باهتة لا يكاد الناس يعرفون في ضوئها معالم الطريق، ولا تصلح لهدايتهم إلى الحق الخالص من الشوائب، كان العالم كله كذلك، ومنه الجزيرة العربية التي انتشرت فيها عبادة الأصنام والأوثان، يعبدها العرب لتقربهم إلى الله زلفى، فجاء رسولنا محمد ﷺ بالنور المبين والصراط المستقيم، والحق الأبلج، وفتح الله به العيون العمي، والآذان الصم، وأنار به القلوب، وأظهر به الله الحق، وَعَرَّف الناس بربهم، وأقام العباد على الحنيفية ملة إبراهيم، وبين للناس ما اختلفوا فيه، وبين الضلال الذي وقع فيه اليهود، وقال كلمة الحق في عيسى، وتُوفي الرسول ﷺ وقد حفظ الله كتابه الذي أنزله، ثم هيأ الحق - تبارك وتعالى - صحابة الرسول ﷺ فدونوا الكتاب، ونشروه في الآفاق، وجمعوا عليه الأمة، وحفظوا سنة الرسول ﷺ، وورثوها لمن جاء بعدهم، وبلغوا دعوة الله للعالمين، ونشروا هذا الدين، ولم يجد عدوهم إليهم سبيلا، ثم حدثت الفتنة.

بداية الفرقة والاختلاف ونشوء الفرق:

وانقسمت الأمة قسمين، وعلى الرغم من أن الشمل قد التأم، واجتمع أمر الأمة على رجل منها إلا أن الخلاف لم ينته، وعلى الرغم من أن الخلاف ابتدأ سياسيا، إلا أن الأطراف المتنازعة وصلت خلافها بالدين، ووجدت العقائد الكفرية والفلسفات الضالة التي كانت سائدة

قبل الإسلام بابا تدخل منه إلى المسلمين حال الفرقة والاختلاف.

لقد غلا بعض الناس الذين يريدون إضلال العباد في علي بن ابي طالب، وجعلوه أحق بالنبوة من الرسول، ومنهم من زعم فيه الألوهية، ومنهم من عده أفضل الصحابة، واتخذوا هذا بابا لهدم الإسلام، وسب صحابة الرسول ﷺ ومعاداتهم.

وانقسم هؤلاء إلى فرق كثيرة بعضها قريبة، وبعضها غالية، وبعضها بين ذلك، وأصبح لكل فرقة أصولها وعقائدها ومنهاجها، وسخط أخرون على علي بن أبي طالب ومعاوية وكفروهما، وكفروا من تبعهما، ونسبوا فعلهم هذا إلى الدين، وقالوا كل من ارتكب كبيرة فهو كافر، واستباحوا دماء مخالفيهم وأموالهم ونساءهم، وناقشهم الصحابة وحاربوهم، وكان لهؤلاء الذين عرفوا في التاريخ باسم الخوارج عقائد ومناهج، ولا تزال افكارهم تثور بين الفينة والفينة.

وفي نهاية عهد الصحابة خرج قوم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف، فقام لهم الصحابة ودحضوا مقالتهم، وأبطلوا شبهتهم.

ثم بدأت المقالات الضالة المتلقاة من تلامذة اليهود والمشركين وضلال الصابئين تنتشر في أوساط المسلمين، ومن أوائل من عرف عنه ذلك الجهم بن صفوان، والجهم أخذ مقالته من الجعد بن درهم، وهذا أخذ مقالته عن أبان بن سمعان، وأخذها هذا الأخير عن طالوت ابن اخت لبيد بن الأعصم اليهودي، وأخذها طالوت من لبيد بن الأعصم اليهودي الساحر.

وكان الجعد بن درهم من أرض حران، وحران موطن الصابئة، وفيها بعض فلاسفتهم، ويذكر الإمام أحمد أن الجهم اخذ مقالته من بعض فلاسفة الهند[1].

---

(١) الفتوى الحموية الكبرى ص١٤ المطبعة السلفية - القاهرة .

والجهم صاحب ضلالة تنسب إليه، وأتباعه يسمون الجهمية، وهم ينفون صفات الرب وأسماءه، وشيخه الجعد بن درهم زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا، ولم يكلم موسى تكليما، وأعملوا في النصوص التي لا توافق آراءهم مقاييس التأويل التي تصل إلى درجة التحريف.

ثم لما عربت الفلسفات الرومية واليونانية في حدود المائة الثانية زاد البلاء، وكثرت التيارات العقائدية والفكرية، وغزت عقول طوائف من المسلمين مثل واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، ونشأت الفرق المختلفة، ومن أشهرها المعتزلة التي ابتدأ أمرها واصل بن عطاء، وقد زعم المعتزلة أنهم يريدون أن يدافعوا عن الدين ضد الملحدين والنصارى والفلاسفة، ولكنهم لم ينجحوا في ذلك، بل تبنوا نظريات وآراء، أحدثت فرقة بين المسلمين.

وتبنى بعض الخلفاء العباسيين وجهة نظرهم، وابتلي المسلمون في عصور الخلفاء الذين تبنوا الاعتزال، وقام علماء المعتزلة بالحجر على الفكر المخالف لفكرهم، وتكفير من لم يرتض أصولهم، وقد زعموا أن التوحيد يقتضي نفي الصفات خشيه الوقوع في التجسيم، وزعموا بناء على ذلك أن القرآن ليس بكلام الله، كما زعموا أن العدل يقتضي أن العبد هو خالق فعله، والله ليس بخالق أفعال العباد، وقالوا مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر في الدنيا، بل هو في منزلة بين المنزلتين، وفي الآخرة كافر مخلد في النار.

وقد وقف في وجههم العلماء الأجلاء، وإمامهم إمام أهل السنة الإمام أحمد ابن حنبل، وقد ترك لنا المعتزلة تراثا ضخما يشرح أصولهم ونظريتهم، ومن أوسعها كتاب المغني، وكتاب شرح الأصول الخمسة وهذان الكتابان للقاضي عبد الجبار، وهما مطبوعان، ولقد أفل نجم المعتزلة في عهد الخليفة العباسي المتوكل، ولكنهم صبغوا الفكر الإسلامي بكثير من نظرياتهم، ومعتقداتهم.

ومن الذين هدموا مذهب المعتزلة بعض الذين نشأوا على الفكر المعتزلي أمثال أبي الحسن الأشعري المتوفى سنة ٣٢٤م، وقد بقي معتزليا أربعين عاما، ثم رجع إلى مذهب السلف، وعلى الرغم من أن أبا الحسن الأشعري اقترب من مذهب السلف فيما ذهبوا إليه إلى حد كبير[١]، إلا أنه لم يتخلص من أساليب المعتزلة وقواعدهم العقلية ومصطلحاتهم، وهذه الطريقة تؤدي بصاحبها إلى نتائج مخالفة لعقائد الأوائل، مهما ادعى أصحابها أنهم يسيرون على نهج السلف، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقبل المعتزلة والأشاعرة وبعدهم نشأت فرق كثيرة كالمرجئة والماتريدية والكلابية وغيرهم.

وكل فرقة من هذه الفرق لها بعض المعتقدات التي تخالف بها غيرها، ووراء كل معتقد من هذه المعتقدات فلسفات وتأويلات.

غلو الفرق في تقدير العقل:

وكل الفرق المخالفة لمنهج السلف غلت في تقدير العقل وقدمت حكمه على حكم الشرع، واستعملت الموازين والمقاييس العقلية في محاكمة القضايا الغيبية، وابتعدت هذه الفرق عن الكتاب والسنة بنسب متفاوتة، ولجأ كثير من الفرق إلى تأويل النصوص التي لا توافق آراءها ومعتقداتها، وغاب عن كثير من الفرق كثير من حقائق الإسلام.

لقد اختلف علماء الكلام في الصفات الإلهية وفي الصلة بينها وبين الذات، وفي إمكان رؤية الله - تبارك وتعالى - في الدنيا والآخرة، وفي مسألة العدل والجور، والقضاء والقدر، ولم يغادروا مسألة كبيرة أو صغيرة إلا اختلفوا فيها كثيرا أو قليلا، وقد عالج المتكلمون صفات

---

(١) ولكن الذين يسمون بالأشاعرة يرفضون منهج أبي الحسن الأشعري الذي صار إليه في آخر عمره، ودوّنه في كتابه (الإبانة)، ويصرون على المنهج الذي كان عليه قبل ذلك، ومعلوم أن مذهب المرء الذي يجوز أن ينسب إليه هو الذي صار إليه في آخر أمره .

الله كما لو كانت صفات إنسانية.

ونحن اليوم ورثنا عن المدارس الفكرية والعقائدية شيئا كثيرا من الأفكار والمعتقدات، وثارت في أيامنا هذه معتقدات جديدة في الشرق والغرب غزت ديارنا وعقولنا ومناهجنا، فماذا نفعل؟ وكيف نتصرف؟!

سبيل الخلاص: الاعتصام بالكتاب والسنة:

لقد كان من فضل الله علينا أن حفظ لنا ربنا قرآننا وسنة نبينا، فلم يحدث لنا كما حدث للأمم من قبلنا الذين ضلوا بعد أن ضاعت أو حُرِّفت كتبهم، وكان من فضل الله علينا أيضا أن أبقى معالم الحق واضحة في هذا الدين في معتقداته وشرائعه، وهدى في كل جيل طائفة التزمتها وأظهرتها ونافحت عنها، وقد قال المصطفى ﷺ « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك ».

الطائفة الناجية المنصورة ومنهجها:

وقد تمثلت هذه الطائفة في سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين ومن اتبعهم من العلماء الذين ساروا على دربهم واهتدوا بهديهم، أمثال الأئمة الأربعة أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل، والليث ابن سعد وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة، والبخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وغيرهم كثير.

وحال سلفنا الصالح وأقوالهم وعقيدتهم كل هذا محفوظ مدون، وطريقهم ليس به خفاء.

وقد أخبر الرسول ﷺ أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وعندما سُئل عن الفرقة الناجية المنصورة

قال: من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي اليوم.

ومنهج هذه الفرقة الناجية المنصورة هو المنهج الإيماني القرآني النبوي، ويقابل هذا المنهج: المنهج الفلسفي الكلامي والمنهج الفلسفي الصوفي الاستشراقي.

ويختلف المنهج القرآني النبوي عن المنهج الفلسفي الكلامي في مصادره ومنابعه وفي طريقه وسبيله، وفي قوة التأثير والسيطرة، وفي الأسلوب وطريقة الاستدلال، وفي الغاية التي يرمي إليها.

وقد حارب أئمة السلف الاتجاه الفلسفي الكلامي والصوفي اللذين يريدان أخذ الأمة بعيدا عن المنهج الإيماني القرآني النبوي، حارب هذا الاتجاه الإمام الشافعي والإمام أحمد والإمام ابن خزيمة والبخاري وغيرهم من أئمة الهدى.

وفي كل عصر يقيّض الله من العلماء والأئمة من يُظهر هذا المنهج القويم الذي يحيي النفوس، ويهدي للتي هي أقوم.

ومن أعظم الذين قيضهم الله لنصرة هذا المنهج شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فقد كان ذا عقل ثاقب، وفكر راجح، وقد أحاط بأقوال العلماء، ووفق للصواب، ونفع الله به البلاد والعباد، وتتلمذ على يديه علماء أعلام كابن القيم وابن كثير.

ومن العلماء الذين هدوا للمنهج الإيماني القرآني النبوي في العصور الأخيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي ظهر في القرن الثاني عشر الهجري في وسط نجد، فحارب الشرك والباطل، ونصر الحق، ونشر كتب العلم الأصيلة.

ومنهم محمد بن إسماعيل الصنعاني المعروف بالأمير الكحلاني صاحب سبل السلام، ومنهم العلامة الشوكاني صاحب نيل الأوطار،

وهما من علماء اليمن الأخيار.

وقد ورثنا عن أصحاب المنهج الإيماني القرآني النبوي كثيرا من الكتب التي توضح معتقد أهل السنة والجماعة، وتحارب المنهج الفلسفي الكلامي وتبين معايبه، ومن خير هذه الكتب العقيدة الطحاوية ومؤلفها أبو جعفر أحمد بن محمد سلامة الأزدي المصري الحنفي المتوفى سنة ٣٢١م، وقد شرحها شرحا قيما رائعا، صدر الدين علي بن محمد ابن أبي العز الحنفي.

واليوم والأمة الإسلامية ـ تحاول أن تنهض من كبوتها، وتقوم من عثارها تتلفت إلى الماضي لتبني نهضتها على أساس من عقيدتها وتراثها ـ يجب أن يعلم أولو الألباب أن تراثنا فيه الغث والسمين، وفيه الخير والشر، وفيه الهدى والضلال، إن تراثنا يمثل تراث المدارس المختلفة وكثير من هذه المدارس لم تكن على المنهج الواضح.

ولذلك فإن السبيل لنهضة صادقة أن نعود إلى ذلك المنهج الإيماني القرآني النبوي الذي كان عليه الرسول ﷺ وصحابته، وهو واضح المعالم، وكتبه ظاهرة بينه ليس بها خفاء.

دعوة جديدة خطرة:

وإني ألفت نظر رجال الفكر إلى خطورة ما يقوم به المستشرقون، وبعض الذين غرر بهم من أبناء المسلمين من إحياء الفكر المعتزلي الكلامي هنا وهناك، وتحبيب الناشئة من أبناء المسلمين به، وهناك فريق آخر يحاول أن يحيي الفكر الفلسفي الاستشراقي الذي ينادي بوحدة الوجود والمتمثل في كتب ابن عربي والحلاج وابن الفارض وابن سبعين وغيرهم.

إن المنهج الفلسفي الكلامي والمنهج الفلسفي الصوفي كلاهما لم يستطيعا أن يقيما الأمة من عثارها في الماضي، بل كانا من أسباب البلاء الذي أصاب الفكر الإسلامي، وقد أحدثا شرخا هائلا في هذا الفكر، وقد أحدث علماء الكلام في الماضي من الخلاف والفرقة والانقسام ما يكفي بعضه لهجر هذا المنهج، وقد أقعد المنهج الصوفي المسلمين عن الجهاد ومحاربة الشر وكان من أسباب الضياع الذي أصاب المسلمين.

لم يفلح المنهجان في إصلاح حال الأمة، ولم يستطيعا أن يصدا هجمات الخصوم الفكرية والعقائدية، فأحر بهما أن لا يستطيعا اصلاح حال الأمة في الحاضر، وأن لا يستطيعا مواجهة العقائد التي يموج بها القرن العشرين في شرق العالم وغربه.

إن الذين يحاربون المنهج الإيماني القرآني النبوي الذي يتمثل في المنهج السلفي أحد رجلين: إما جاهل بهذا المنهج لا يعلم حقيقته، وإما عدو حاقد لا يريد بالأمة خيرا.

وبعض هذين الصنفين لجأ إلى تحريف المنهج الخير إذ بدأ يكتب في المنهج ليحرفه ويفسده، ولكن باطل هؤلاء لا يروج على من عرف المنهج والسبيل.

وفي الختام أقول كما قال إمام دار الهجرة أنس بن مالك « لن يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها» وأقول كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢]

المحاضرة الثانية

التوحيد محور الحياة

تقديم

الداعي لهذه المحاضرة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، وعلى من اهتدى بهديهم واتبع سبيلهم إلى يوم الدين، وبعد:

فإن من تأمل في خاتمة الرسالات السماوية تأمل فقيه معتبر ـ علم يقينا ـ أن توحيد الله هو محور هذه الرسالة، بل هو محور كل الرسالات السماوية، وهو كذلك محور حياة الإنسان الحق، فقيمة الإنسان الحقيقية تتبدى عندما يجعل الإنسان ربه محور حياته، ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، وبذلك تتفق وجهة الإنسان ووجهة الكون الذي يعيش فيه، فالكون كله مطيع لله، خاضع لسطانه، مسبح بحمده، فإذا تمرد العبد على ربه أصبح نغمة نشازا في هذا الوجود الهائل المتجه إلى الله وحده بالطاعة والخضوع.

وهذه الرسالة أصلها محاضرة ألقيت في المؤتمر السنوي المتمم للعشرين لجمعية الطلبة المسلمين في المملكة المتحدة وايرلندا الذي انعقد في الفترة من ١٨ إلى ٢١ من ديسمبر ١٩٨٠، وقد هدفت إلى تجلية القضية الكبرى التي ينبغي أن تكون مدار حياة الفرد المسلم والمجتمع المسلم، ألا وهي توحيد الله ـ تبارك وتعالى ـ.

وعلى الدعاة والكتاب والمدرسين أن يجهدوا أنفسهم في بيان هذه القضية بشتى الوسائل والأساليب، لأنها القضية العظمى التي يجب على كل فرد من بني البشر أن يستوعبها ويدركها، وإلا فإنه يخسر الدنيا

والآخرة، نسأل الله أن يمن علينا بإخلاص الدين له، والعمل بطاعته، إنه نعم المولى والنصير.

انتم الأمل لعالم يلفه الشقاء:

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الإخوة والأخوات: أنتم وأمثالكم من الفتية والفتيات في مشارق الأرض ومغاربها الذين آمنوا بربهم وزادهم الله هدى ـ الأمل الذي ينعقد عليه الرجاء كي يخلص الحياة من الظلم والطغيان الذي يلفّ العالم اليوم ويكاد يدمره تدميرا.

لقد بلغت البشرية اليوم شأوا عظيما في العلوم المادية، فحلقت في أجواز الفضاء، وغاصت في أعماق الأرض، وكشفت كثيرا من أسرار المخلوقات، ولكنها في العلوم التي تُعَرِّفها بخالق الحياة، وأسرار

الوجود، وخفايا النفس الإنسانية جاهلة جهلا يكاد يكون مطبقا، ولذا فإنّ العلوم المادية التي حصلت عليها قد تكون نقمة لا نعمة، وقد يدمر البشر ما شيدوه من حضارة وعمران بأيدهم.

لقد جهل الإنسان في هذه الأيام نفسه، جهل سبيل السعادة والهناء، الناس البعيدون عن وحي الله المنزل يبحثون عن السعادة والطمأنينة، ولكنهم لا يعرفون طريقها، فهم كمن يضرب في صحراء شاسعة مترامية الأطراف، تشابكت طرقها، وامحت معالم دروبها، فهم يهيمون على وجوههم من غيردليل يهديهم، فأنّى يعرفون المسار الموصل إلى الهدف المنشود ؟

لقد هجرت البشرية اليوم تعاليم الأنبياء الذين جاءوا ليعرِّفوها الطريق الذي يوصلها إلى الشاطئ الآمن، ويقيمها على الصراط المستقيم، واستكبرت البشرية عن أن تأخذ بالمنهج الذي وضعه خالقها وإلاهها، فكانت عاقبتها هذه الشقوة التي يحس بها الناس في قرارة نفوسهم، وتبدو آثارها على قسمات وجوههم، والله إنني لألمح آثار هذه الشقوة تطل من العيون، وترتسم على الوجوه، عيون ووجوه أهل هذه الديار[1] التي أعرضت وتولت عن الله ودينه، وهذا حال كل بلدة شردت عن الله ومنهجه، ولا يعرف هذا الأسى وذلك الحزن والشقاء إلا من تخلص من جاهليتهم هذه، وقد لاحظ هذا الذي لاحظته محمد أسد[2] بعد إسلامه، وسجله في كتابه « الطريق إلى مكة» والذي عنون له في طبعة لاحقة بعنوان «الطريق إلى الإسلام ».

إنَّ الأمراض النفسية والعقد النفسية سمة هذا العصر، وإن علماء النفس وعلماء الاجتماع الذين يهرول إليهم أبناء هذه المجتمعات

---

(١) المحاضرة ألقيت في بريطانيا .

(٢) كان اسمه قبل الاسلام لوبولد فايس، وكان يهوديا من النمسا .

ليشفوهم من عقدهم وأمراضهم لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلا، بل إن كثيرا من هؤلاء يشكون من نفس الأمراض التي يطلب الناس علاجها عندهم، فكيف يعالجون غيرهم من شقوتهم، وهم يعيشون في مثل تلك الشقوة !!.

يحدثني مشرف اجتماعي في احدى المدارس بعد علاقة صداقة بيني وبينه عن هموم أثقلت نفسه، وغزت قلبه، فعكرت صفو أيامه، وأسهرت لياليه، وهو لا يعرف لها سببا، ولا يجد لها علاجا، ولم يجد أمامه إلا تلك التعاويذ التي كانت تعوذه بها جدته، وإلا أن يضع المصحف تحت وسادته عند منامه، قولوا لي بالله عليكم - كيف يحل مثل هذا المثقل بهمومه وأعبائه هموم الآخرين ومشكلاتهم، ولو أحسن الصلة بالله، وشغل جزءا من يومه في ذكر الله لاطمأن قلبه وهدأت نفسه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

إن الآلام والهموم والأوجاع النفسية اليوم ليست مقصورة على أهل الدول المتأخرة، ولكنها سمة المجتمعات التي يدعي أصحابها التقدم والحضارة والتمدن، ولقد فقد الناس في هذه الحياة طعم الحياة، فهانت عليهم الحياة، وهانت عليهم أنفسهم، ومن هنا جاء هذا التمرد من الشباب والفتيات في مثل هذه المجتمعات، هذا التمرد الذي ترى مظاهره في الهيبيز، والتافهين، وفي أجيال المخدرات حيث يهرب هؤلاء من واقعهم وهمومهم بتعاطي تلك السموم التي تفقدهم عقولهم، وتهدم أجسادهم وقواهم.

وقد بلغ الأمر بهؤلاء إذا ما واجهتهم الصعاب والمشكلات أن يرقى أحدهم إلى قمة بناء مرتفع، ثم يلقي بنفسه، فيصل إلى الأرض أشلاء ممزقة.

وقد هالني خبر قرأته بالأمس، قرأت خبر مظاهرة صاخبة بلغ تعداد المشاركين فيها مائة ألف، بقي أن تعلموا أن هذه المظاهرة لم تقم لأن الروس قد احتلوا أفغانستان، وأذاقوا أهلها البلاء أشكالا وألونا، ولا لأن المئات في الهند وفي غيرها يسقطون كل يوم موتى من الجوع، ولا لأن حقوق الإنسان انتهكت في كثير من بقاع الأرض، إنما قامت لأن مغنيا اغتيل وسقط ميتا، ولم يكتف بعض هؤلاء بالمظاهرة تعبيرا عن حزنهم، وآلامهم، لقد انتحر اثنان من المتظاهرين، أي قيم هذه، وأي مُثل ؟ إنها حياة تافهة تُعَظم التافهين، وتُنهي حياتها حزنا على هذه التفاهات، أين هذا من المسلم الذي لا يحركه إلا أمر الله، ولا يوقفه إلا نهي الله، والذي جعل حياته ومماته وقفاً على مولاه !!.

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]

بقي أن نعلم أن هؤلاء المتظاهرين، وأولئك المنتحرين التافهين ليسوا في دولة متأخرة، وإنما هم أبناء دولة متحضرة هي أمريكا، ويذكرني هذا بشيء مماثل حدث في مصر عندما هلك المغني المعروف عبدالحليم حافظ، وانتحر على أثر وفاته أربعة أشخاص.

انظروا أيها الإخوة إلى حياة الناس في هذه الديار المتحضرة، أين الأمن فيها؟ أين السكينة والهناء ؟ فقد ذلك كله، ومن يطالع التلفاز، وينظر في الصحافة، ويسمع الأخبار، يعلم المدى الذي وصلت إليه الجريمة التي أقلقت مضاجع الناس، وجلبت الخوف والرعب إلى النفوس، إن الدماء تسيل في كل يوم لتعلن عن هذا العذاب وهذا الشقاء الذي يعيشه الإنسان.

أنتم حملة دعوة الرسل العظام:

وأنتم أيها الإخوة أمل البشرية في حاضرها كما كان أسلافكم أملها في ماضيها، أنتم لا تمثلون أمة يمتد تاريخها إلى ألف وأربعمائة عام فقط، ولكنكم تمثلون تاريخها يمتد إلى أغوار بعيدة في الزمان، أنتم امتداد للرسل الكرام، والأنبياء العظام، الذين تلاحقوا على مدار التاريخ الإنساني، يحملون مشاعل الهداية للبشرية، أنتم تحملون نفس الراية التي حملوها، وتعتقدون العقيدة التي اعتقدوها، وتنشدون الهدف الذي راموا تحقيقه، كلنا أيها الاخوة تجمعنا مسيرة واحدة، وجهتها ومعبودها هو الله، فإليه نسير، وبهديه نستنير.

ما دوركم؟

إنَّ دورنا ـ أيها الإخوة ـ نحن الذين رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا ـ هو دور الرسل الكرام وأتباعهم على مرّ العصور، أن نَرُدَّ البشرية الشاردة التائهة الحائرة التي ضلت في منحنيات الطريق إلى ربنا الواحد الأحد، كي ترضى به ربًّا ومعبودا، وبدينه منهجاً وطريقا، وبرسوله هاديا ومبشرا ونذيرا، وهذه المهمة التي نحملها اليوم على كواهلنا هي المهمة التي حملها الأخيار من أسلافنا الكرام، ونحن إذ نحملها فإنما نقوم عن البشرية بعبء أشفقت السموات والأرض من القيام به، وتحمّله بنو آدم، ولكنّ كثيرا منهم ضيعوه، وتهربوا من حمله، ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾[الأحزاب:٧٢].

هذه الأمانة الغالية تحمّلها المصطفون الأخيار، فقد أرسل الله جميع الرسل للمناداة بها، وتحقيقها في واقع البشر ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي

كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقد أوجز الحق هذه الغاية في كلمات قليلة خاطب بها نبيه موسى عليه السلام عندما كان عائدا من مَدْيَنَ فأضل الطريق في صحراء سيناء، فانطلق إلى نور لاح له من بعد، وعندما أتاه خاطبه الحق قائلا: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٤]، بهذه أمره، ومن أجل هذا خلقه، ومن أجل هذا خلق البشر جميعا، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ، مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

إن معرفة الله والعلم به والتوجه إليه هي نقطة البداية الصحيحة في المسيرة الإنسانية، والضلال عن الله والجهل به هو نقطة الضياع في الحياة الإنسانية، إن الإيمان بالله قاعدة يبنى عليها بناء هائل، وأصل لا يغني عنه غيره، فإذا قام البناء على غيرهذه القاعدة كان بناء ضعيفا مختلا، وفي كثيرمن الأحيان يقتل من بناه، ويدمر من سكنه.

بالعلم بالله ومعرفته تزكو النفوس:

إنَّ العلم بالله يزكي النفس الإنسانية، فالعلم هو الأصل الذي يقوم عليه العمل، والنشاط الإنساني الدائم الدائب أثر لمعتقدات الإنسان وأفكاره، وقديما قالوا: الإنسان أسير أفكاره.

ولذلك نجد القرآن يأمرنا بالتعرف على ربنا، والعلم بأسمائه وصفاته، يقول الله لنبيه ﷺ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، فكل إنسان مطالب بأن يعلم بأن لا إله إلا الله، وأن الله سميع عليم، غفور رحيم، عزيز حكيم، غني حميد إلى غيرذلك من

الصفات، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٤]، وقال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨] وقال: ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

وقد حدثنا الرب - تبارك وتعالى - عن صفاته وأفعاله، وكانت السور والآيات التي تحدثنا عن ذلك هي أعظم سور القرآن وآياته.

ففي الحديث أن ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] تعدل ثلث القرآن، وفي الحديث أن آية الكرسي أعظم آية في كتاب الله، وهذه الآية، وتلك السورة حديث عن الله - تبارك وتعالى - وصفاته، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤]، إنها تثبت لله الوحدانية، في ذاته، فليس له مثيل ولا نظير ولا ندّ ولا شريك، تعالى عن الصاحبة والولد.

وآية الكرسي: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

هذه الآية حديث عن الله، فهو المعبود الحق المتصف بالحياة التامة التي لا يعروها نقص، والقيومية التامة فهو قائم بنفسه مقيم لغيره، ولكمال حياته وقيوميته ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، والسِنَة أوائل النوم، وهوالملك الحق، الذي يملك ما في السموات والأرض، والكل تحت قهره وفي قبضته، لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، وعلمه محيط بعباده، يعلم ما قدموا وما أخَّروا، ولا ينال البشر من العلم إلا

ما شاء الله أن ينالوه منه، ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

واستمع إلى هذه الآيات الكريمة التي تحدثنا عن ربنا وتعرفنا به ثم لاحظ أثرها في نفسك ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ، هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢- ٢٤].

ويُفَصِّل القرآن لنا القول في بعض صفات الله كي تأخذ ابعادها في نفوسنا، يحدثنا - مثلا - عن علمه، فإذا به علم واسع محيط، يحيط بالحياة والأحياء، يخترق الحجب والظلم، ويصل إلى اغوار النفوس، والكبير والحقير في علمه سيان ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ، وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٥٩-٦٠].

وقال في موضع آخر ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ، وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢، ٣].

وقال في موضع ثالث: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا

تزداد وكل شيء عنده بمقدار، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴾ [الرعد: ٨ ـ ١٠].

وكما حدثنا الحق عن صفاته حدثنا عن أفعاله، وهوحديث يخالط النفس، ويأسر الروح، فترى الإنسان يستمع إلى الآيات وهي تجول به في هذا الكون تبصره بصنع الله، وكأنما هو يشاهد هذا الكون وما فيه لأول مرة، فإذا القلب موصول بالله ـ تبارك وتعالى ـ، وإذا النفس تخشع، والعين تدمع، واللسان يسبح لله: ﴿ فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم، وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون، وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون، وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾[الأنعام: ٩٦ ـ٩٩].

وقال في موضع آخر: ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين، هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون، وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون، وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون، وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا

وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٥ ـ ١٤].

بالإيمان بالله تكشف الأسرار ويتحدد المسار:

إن معرفة الله من خلال صفاته وأفعاله هي نقطة البداية الصحيحة كما أسلفت من قبل في حياة الإنسان، واذا وُفّق العبد إلى هذه النقطة فقد أوتي خيرا كثيرا، ذلك أنه اهتدى إلى الله ربه، ومن ثم فإنه يضع نفسه على الطريق الصحيح في رحلته، وسيصل أخيرا إلى نهاية طيبة هناك في جنان الخلد.

إن علمنا بالله ومعرفتنا به، تصلنا بالله، وتُقوِّم نفوسنا، وتصلحها، ثم انها تعرفنا بأصلنا، وبالكون من حولنا، الإيمان بالله يكشف لنا سرّ الكون، وسرّ الوجود، ويعرفنا بغاية الوجود وغاية الإنسان، ولقد أحسن البخاري كل الإحسان عندما بدأ كتابه الجامع الصحيح الذي هو أصح كتاب بعد كتاب الله بكتاب الوحي، لأن الوحي هو السبيل المأمون للمعرفة، لا أقصد معرفة الله فحسب، بل معرفة الحقائق الكبرى التي تقوم عليها الحياة، فإنك إذا آمنت بالله، وصدقت به، وقبلت ما جاءك من عنده كُشفت لك كثير من الأسرار.

إن البشر الذين يرفضون وحي الله يحتارون وتضطرب أفكارهم، ولا يقر لهم قرار، ترى البشر اليوم يبحثون عن أصلهم فيضلون، وينظرون في غاية وجودهم فيحتارون، وينظرون في مصدر الكون فيجهلون، ويبحثون عن العلاقة بين الرجل والمرأة، ووظيفة المال، وطريقة سياسة الأمة فلا يهتدون.

إنها نظريات تتضارب وتتصارع، لقد وصل الحال بالبشر اليوم إلى أن قالوا بأن الكون وُجد من غير موجد، والحياة الدنيا هي الغاية،

وليس وراءها للإنسان مطلب، وقامت العلاقة بين الجنسين على الرذيلة، وأخرجوا المال عن وظيفته، فاستعملوه في الربا، ولا تزال نظريات الحكم في الشرق والغرب تتغير وتتبدل، وصدق الله إذ يقول: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، إن الظلمات هي تلك النظريات والعلوم التي تخطط للإنسانية بعيدا عن منهج الله.

المسلم يؤمن بالله ثم يستمد منه كل شيء، من خلال وحيه إلى رسله، نعرف ربنا، ونعرف أنفسنا وطريقنا، والكون من حولنا، وعندما يكون البشر كذلك يتحول هذا الصراع الذي زلزل المجتمعات الإنسانية إلى وفاق، وتتوقف هذه المآسي التي سببت الدمار والكوارث، وتختفي الدعوات والنظريات التي تفرق البشر، ويعود الأمر إلى نصابه، ويصبح البشر أمة واحدة كما أخبر الحق ـ تبارك وتعالى ـ ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المؤمنون: ٥٢]، فالذين انتموا إلى دعوة التوحيد يشكلون أمة واحدة على الرغم من اختلاف العصور والأمكنة والأشكال والأجناس.

الله هو الغاية وله التوجه والعمل:

ولكن العلم بالله لا يكفي، بل يجب أن يكون الله هو الغاية أيضا، فالنشاط الإنساني يجب أن يوجه وجهة معينة، وبذلك تتسق البداية والنهاية، ويتحد المنطلق والغاية، إن الأصل الأول الذي تحدثنا عنه هو العلم بالله ومعرفته، والأصل الثاني الذي يبنى على ذلك هو التوجه إليه وحده، ولا تصلح حياتنا بدون ذلك، وتلك نتيجة منطقية لمن آمن بالله ربا وخالقا، ولمن آمن بصفاته وأفعاله، كيف نقول أن الله هو الذي خلقنا وأوجدنا وخلق الكون، وهو الذي يرزقنا ويطعمنا ويسقينا ثم نتوجه إلى غيره، ونتحاكم إلى غيره !!؟ هذا تناقض ما بعده تناقض،

يرفضه المنطق السليم، والعقل المبصر اليقظ.

ولقد وقعت البشرية كثيرا في هذا التناقض، فكثير من الناس اعترفوا بالله رباً وخالقا ورازقا، ولكنهم لم يخضعوا لجلاله وعظمته، ولم يقدسوه، ولم يسألوه ويعتمدوا عليه ويتوكلوا عليه، بل كثير من الناس اتجهوا إلى غيره بالتقديس والتعظيم، وسألوا من لا يستحق السؤال، وقد ناقش الرسل أقوامهم في عدم استحقاق الآلهة التي يعبدونها للعبادة، وأن الذي يستحق ذلك هو الله، لأنه هو الخالق الرزاق الحي السميع البصير المحيي المميت.

لقد حاج إبراهيم قومه في الألهة التي يعبدون ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ، قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ، قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ، أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ، قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ، قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ، أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ، وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٠ ـ ٨٢].

إنها لا تستحق العبادة لأنها لا تسمع داعيها، ولا تضر ولا تنفع، الله وحده الذي يستحق العبادة لأنه المطعم المسقي، الذي يشفي المريض، ويميت ويبعث الموتى، وهو الذي يغفر الذنوب ويتجاوز عن الزلات، وقد أمر الله رسوله محمدا ﷺ أن يواجه المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة، وأن يبين لهم أن هذه الآلهة لا تستحق شيئا من ذلك، وأن الله وحده هو المستحق لذلك كله ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ، أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ، أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ

وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ، أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ، أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ، أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [النمل: ٥٩ - ٦٤].

ما دام الله وحده الذي فعل ذلك كله فهو المستحق للعبادة، ومنهجه الذي أنزله للناس كي يسيروا وفقه في حياتهم الخاصة والعامة، وكي تسير عليه مجتمعاتهم هو المنهج الوحيد الصالح للحياة، والبشر الذين يعرفون الله، ويتوجهون إليه وحده دون سواه، ويتلقون منهجه، ويعملون به، هم الذين يحققون التوحيد والوحدة، توحيد الإله الخالق الرازق، فهذا الكون له رب واحد وخالق واحد، وبذلك لا يضيع الإنسان بين أرباب كثيرة تحيره وتضله ﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [يوسف: ٣٩].

وهو يتوجه إليه وحده، يتعرف عليه من خلال أسمائه وصفاته، فيشغل نفسه بأعظم قضية وأشرفها، ثم تكون أشواقه وآماله متجهة إلى الله الواحد، فله حبه، ومنه خوفه، وإليه رجاؤه، وعليه توكله واعتماده، يوجه عمله إليه وحده، اللهم لك نسجد، واليك نسعى ونحفد، ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الأنعام:١٦٢].

نعم يصبح الله هو محور العلم والفكر والعمل، وكل ذلك وفق تعاليم واضحة تلقاها العبد من الله، لقد كان الله هو محور حياة الأنبياء والرسل والصالحين من البشر، وحسبك أن تنظر في مسيرة الرسل والأنبياء من خلال القرآن فتعلم هذا، وكل التعاليم التي أنزلت إلى الرسل تدور حول هذه القضية، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ

أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وأمر الله رسوله الخاتم أن يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[الأنبياء:١٠٨].

مدار القرآن كله على التوحيد:

ومن تأمل في كتاب الله جيدا وجد مصداق هذه الآية فيه، فالقرآن كله دائر حول هذه القضية، وكل ما أوحاه لرسوله ﷺ داخل في هذه المسألة، فالقرآن إما خبر عن الله تعالى وأسمائه وصفاته، وإما دعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما يعبد من دونه، وهذان هما جانبا التوحيد: التوحيد العلمي الخبري الذي يصف الله ويخبر عن أفعاله، والتوحيد القصدي الطلبي، الذي يوحد وجهة العباد نحو رب العباد، وإمّا أوامر ونواهي والزام بطاعة الله، وهذا من حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن إكرامه لأهل التوحيد وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة، فهذا جزاء التوحيد، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب فهذا جزاء من خرج عن التوحيد، فالقرآن كله عن التوحيد ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

من ضل عن الله خسر كل شيء:

إن توحيد الله نقطة البداية في حياة المسلم وحياة الأمة الإسلامية وهو نقطة النهاية، ومن ضلّ عنه خسركل شيء، خسر الدنيا والآخرة، وهو أضل من حمار أهله، فحياته ضنكة، وسعيه مردود، وذنبه غير مغفور، وآخرته شقاء ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن

يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً ﴾ [النساء: ١١٦] ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: ٣١].

وما دام ذنب هؤلاء غير مغفور فهم محرومون من الجنة خالدون في النار ابدا: ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ﴾ [المائدة: ٧٢]. ﴿ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ، لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٠، ٤١].

وقد حدثنا الرسول ﷺ: أن إبراهيم يلقى أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم، ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول له أبوه: اليوم لا اعصيك، فيقول إبراهيم: يارب إنك وعدتني ألا تخزني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقول الله تعالى: « إني حرمت الجنة على الكافرين »، ثم يقول لإبراهيم: ما تحت رجليك ؟ فينظر فاذا هو بذيخ متلطخ، فيؤخذ من قوائمه فيلقى في النار»[1] وصدق الله إذ يقول: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ [محمد: ٣٤].

أما الموحدون المستقيمون فسعيهم مشكور وذنبهم مغفور ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً، خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ [الكهف: ١٠٧، ١٠٨].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، انظر مشكاة المصابيح، حديث رقم (٥٥٨٣) جـ٣ ص٥٨: والقترة هي السواد من الكآبة والحزن، والغبرة: الغبار، والذيخ: ذكر الضبع الكثير الشعر، وإنما مسخه الله ضبعا حتى لا يخزى به إبراهيم بعد ذلك لعدم معرفة الناس انه والد إبراهيم، وبذلك يتحقق وعد الله لإبراهيم، ولكنه لا يدخل الجنة .

الدعوة إلى التوحيد واجب الدعاة الأول:

وإذا كان هذا شأن التوحيد، وذاك خطره فإنه حريّ بالمسلم أن يتعرف إليه، ويدقق فيه حتى ينجو من الشرك، خاصة وأن الشرك خفي أخفى من دبيب النمل كما يقول ابن مسعود.

وحريّ بالدعاة أن يوجهوا جهودهم إلى تبصير الناس، كيف يوحدون ربهم، وكيف يخلصون دينهم لله، وعليهم أن يجعلوا ذلك هو الأصل والأساس، كما كان الرسل من قبل، وعليهم أن يربطوا مشكلات الناس وقضاياهم بالأصل الكبير.

الشرك لم ينته من ديار الإسلام:

إن مظاهر الشرك وصوره لا تزال بارزة في حياة المجتمعات الإنسانية إلى اليوم، لا تزال التماثيل والأصنام والأبقار والفئران تقدس في كثير من ديار العالم، ولا يزال في ديار المسلمين أقوام يقدسون الأموات ويعبدونهم من دون الله بالاستغاثة والاستعانة بهم والذبح والنذر لهم والطواف بقبورهم.

الشرك الأكثر انتشاراً في عصرنا:

ولكن المصاب الكبير اليوم هو مشاركة البشر لله في حكمه، حيث قام فيهم من يشرعون للناس قوانين وتعاليم تخالف منهج الله وشرعه، لقد اعتدى رجال القانون ورجال الحكم على حق من حقوق الله، ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّه أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاه﴾ [يوسف: ٤٠] وجعلوا أنفسهم أنداد لله ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وهذا من الجهل والضلال ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ

يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وهؤلاء الذين يضعون القوانين والذين يحكمون بها والذين يرضون بالتحاكم إليها يناقضون دعواهم عندما يدعون أنهم مؤمنون موحدون ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٤٧] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

وقد ذم الحق - تبارك وتعالى - أهل الكتاب الذين تابعوا أحبارهم ورهبانهم الذين شرعوا خلاف ما أنزل وعدّهم عابدين لهم، ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١]، إن دعوة التوحيد تقضي الالتزام بالمنهج الحق، أما الاعتراف بالله ربا ومعبودا، والتوجه إليه في الصلاة والصوم والدعاء، والاستكبار عن الالتزام بشرعه في أمور السياسة والاقتصاد والحكم والتربية ونحو ذلك، فهذا من جنس ضلال المشركين الذين عبدوا مع الله آلهة أخرى.

معالم هادية في أعظم قضية:

وعلينا اليوم ونحن نبذل الجهود في شتى بقاع الأرض لحمل الراية التي استلمناها من أسلافنا أن نتذكر الأمور التالية:

١- إن دعوة الناس إلى توحيد الله علما ومعرفة في القلب والضمير، وعبادة وتوجها بالعمل والسلوك، هي القضية الكبرى في الإسلام، وهي القضية التي جرى حولها الصراع خلال تاريخ البشرية الطويل، وهي القضية التي حملها الرسل، وكانت المحور الذي ترتكز دعوتهم عليه، والذين لم يفقهوا هذه القضية خسروا خسرانا مبينا.

٢- إن قضية توحيد الله سبحانه وتعالى تتحقق بأمور:

الأول: أن نعرف ربنا سبحانه، ونقر اقرارا جازما بأنه خالقنا وخالق هذا الكون الذي نحن فيه، وما فيه من عوالم، ونوقن بأنه قائم على هذا الكون يدبره ويصرف أموره، وأن علمه محيط بمخلوقاته، وقدرته نافذة فيهم، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يدعو ربه مقرا بهذه الحقيقة وهو يناديه ويناجيه ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧].

الثاني: أن نعترف جازمين أن هذا الإله الخالق الرازق المدبر المصرف القادر المتصف بصفات الكمال والجلال هو المستحق للعبادة دون سواه.

وأكثر الناس كانوا ولا يزالون يصدقون بوجود الله وأنه الخالق للكون، وأنه الرازق المحيي المميت، ولكنهم لا يعبدونه وحده، بل يعبدون غيره معه، ومن هؤلاء العرب الذين بُعث إليهم الرسول ﷺ، فقد كانوا يعبدون الله ويحجون له، ويدعونه، ويزعمون أنهم أبناء إبراهيم وحملة دعوته، ويقرون لله بالخلق والرزق والاحياء والإماتة، ولكنهم يعبدون معه الأصنام والأوثان والأنداد ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١].

﴿ قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ، قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ، قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٨٤ ـ ٨٩] .

ولا شك أن هذا تناقض بيِّن، فكيف نصدق بأنَّ الله وحده هو الخالق الرازق المحي المميت، ثم لا نقصده وحده بالعباده والدعاء والاستعانة، وكيف نتحاكم إلى شرائع البشر، ونتبع مناهجهم !! كل ذلك ضلال.

وأحب أن أبين هنا أن بعض الكاتبين يطلق اسم الإيمان على الذين يعترفون بوجود الله، ويقرون بخلقه للكائنات، وإن لم يعبدوه ويتبعوا منهجه، وهذا خطأ بيِّن، فالإيمان معروفة حدوده، بيِّنة معالمه، لا ينسب إليه إلا من أخذه كما جاء في الكتاب والسنة، وقد سئل الرسول ﷺ عن الإيمان فقال: « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره من الله تعالى» فمن نقص ركنا من هذه الأركان فليس بمؤمن، وليس الإيمان مجرد التصديق بوجود الله فحسب.

وأمر آخر أحب أن أبينه هنا، وهو أسلوب القرآن في محاجة المشركين الذين يعترفون بوجود الله وأنه الخالق الرازق المحيي المميت المدبر المتصرف، ثم يعبدون غيره معه، ولا يفردونه بالعبادة، فقد أطال القرآن في عرض الأمر الأول ليلزم بالأمر الثاني، إذ الخالق الرازق... هو المستحق للعبادة دون سواه.

قال تعالى مخاطبا المشركين ليدلل على استحقاقه العبادة دون غيره: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ

كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ، وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ، وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠ - ٣٣].

الثالث: أن نتعرف على ربنا من خلال النصوص التي تحدثنا عن أسمائه وصفاته وأفعاله، فهذا هو المنفذ الذي يدلّ الناس على ربهم، ويعرفهم به معرفة حقّه، فالله لا يعرف بالرؤية والمشاهدة في الدنيا، ومن يطالع كتاب الله بتدبر وتامل فإنه يرى صفحات هذا الكتاب وقد امتلأت بالحديث عن الله وصفاته وأسمائه.

والتأمل في صفات الله وأسمائه، ودعاؤه وتمجيده بها هو الذي يحي النفوس، ويجلب لها الطمأنينة والحياة ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

الرابع: مدلول العبادة واسع، فالعبادة التي أمرنا بأن نفرد الله بها، كلمة تتناول الشعائر التعبدية التي تعرف باسم العبادات، كما تشمل العمل القلبي، والسلوك العملي، فليس المراد بالشريعة التي أمرنا باتباعها الشعائر التعبدية فقط، كما هو المفهوم السائد اليوم.

الخامس: لا يكفي في التوحيد الإقرار لله بالوحدانية، في ربوبيته وألوهيته، بل لابد مع ذلك من الكفر بالطواغيت التي تنصب آلهة تعبد مع الله، قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فلا يكفي أن نعبد الله وحده، ثم نهادن الكفرة والطواغيت، بل من صميم الإيمان الكفر بالباطل ومحاربته والوقوف في وجهه.

السادس: بغض الطواغيت وعبادها، وقد زعم بعض دعاة الإسلام أننا لا نكره الكفرة والفاسقين، ونحب لهم الخير، لأن المسلم ليس

حقودا، وهذا الكلام فيه باطل وحق، أما الباطل فهو زعمهم أن المسلم لا يكره أحداً، وهذا غير صحيح، فإن الله أوجب علينا كره الشيطان، وبغض فرعون وأبي جهل وأضرابهم، فهؤلاء أعداء الله يكرههم ويبغضهم، والله يريد منا أن نبغض أعداءه، وقد جاءت النصوص صريحة في هذا، ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وحذرنا الله من موادتهم ومحبتهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١].

وقد أمرنا الله بالاقتداء في هذا بإبراهيم والذين معه ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وهذه المسألة في غاية الوضوح والبيان في نصوص الكتاب والسنة.

أما الحق الذي في كلام هؤلاء فهو محبة الخير لهؤلاء الظلمة الكفرة وذلك بدعوتهم للايمان، ومحبتنا لإسلامهم.

أيها الأخوة والأخوات: إن معرفة الله بأسمائه وصفاته، والتوجه إليه بالدينونة، توجها كليا شاملا، والأخذ بمنهجه الذي أنزله في محكم كتابه، وبيّنه رسوله ﷺ هو الدواء الشافي لأوجاع البشرية وآلامها، وهو الروح لأرواحنا، والنور لنفوسنا ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

لقد سمّى الله وحيه المنزل روحا ونورا، فهو للأرواح نور يمدها بالحياة الحقة، فالإنسان بغيرهذه الروح يعيش حياة بهيمية، يأكل ويشرب وينكح النساء، وهو في ذلك لا يفارق البهائم والحيوانات.

أما الروح التي تسمو بالإنسان في مدارج الكمال، وتمده بمميزات فريدة فهي تلك الروح التي تسري في كيانه عندما يتصل بالمدد الإلهي الذي أنزله الله من السماء على خاتم رسله وأنبيائه.

والبشر الذين لا يملكون هذه الروح موتى، وإن كانوا في عالم الأحياء، قال تعالى ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاه﴾ [الأنعام: ١٢٢]، كان ميتا عندما كان كافرا ضالا، فأحياه الله بوحيه وكتابه، والذي لم تخلص نفسه لهذا الدين فإن قلبه يكون مريضا ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠] وشفاء أمراض القلوب والأرواح يكون باتباع هذا الدين، ولن تحيا هذه النفوس بما جاء به انجلز أو ماركس أو سارتر أو ميشيل عفلق أو غيرهم من التائهين الحيارى.

وهذا الوحي نور يكشف ظلمات الجهل والكفر التي تحيط بالنفس، كيلا يضل العباد في دروب الحياة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

ولقد ضرب الله مثلا رائعا للنور الذي يتلألأ في قلب العبد المؤمن الذي يستمد هداه من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ في سورة النور حيث يقول: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

فهذا مثل ضربه الله لنوره في قلب عبده المؤمن، فقد شبه الله هذا

النور بالمصباح، وقلب المؤمن في صفاته في نفسه بالقنديل من الزجاج، والشرع الذي يستمد القلب منه نوره بالزيت الصافي الجيد المشرق المعتدل الذي لا كدر فيه ولا انحراف، ولا شك أن هذا النور الذي على هذا النحو نور قوي رائق « نور على نور »، ولكن الذين يهتدون لهذا النور هم الذين اختارهم الله واصطفاهم﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾[النور:٣٥][1].

وكي نحصل على هذا النور القرآني الإيماني علينا أن نتولى ربنا وحده، ونعرض عن المبادئ الضالة والكافرة من شيوعية ورأسمالية وقومية، ونقبل على منهج ربنا ودينه، وإلا فإن أتباع المذاهب الأرضية ينتقلون من ظلمة إلى ظلمة ومن ضلال إلى ضلال ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

أيها الإخوة والأخوات: إنَّ الذين يعيشون في نور الإسلام يُعِزُّ نفوسهم، ويضيء أبصارهم وبصائرهم، فيعرفون الحق والهدى، ويعرفون الضلال والباطل من المبادئ والمذاهب والقيم، هم الذين يمتد نورهم إلى حياتهم البرزخية، وحياتهم الأخروية أما الذين حرموا من هذا النور، وعاشوا في دنياهم في ظلمات العقائد والتصورات والقيم والأفكار التي ابتدعها الفكر الإنساني المنحرف فستكون حياتهم القادمة كئيبة تعسة، وسيندمون حيث لا ينفع الندم.

وتأمل معي هذه الايات التي تحكي حال الفريقين في الدار الأخرة ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ

---

(١) راجع تفسير ابن كثير لهذه الآية الكريمة فمنه استقيناه .

فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ، يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ، فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ، أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ، اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الحديد: ١٢ - ١٧].

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يبارك فيكم، ويسدد خطاكم، وأن يجزل لكم الأجر والثواب، ويجعلكم مفاتيح خير، مغاليق شر، وأن ينفع بكم العباد والبلاد، وأن يجزل الأجر والمثوبة للقائمين على هذا المؤتمر المبارك، ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢]

المحاضرة الثالثة

أثر الإيمان في تحرير الإنسان

بين الحريَّة والعبوديَّة

شوق البشر إلى الحرية:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى من اهتدى بهديه واتبع سنته إلى يوم الدين، وبعد:

فإن لكلمة الحرية عذوبة في الأفواه، ولذة في الأسماع، تهتز لذكرها النفوس الأبية، ويتألم الأحرار لفقدها، الحرية عند بني الإنسان أنشودة لم ينقطعوا عن ترديدها عبر الزمان، تغنى بها الشعراء، ونادى بتحقيقها المصلحون ورجالات الأمم، ووضعت المخططات للحصول عليها والتخلص من أسر العبودية، وبذلت الأمم في سبيل تحصيلها الأموال والأرواح، وجعلت اليوم الذي حصلت فيه عليها عيدا، ومهما قلبت صفحات التاريخ ونظرت في حياة الشعوب فانك لن تجد أمة تستعذب طعم العبودية، وتمقت الحرية.

قد يقع البشر في العبودية وهم ينشدون الحرية:

ولكن دائرة العبودية التي يهرب منها البشر دائرة ضيقة، يظنون أنهم إن تخلصوا منها فقد تحرروا، وواقع الأمر ليس كذلك، فتراهم يرسفون في قيود العبودية المقيتة وهم لا يشعرون، ويحتفلون بأعياد الحرية وهم غرقى في أسر العبودية.

إن العبودية التي يمقتها الناس هي التي تجعل الإنسان مملوكا لغيره بحيث يصبح متاعا يباع ويشترى لا يملك أمر نفسه، ويعد البشر من

العبودية والهوان أن تستذل دولة دولة، وجماعة جماعة، وأمة أمة.

ولم تزل التجمعات البشرية في مختلف العصور يبغى بعضها على بعض، فيستعبد القوي الضعيف، ويقهر الغالب المغلوب، ويسخره في مصالحه، ويأخذ ثمرة تعبه، وخير أرضه، وقد يصل قهر الأقوياء إلى حد ذبح الرجال والأطفال، ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

والعالم المعاصر لم يتخلص من هذه اللعنة، وإن كان يغلفها بغلاف جميل براق، فالأمم القوية في هذا العصر استعبدت الأمم الضعيفة باسم التمدن والتحضر والأخذ بيد هذه الأمم الضعيفة، وقد أصابنا نحن المسلمين هذا البلاء، فقد تجمع علينا أعداؤنا، فحطموا دولة الخلافة العثمانية، وقسموا الديار الإسلامية، وامتصوا خيراتنا، وقتلوا رجالنا، وأذلونا أيما إذلال، ولا يزال الظلم يحيق بنا في كل مكان حللنا فيه، ومآسي المسلمين في فلسطين والأفغان والهند والفلبين والحبشة شاهدة على هذا البلاء.

وهذا النوع من استعلاء البشر يرفضه من أصابهم ويجاهدون في سبيل الخلاص منه، وإن رضيه ضعاف النفوس الذين استمرؤوا الظلم، ورضوا بمعيشة الحيوان.

ولكن هناك ألواناً من العبودية يحرص العباد عليها، ويستمسكون بها، ويبذلون في سبيلها كل مرتخص وغال، لقد كانت العبودية في الماضي عبودية لأوهام وتصورات خاطئة، كان الإنسان الذي لا يعلم حقيقة ما حوله يرهبه الليل إذا أرخى عليه سدوله، ويبزغ القمر فينير ظلمة الليل فيعظم في نفسه، وتشرق الشمس فتمحوا ظلمة الليل، وتذهب ضوء القمر والنجوم فتكبر في نفسه، ويقف بجانب الجبال الشم

الراسيات فيتصاغر في نفسه، ويقف على شاطىء البحر اللجي المحيط، وأمواجه تثور كالجبال فيرهبه منظره.

وقد كانت الرهبة والتعظيم لهذه المخلوقات تملك عليه نفسه، فتذهب به الظنون كل مذهب، فيصور له جهله أنها تستحق التقديس والخضوع، فإذا به يخر لها ساجدا، وينادي باسمها مسبحا، ويتوجه إليها داعيا، وإذا ما رام عاقل أن يبين له الحقيقة أصم أذنيه، وأغلق عينيه، وأصر على باطله إصرارا، وإذا زاد الأمر جرد سيفه، وبذل نفسه وماله مدافعا عن عقيدة زائفة، مَثلها له خيال موهوم، وأكدتها خرافة كاذبة.

أرسل الله رسله لتحرير العباد :

وقد أرسل الله رسله في كل جيل من الأجيال، ليخلصوا العباد من العبودية في شتى صورها وأشكالها، وهذه واحدة من أشكال العبودية التي سيطرت على البشر حينا من الدهر، فاتخذوا بعض مظاهر الطبيعة آلهة تُعبد من دون الله، إن هذه المظاهر في منطق الإسلام آيات باهرة دالة على قدرة الله، وهي مقهورة مربوبة مطيعة لله ربها، لا تعصي له أمرا، فقد خلق الحق الأرض والسماء ثم خاطبها قائلا ﴿ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت : ١١]، وهذه المخلوقات تعبد الله، فتسبح له، وتسجد له، تسبيحا لا نفقهه، وسجودا لا نعرف كيفيته، ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : ٤٤]، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [الحج : ١٨].

ولقد أرسل الله أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام إلى قوم يعبدون الكواكب والقمر والشمس، وحاور قومه فيما يعبدون، وأثبت لهم أن ما يعبدونه ليس أهلا للعبادة، لأنه لا يملك من خصائص الألوهية شيئاً، وليس له من صفات الربوبية نصيب: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ، فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ، فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٥ ـ ٨٠].

لقد شرح كل رسول لقومه شيئا من حقيقة الكون ووظائفه كيلا يقعوا في أسار الوهم والخرافة، وكيلا يضلوا في مسيرة الحياة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ [فصلت: ٣٧].

وقد تردى البشر في هاوية أخرى في مجال الوهم والخرافة عندما عبدوا الأوثان الصم البكم الجامدة، وعبدوا الأموات الذين لا يملكون ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، لقد كانوا يصنعون الأصنام بأيديهم، ثم يَدْعونها ويخضعون لها، ويدسون الميت في التراب بأيديهم، ثم يستغيثون به، ويقصدونه بأعمالهم ونياتهم.

وأرسل الله رسله لتخليص العباد من هذه اللوثة التي عَبَّدتهم للأشجار والأحجار والأموات، وقد بذل الرسل في سبيل تبصير العباد جهودا هائلة، ناظروهم وحاوروهم وجادلوهم، وضربوا لهم الأمثال

وصبروا على أذاهم: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ، أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ، قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٢ - ٧٤]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

فأصر أكثر العباد على هذا الباطل، أصروا على أن يبقوا عبيدا للأصنام والأوثان والأموات، وتعاهدوا على الصبر على هذه الأباطيل ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، [نوح: ٢٣]، ﴿وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦]، وأصموا أسماعهم حتى لا يصل صوت الحق إلى قلوبهم ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧].

واتخذ البشر بشرا مثلهم أربابا من دون الله، فقد أحاطوا بعض البشر بهالة من الأساطير، فجعلوهم من نسل الآلهة، وزعموا أن لهم طبيعة غير طبيعة البشر، وأن الدماء الزرقاء تجري في عروقهم، بعض هؤلاء البشر كانوا ملوكا أرادوا إخضاع العباد لأهوائهم، وبعضهم كانوا صالحين قدَّسهم الناس من حيث لا يريد أولئك الصالحون مثل هذا التقديس، من الفريق الأول فرعون الذي ادعى الألوهية، فصاح فيهم مناديا ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، ومن الفريق الثاني الذين غلوا في عيسى فزعموا أنه الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة، تعالى الله عما يقولونه علوا كبيرا.

وأرسل الله رسله لتخليص البشر من رق العبودية للعباد، فقد أرسل الله موسى وأخاه هارون إلى فرعون وملئه، وقال لهما ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ

إِنَّهُ طَغَىٰ، فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٣ - ٤٤]، وطالبـاه بأن يدع بني اسرائيل وشأنهم ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ [طه: ٤٧]، لقد أرادا من فرعون أن يتخلى عن كبريائه، ويخضع لرب العالمين، وأن يعتق بني إسرائيل من ذل العبودية، ويأذن لهم في الخروج من بلده.

وحدثنا قرآننا عن خبر عيسى، فأكذب ما ادعاه الداعون في أمره، وقرر أنه عبد الله ورسوله، وكلمته أوحاها إلى مريم وروح منه، مثله في ذلك مثل آدم عليه السلام، خلقه من تراب ثم قال له كن، فكان كما شاء الله أن يكون.

وتاهت البشرية في عبودية من نوع آخر، وهي عبودية المناهج والأفكار، فالبشر في كل عصر وجيل تتفتق أذهان أذكيائهم وفلاسفتهم عن مبادىء ومناهج وقوانين ونظريات، يحكمونها في رقاب العباد، وهي مناهج وقوانين تحاد شرع الله وحكمه، وقد شاء الله أن يكون الحكم بين العباد بيده دون سواه، ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [يوسف: ٤٠]، ولم يرض الحق أن يتخذ معه شريكا في حكمه ﴿ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٦].

وقد ذم الله اليهود والنصارى الذين أطاعوا أحبارهم ورهبانهم عندما خالفوا الشرع الذي بأيديهم، فأحلوا وحرموا بآرائهم، وقال فيهم: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة: ٣١]، ولكن الأمر العجيب أن أكثر الناس في كل العصور يرفضون منهج الله تعالى وحكمه، ويرتضون قوانين البشر وأحكامهم التي تعبدهم للعباد، وقوانين البشر ومبادؤهم مختلفة متضاربة، وكل فريق يزعم أنه على الحق والهدى، وأن منهجه هو الذي يحرر الإنسان، ويجلب له الخير

والهناء، ويقوم الصراع بين أتباع المناهج، وينتهي في أغلب الأحيان بحروب تحرق الأخضر واليابس ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ١١٣].

لقد أنزل الله الكتاب في كل العصور ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، فيحق الحق ويبطل الباطل ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقد دعا القرآن أهل الكتاب إلى عبادة الله الواحد الأحد، وترك ما يعبدونه من دونه من أنداد، وبذلك يجتمع الناس على كلمة سواء ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

إن الإسلام جاء ليحرر العباد من عبودية العباد إلى عبادة الله وحده، وقد أعلن الدعاة الأوائل هذه الحقيقة حينما كانوا يغدون إلى مقابلة عظماء الفرس والروم، فقد كانوا يسألونهم عن هدفهم الذي خرجوا من أجله من ديارهم، فيقولون: « الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الاديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ».

الإسلام يحرر القلوب :

وأهم ما يحرص عليه الإسلام تحرير قلب العبد من تلك العبودية، فالقلب هوالركن الأصيل الذي يقود الجسد كله ويسيره ويوجهه، وبصلاح القلب يصلح الإنسان، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب ».

والقلب محل الاعتقاد، وموضع الهم والإرادة والنية، وبصلاح الاعتقاد والقصد يصلح القلب، وبصلاحه يصلح الإنسان.

وصلاح الاعتقاد يكون بتعريف العبد بربه وصفاته وأسمائه وأفعاله، وبتعريفه بملائكة الرحمن، والتعرف إلى اليوم الآخر وما أعد الله فيه لمن أطاعه وعصاه.

وصلاح القصد بأن يتوجه المرء نحو خالقه بأعماله كلها، فلا يقصد بعمله مَلكاً ولا مَلِكاً، ولا شجرا ولا حجرا ولا بشرا، وهذا هو الإخلاص في العبادة الذي لا يقبل الله من أحد دينا سواه ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]، ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[غافر: ٦٥] ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، والإخلاص هو معنى لا إله إلا الله، وبتحقيقه يحقق العبد العبودية لله ربه ومولاه.

والإسلام يقصد أيضا إلى تحرر القلب من الخوف من الآلهة المزيفة والطواغيت والظلمة، فالخوف يشل حركة الإنسان وفكره وإرادته، ويعبده لغير الله، الله يقول له: أنا العظيم الكبير مالك الملك القهار الجبار، لي جنود السموات والأرض فلا تخشى غيري، ولا ترهب سواي، والطواغيت والظلمة يحاولون في كل عصر أن يغرسوا في قلوب العباد الرهبة من أوليائهم وأندادهم، هذا إبراهيم يحاجه قومه

ويخوفونه بما ستفعله آلهتهم به، فيعتصم بالله مولاه ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ، وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ، وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٠ ـ ٨٣].

وعندما اشتد هود عليه السلام في مواجهة قومه قالوا له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ، مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ، إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦].

كيف كان يستطيع مواجهة قومه لو صدّق الفرية التي يزعمون من أنهم يضرون وينفعون، وأنهم يصيبون أعداءهم بالمصائب والعاهات، لقد خلا قلبه عليه السلام من العبودية لهذه الآلهة الباطلة المدعاة، فاستطاع أن يواجه قومه هذه المواجهة العنيفة التي يتحداهم فيها معتمدا على الله ربه ومولاه، العليم بكل شيء، الآخذ بنواصي العباد، وفي مواجهة الطغاة يوجه رب العباد عباده إلى التوكل عليه والاعتماد عليه، فموسى عليه السلام وهارون قالا لربهما عندما أمرهما بالتوجه إلى فرعون: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥]. فقال لهما ﴿لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، والشيطان يخوف عباد الله المخلصين أولياءه الضالين، فأرشدنا الحق إلى عدم الخوف منهم، والخوف منه وحده ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

إن تعلق القلب برب العباد والتوكل عليه والاعتماد عليه هو الركن الركين الذي كان الصالحون ولا يزالون يعتمدون عليه في مواجهة الفساد والطغيان ومصائب الحياة، يرمى إبراهيم في النار فيقول: حسبنا الله ونعم الوكيل، يرمى ذو النون في البحر فيلتقمه الحوت فينادي ﴿أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨]، ويشتد على نوح أذى قومه، وقد طال به المقام فيهم فينادي الحق فيستجيب، ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ، وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٦، ٧٧].

وتنظر العصبة المؤمنة القليلة العدد إلى الجيش الكبير الذي يقف مع جالوت فيلجأون إلى المعين والنصير فيعينهم وينصرهم ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ، وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ، فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٤٩ - ٢٥١].

ووقفت العصبة المؤمنة مع الرسول ﷺ في بدر في مواجهة الكافرين وقد كانوا خرجوا لملاقاة العير ولم يكونوا يظنون انهم يلاقون حربا، ولم يُعِدّوا للحرب عدتها، وفوجئوا بجيش تعداده ثلاثة أضعاف عددهم، فالتجأوا إلى ربهم ومولاهم يستنصرونه، ويستغيثون به، فنصرهم وأغاثهم وأنزل ملائكته تحارب معهم ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ، وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ

قُلوبُكُمْ وَمَا النَّصرُ إِلاَّ مِنْ عند اللَّه إِنَّ اللَّه عَزِيزٌ حَكِيم ، إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ ، إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٩ ـ ١٣].

وبعد ما أصاب المسلمين في معركة أحد ما أصابهم أمر الرسول ﷺ أصحابه المجاهدين على ما بهم من قرح أن يتبعوا المشركين فاستجابوا، ومرَّ عليهم ركب كان قد مر بقريش وهي تتفاوض في العودة للمسلمين لاستئصالهم، فلما أخبروا المسلمين لم يفت هذا في عضدهم وقالوا مقالة الأبرار: حسبنا الله ونعم الوكيل، ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ، الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٧٢ ـ ١٧٤].

وأحاط المشركون بالمدينة في معركة الخندق، ونقض اليهود عهودهم مع المسلمين، وأرجف المنافقون بالمدينة، وزلزل المسلمون زلزالا شديدا، ولكن قلب الرسول ﷺ وقلوب الذين كان لهم به أسوة حسنة بقيت موصولة بالله، وكان الرسول ﷺ يرى النصر من خلال حشود الكفار، لا في تلك المعركة فحسب، بل على الدول الكبرى: فارس والروم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ، إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ

منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا، هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً، وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً، وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً ﴾ [الأحزاب: ٩ - ١٣].

في هذا الموقف الصعب ثبت الرسول ﷺ وصحبه الكرام فقد كانوا مطمئنين إلى نصر الله وموعوده ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً، ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾ [الأحزاب: ٢١، ٢٢].

وقد أثنى الحق على هؤلاء الأخيار الأبرار﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وقد عاد المؤمنون الواثقون بنصر الله بالأجر العظيم، وآب المنافقون بالخزي وسواد الوجه، وفرَّ الكفار وقلوبهم مملوءة غيظا وألما ﴿ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيماً، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً﴾ [الأحزاب: ٢٤، ٢٥].

أمَّا الذين ظاهروهم من اليهود فقد مكَّن الله المسلمين من أرضهم وديارهم وأموالهم وطردوهم شر طردة ﴿وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها وكان الله على كل شيء

قَدِيراً﴾ [الأحزاب: ٢٦، ٢٧].

وقد وعى المؤمنون عبر تاريخهم من بعد الرسول ﷺ هذه الدروس.

فكان الحكام الصالحون والقادة العسكريون من المسلمين يعنون بتربية الجنود على المفاهيم الإسلامية الحقة، وتوثيق صلتهم بالله - تبارك وتعالى -، كي يكون خوفهم من الله ورهبتهم من الله عزوجل، ورهبتهم إليه سبحانه وتعالى، وبذلك يملكون أسباب النصر ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، لقد كان صلاح الدين في كثير من المعارك يسأل عن الرجل الصالح القاضي الفاضل، وكم كان يطمئن قلبه ويهدأ روعه عندما يراه واقفا في جانب من جنبات الجيش يسأل الله ويستنصره، وعندما صرخ أحد جنود المسلمين قبيل معركة اليرموك، ما أكثر الروم وأقل المسلمين، صاح فيه خالد بن الوليد، بل قل: « ما أقل الروم وأكثر المسلمين »، وذكَّره بقول الحق جل وعلا ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وعندما تهدد قائد الفرس قائد المسلمين بكثرة عدد الفرس قال له القائد المسلم: « جئناكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة ».

السبب في هزيمة الأمة الإسلامية:

وعندما ضعفت صلة المسلمين بالله عز وجل، وتقطعت حبالهم بالله، ووجهوا وجوههم إلى غير الله في هذا العصر، فمرّة إلى روسيا ومرّة، أمريكا، ومرّة إلى هيئة الأمم، ومرّة مجلس الأمن، ومرة مجموعة السوق الأوروبية... توالت عليهم الهزائم، ونال أعداؤهم منهم مرادهم، وهزموهم وأذلوهم.

وما هذه المصائب إلا دلائل على أمراض خطرة يعاني منها جسم الأمة الإسلامية، مثلها مثل الأمراض التي تصيب الأجساد الضعيفة، ومثلها مثل البيوت المتهاوية لا تتماسك أمام العواصف الهوج، وقد أخبرنا الحق أنه يأخذ عباده المعرضين عن هديه الشاردين عن وحيه بالمصائب والكوارث لعلهم يؤوبون إلى ربهم ويرجعون إليه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢].

ومن جملة البلاء الذي يصيب الأمة التي إئتمنها على دينه ووحيه إن هي أعرضت سيوف أعدائه المجرمين، فينتقم الله بهم من المسلمين الذين ضلوا، ثم ينتقم الله من أعدائه الكافرين.

واعتبر في هذا بما جرى لأمة اليهود حيث سلط الله عليهم أعداءهم، وفيهم الصالحون والأنبياء بسبب ظلمهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦]، لقد أغار المجوس بقيادة نبوخذ نصر على اليهود فاحتل ديارهم، وأحرق مدنهم وقتل من قتل، وسبى من سبى وبقوا في الأسر سبعين عاما.

فإذا عاد المسلمون إلى التضرع إلى الله، والرغبة إليه، والرهبة منه، وقصدوه وحده، وأنابوا إليه، وتوكلوا عليه، واستنصروه، فإنه ينزل بهم نصره، ويحل عليهم رضوانه، ويرفع مقته وغضبه عنهم.

واعتبروا في هذا بما يجري على أرض الأفغان، حيث قام المسلمون هناك في وجه الكفر والطغيان، يحاربون أهل الباطل من الكفرة الملحدين الذين يريدون إزالة الوجود الإسلامي، حاربوا وليس عندهم إلا القليل من المال، والقليل من العتاد، وواجهتهم دولة كبرى هي روسيا

الكافرة فأعانهم الله وأيدهم، فحاربوا أعداءهم أربع سنوات ولا تزال الحرب قائمة، وغنموا أسلحتهم من أيدي أعدائهم، وانضم إليهم الجنود والضباط المدربون من أهل بلدهم، وأسقطوا مئات الطائرات، ونسفوا ألوف الدبابات وقتلوا عشرات الألوف من أعداء الله.

وقد حَدَّث المجاهدون الثقات هناك عن آيات باهرات، أيد الله بها جنده، وأذل الكفرة والملحدين، لقد كان العدد القليل من المجاهدين يغلب الجيوش الجرارة، والسلاح الخفيف يحطم الأسلحة المتطورة، وليس ذلك إلا من التأييد الذي أمد الله به جند الإسلام.

إن جهاد الافغان آية للمسلمين المتقاعسين في هذا العصر، تقول لهم: إن هناك قوة أخرى غير قوة الدول العظمى يمكنها أن تغير مسار المعارك والحروب، ولكنها تحتاج إلى العصبة المؤمنة التي تضحي في سبيل الله، وتتولى الله ـ تبارك وتعالى ـ، ولن يكون ذلك إلا بإيمان مبصر يغرس في القلوب، يحرِّرها من العبودية للطواغيت والأصنام حجراً كانت أم بشراً[1].

مفهوم الحرية في الإسلام:

إن الحرية في الإسلام أيها الاخوان تقرر في صورة العبودية، إن الحرية تعني أن تعبد نفسك لله وحده، في توجهات قلبك وعقائده، وفي مسار فكرك ونوازعه، وفي أقوالك وأفعالك، وفي القوانين التي تهيمن على المجتمع وتسيره وكثير من الحريات التي يتشدق بها العباد في هذا العصر، إنما هي العبودية في نظر الإسلام.

واعتبروا بهذا بما يسمى بالديمقراطية اليوم، فالبشر يرون أن تحقيق

(١) لقد انتصر المجاهدون الأفغان على أعدائهم من الروس، وأخرجوهم من ديارهم، ولكن مجاهدي الأمس تحولوا إلى خصوم يتقاتلون ويتصارعون على حطام الدنيا، وبذلك شوهوا وجه الجهاد الجميل، وصورته المشرقة.

الديموقراطية هي قمة الحرية التي يمكن أن يحصلها العباد اليوم، وتسعى الشعوب إلى انتخاب رئيس الدولة، كما ينتخبون ممثلين عنهم يشرعون للأمة ما يشاؤون، ويراقبون الجهاز التنفيذي في ديارهم، وهذا في تصور الإسلام عبودية البشر البشر، وتأليه البشر للبشر، فليس من حق العباد أن يشرعوا فينا ما لم يأذن به الله[1]، وليس من حقهم أن يقودوا الحياة بمجرد فكرهم، فإن فعلوا فهم أرباب من دون الله .

وقد ذم الله اليهود والنصارى لكونهم اتخذوا علماءهم ورهبانهم أربابا من دون الله، وعلمنا من تفسير الرسول ﷺ أن المراد بجعلهم أربابا من دون الله هو متابعة اليهود والنصارى علماءهم ورهبانهم في تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله، مع كونهم ملتزمين بشريعتهم بصورة من الصور، فكيف بالأمم المعاصرة عندما تعطي لممثلي الشعب الحرية المطلقة في تشريع ما يشاء، لقد أباحوا الربا والزنا واللواط والإجهاض والخمور، وكل شي في مفهوم الدول الديموقراطية قابل للنظر والتغيير.

إن هذا في مفهوم الإسلام عبودية وأي عبودية، يعبد البشر فيها البشر، والعجيب أن أكثر الأمم يرونها قمة الحرية، إن التحرر الحقيقي يعني الخضوع لله وحده، وأخذ منهجه دون سواه، والتحاكم إلى شرعه دون بقية الشرائع والقوانين، فإن رفض البشر هذه العبودية لله الواحد الأحد فإنهم سيعبدون أنفسهم لا محالة إلى مخلوقات مساوية لهم وهم البشر، أو لمخلوقات أقل منهم شأنا، وقبيح بالإنسان أن يعبد نفسه لمخلوق مثله لا يضر ولا ينفع، بل قد لا يبصر ولا يسمع.

إن الذي يستحق العبادة هو من اتصف بصفات الألوهية الحقة: ﴿قُلِ

(١) الأمر المستنكر في الديموقراطية هو إعطاء ممثلي الأمة حق التشريع من دون الله، أما ما في الديموقراطية من شورى في اختيار نواب الأمة، ومن مراقبة للجهاز التنفيذي ، ومن سن قوانين في إطار الكتاب والسنة، فهو أمر حسن مقبول.

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ، أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنـزَلَ لَكُم مِّنَ الـسَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ الـلَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ، أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ الـلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ، أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيـلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ، أَمَّن يَهْدِيـكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الـرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ، أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيـدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٥٩ ـ ٦٤].

والحمد لله رب العالمين

المحاضرة الرابعة

التاريخ الإسلامي بين الحقيقة والتزييف

تقديم

الداعي لهذه المحاضرة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وبعد:

فعندما دعتني إحدى الجمعيات العلمية في جامعة الكويت إلى المحاضرة في هذا الموضوع « التاريخ الإسلامي بين الحقيقة والتزييف »، ترددت في أول الأمر، لأن هذا الموضوع له رجاله المتخصصون فيه، ويحتاج إلى بحث ودراسة، إلا أن هذا الموضوع كان يعرض لي في مباحثي ودراساتي، وكنت آلم كثيرا لما أصاب تراثنا في الماضي وفي الحاضر، على يد رجال منا ومن أعدائنا، فوجدتها فرصة سانحة لأتبين شيئا من الحقيقة في هذا المجال، وأسهم في هذا الأمر الخطير بكلمة متواضعة، لعلها تنفع الذين ينشدون الحق، ويطلبون الحقيقة، ولعلها تبصر الذين انخدعوا بباطل دعاة الضلال، فإن للحق ومضات في النفوس، تنير الطريق، وتهدي للتي هي أقوم، والله هو الهادي إلى سواء السبيل.

مرادنا بالتاريخ الإسلامي:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد:

فإن التاريخ الإسلامي سجل حافل بالأحداث التي توالت منذ أن بزغ فجر الإسلام إلى عصرنا هذا، والتاريخ الإسلامي تاريخ الشريعة الإسلامية التطبيقي الواقعي، فدراسة هذا التاريخ هي دراسة للإسلام من الناحية التطبيقية، وهي دراسة للذين أخلصوا للإسلام والذين أساؤوا إليه أو باسمه من داخله أو من خارجه وكشف لوسائلهم، ولا نعني بالتاريخ الإسلامي الجانب السياسي منه فقط، ولكن كل ما أنتجه الإسلام ووجه إليه المجتمع من وجوه الوظائف الحيوية والفكرية والعملية في داخل المجتمع أو مع غيره من المجتمعات في حالات السلم والحرب[1].

يقول ابن خلدون في مقدمته: « اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياساتهم حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه[2] في أحوال الدين والدنيا »[3].

في تاريخنا صفحات مشرقة وأخرى قاتمة:

وفي تاريخنا صفحات ناصعة مشرقة، فهو يحكي لنا سيرة الرسول ﷺ الطيبة العطرة، وسيرة صحابته الكرام، ويحدثنا عن الدعوة في المرحلة المكية، ثم يحدثنا عن ميلاد الأمة الإسلامية، ويعطينا صورة رائعة عن حياة المسلمين في ذلك العهد... في إيمانهم وورعهم وتقواهم وعلمهم وبذلهم وجهادهم، ويعطينا صورة لفتوح الإسلام في الشرق والغرب حيث انطلقت جيوش الإسلام تحمل شمس الهداية،

(١) نظرات في دراسة التاريخ لعبد الرحمن الحجي ص٢٠ نشر دار القلم ـ دمشق .

(٢) اي يطلبه .

(٣) مقدمة ابن خلدون (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٧) ، ص ٢١ .

وتضيء دروب الحيارى التائهين، وتظهر لنا كيف تحولت الديار التي فتحها المسلمون إلى ديار إسلام بالتعاليم الإلهية التي سرت إلى القلوب والنفوس، فنفضت عنها غبار القرون، ونبذت الأساطير والأباطيل والمبادئ الضالة، ويعطينا هذا التاريخ صورة للمسلمين في مجتمعاتهم ولحكامهم في دولهم، وما جرى من أحداث عبر هذا التاريخ المجيد.

نحن لا ننكر أن في تاريخنا صفحات قاتمة فيها الفرقة والانقسام، وفيها الهزائم والظلم، وفيها الانحراف والضياع، لا ننكر هذا، ولا يجوز أن نطمس معالم هذا الجزء من التاريخ ونزيل آثاره، فالتاريخ يجب أن يكون سجلا صادقا، وقد علمنا القرآن أن نسلط الضوء على الحقائق حتى تتكشف وتظهر بما فيها من كمال ونقص.

وقد ذكر القرآن سير الرسل العظام، فبين قوة إيمانهم وصبرهم وجهادهم، ولكنه كشف لنا عن الخطأ متى وجد، وحدثنا القرآن عن ضعف آدم وإغواء ابليس له، وعصيانه لربه بأكله من الشجرة، وحدثنا عن سؤال نوح ربه في ابنه الهالك، وما كان ينبغي أن يسأله في ذلك، وحدثنا عن ذي النون الذي غاضب قومه، فخرج من قريته من غير أن يأذن له ربه.

كيف ندرس التاريخ ونستفيد منه في ضوء المنهج القرآني؟

إن الإسلام يريدنا أن نفتح أبصارنا على الأحداث والوقائع ثم نستلهم منها الموعظة والعبرة ونفقهها وفق السنن الإلهية الربانية، فالأمم الضالة والحضارات التي قامت في الأرض على أسس فاسدة كانت سنة الله فيها أن تدمر وتبيد قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ، فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ، لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ، قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ، فَمَا

زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ١١ - ١٥]، وقال تعالى: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ، أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٥، ٤٦].

لقد دمرت أمم وزالت حضارات، لأنها كانت تحمل في وجودها سبب زوالها، وتلك سنة الله عز وجل في خلقه، فالباطل لا يدوم، ذلك أن الله خلق السموات والأرض بالحق ومتى زاغ الناس عن الحق فليتوقعوا هلاكا ودمارا.

والذي يتأمل في القرآن يجد أنه يعرض تاريخ الإنسانية المديد عرضا فريدا، فهو يجعل الإنسانية وحدة واحدة يتمثل تاريخها في انطلاقها إلى الحياة والعمل والبناء والإعمار والحرب والقتال من منطلق العبودية لله والخضوع له أو من منطلق الهوى الذي يتمرد على شريعة الله ومنهج الله الذي يرسل به رسله وينزل به كتبه، فالله خلق الخلق لعبادته، وطالبهم بهذه العبودية على ألسنة الرسل، وأنزل لهم التعاليم والكتب..، فريق استجاب، وأقام الحياة وفق هذا المنهج، وآخرون يعرضون، ويصدون الصالحين، وتكون دعوة، ويكون صراع، ويسقط كثير من الطرفين في الميدان، ثم تكون العاقبة للمتقين.

هذا هو تاريخ البشرية:

أحيانا تستقيم البشرية على الدرب، وأحيانا تلتوي وتنحرف، وتضل وتضيع، ونحن ندرس الصفحات المشرقة من تاريخها عندما تستقيم، فتكون فترات الهداية منارة تهدي السالكين، وأنموذجا ينسج على منواله الذين يسيرون على دربهم.

وأحيانا تضل البشرية، فتصنع فكرا، وتقيم حضارة، وتبني مجدا، وتعلو في الأرض، فيحل بها الدمار، وأحيانا يأتي الانحراف بعد الهداية، ونحن ندرس ذاك كله كما هو كي نأخذ منه العبرة، قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

وكذلك تاريخ أمتنا الإسلامي نريده كما هو، نريد أن ننظر إلى الفترات التي استقامت فيها هذه الأمة على الإسلام، كي تكون منارة تهدينا في دنيانا وأخرانا، ولنسير في حياتنا على ذلك النهج كما هو الحال في عهد المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، وعهد الخلفاء الراشدين وغيرهم من الحكام المسلمين الذين استقاموا وحكموا بالإسلام، ونريد أن ندرس فترات الضعف والوهن والبعد عن الإسلام، وكيف جرت سنة الله في هذه الأمة حيث طمع فيها أعداؤها، فدمرت الحضارة الإسلامية على يد التتار، ثم كانت هجمات الصليبيين، ثم ضياع الاندلس، ثم زوال الخلافة الإسلامية، واحتلال الكفرة ديار الإسلام، وتقسيم دوله الإسلام وتجزئتها، ثم احتلال الأرض المباركة فلسطين من قبل أعداء الله اليهود.

إن هذه الأحداث لها مسبباتها، فلم تكن هكذا بدون سبب، والفكر الثاقب هو الذي يغوص في باطن الأحداث، ويتعرف على عللها وأسبابها، يقول ابن خلدون في مقدمته: « التاريخ في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول، تنمو فيه الأقوال، وتضرب فيه الأمثال، وتطرف فيه الأندية إذا غصها الاحتفال، وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل الكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق»[1].

---

(١) المقدمة، ص٢ .

نحن ننشد الحقائق ولا نُزْوَرُ بها:

إننا نريد تاريخنا على حقيقته بما فيه من صفحات ناصعة مشرقة، وما فيه من صفحات قاتمة، ونحن نستفيد من هذا وذاك، ولا نحاول أن نزيف شيئا منه، والذين يزورون بالحقائق التاريخية هم أصحاب المبادىء الضالة، ذلك أن حقائق التاريخ تكشف الباطل الذي أقاموا عليه مبادئهم.

فالنصارى الذين أقاموا دينهم على مبادىء فاسدة تؤلمهم الحقائق عندما تتبدى وتظهر، لقد شرق علماء النصارى بالإسلام عندما بَيَّن القرآن حقيقة عيسى، فالحق أن عيسى عبد رسول، وليس هو الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة كما يزعمون، وقد كان اطلاع الشباب النصراني على الكتب الإسلامية يعتبر جريمة ما بعدها جريمة، ومن الكتب التي كانت تمنع من التداول في القرون الوسطى كتب العلامة ابن حزم الاندلسي، لأنه عرض عقيدة النصارى وبين باطلهم.

وشرق اليهود بالإسلام الذي بين لهم كثيرا مما كانوا يخفونه من حقائق، وبين كذبهم في دعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم أهل الحق.

والشيوعيون اليوم يشرقون بالحقائق التاريخية عندما تظهر للعيان، لأنها تكذب مذهبهم المادي، وتناقض الأوهام التي أقاموا عليها منهجهم، وعندما فتح الغرب عينيه على الحقائق العلمية التي تخالف ما تبنته الكنيسة وجعلته دينا قامت حرب بين الكنيسة والعلماء، وذلك أن الحقائق تصادم دين الكنيسة .

ولذلك فإن أصحاب المذاهب الضالة يزيفون الحقائق ويزورونها، وقد تعرض تاريخنا الإسلامي لهذا التزوير، وقد جاء ذلك من تقادم الزمان وطول العهد ووقوع الناس في الخطأ، فإن الإنسان قد ينسى، والعقل قد يحار، وقد تنبه علماؤنا إلى هذا، فاشترطوا فيمن يأخذون

عنه الدين أن يكون معروفا بالحفظ، فإذا كان سيء الحفظ لم يأخذوا منه، ولم يرووا عنه.

اعداؤنا يشوهون تاريخنا وتعاليمنا:

وبعض هذا التزوير جاء على يد أعداء الإسلام الذين شوهوا تعاليمه وتاريخه، فقد دفع أعداء الإسلام بعض شياطينهم لغرس الفرقة في صفوف المسلمين، وقد نجح المجوس في اغماد خنجرهم في صدر الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ونجح اليهود في إثارة الأمة الإسلامية وتمزيقها على يد عبد الله بن سبأ اليهودي الذي أثار فتنة كبرى أودت بحياة الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، ثم نجح تلامذة ابن سبأ في استثمار مخططهم، وذلك بإثارة الفرقة التي أدت إلى الحرب والانقسام، وما زالت الجمعيات السرية التي تدخل في الإسلام وتلبس لباسه تعمل لهدمه من داخله إلى اليوم.

ولم يكتفوا بإثارة الفتنة في صفوف المسلمين وتحريض بعضهم على بعض، بل دفعوا ببعض الذين درسوا الإسلام كي ينصبوا أنفسهم علماء، ثم يعملوا على طمس تعاليم الإسلام وتحريف نصوصه، وتصوير الفتن التي أقامها شياطين الكفر في الخفاء تصويراً يخالف حقيقتها.

أما القرآن فقد حفظه الله فلم يستطيعوا فيه تغييرا ولا تبديلا، وأما الحديث فقد كذبوا فيه كثيرا، ولكن الله هيأ لسنة رسوله ﷺ الجهابذة من العلماء، فدونوها، ودونوا تاريخ الرجال الذين حملوها، ثم قاموا بتمحيص الصحيح من الضعيف، وصنفت دواوين السنة، وان كنا لا نزال نعاني إلى اليوم من الأحاديث الضعيفة والموضوعة التي انتشرت بين الناس، كما لا زلنا نعاني إلى اليوم من الإسرائيليات التي انتشرت في

كتب التفسير والتاريخ، وحاول بعض الذين انحرفت بهم السبل أن يغيروا حقائق الإسلام، فكانت فتنة القول بخلق القرآن، ومضت الفتنة وأبقت ما أبقت من كتب وأفكار، ولكن بقي الحق محفوظا.

وحاول أعداء الإسلام تشويه تاريخ الإسلام، وحملوا تاريخنا مفتريات كثيرة دسها متطفلون ومفترون، وتناقلها من بعدهم رجال لم ينتبهوا إلى جريمة هؤلاء، يقول ابن خلدون في مقدمته: « إن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها »، ثم يستطرد ابن خلدون قائلا: «وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها وابتدعوها، وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها، واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها، وأدوها إلينا كما سمعوها »[1]، ولقد وصلت إلينا تلك الأخبار بغثها وسمينها.

لقد استثمر المؤرخون المندسون في صفوفنا الفتن التي بثها إخوانهم، ففرقوا بها الأمة الإسلامية، وجعلوها هي الحقيقة التي تدرس وتعلم، وشوهوا وجه الإسلام الجميل بمفترياتهم وأكاذيبهم، وعظموا الأخطاء، وهونوا من محاسن الإسلام، وقد وقف بعض المؤرخين وقفات رائعة يظهرون الزيف، ويكشفون الباطل، ويبينون الحق، ومن أروع ما خطته أيدي المؤرخين كتاب« العواصم من القواصم »، لابن العربي الأندلسي المالكي، وكتاب« الفتنة ووقعة الجمل »، لسيف بن عمر الضبي، فقد كان هذان المؤلفان ثاقبي النظر عميقي الفهم، واستطاعا أن يكشفا شيئا من المؤامرة التي حيكت في الظلام وأن يظهرا الحقيقة.

ولا يزال التاريخ الإسلامي بحاجة إلى تصفية، والأمر يحتاج إلى جهد طويل، وهمم عالية، ولكنه ليس مستحيلا، فدواوين الإسلام

---

(١) المقدمة، ص ٣ .

التي عنيت بالإسلام وتاريخه محفوظة مدونة، وإظهار الزيف والباطل المدسوس ممكن بالطرق التي اتبعها علماء الإسلام في توثيق الروايات.

هجوم على معاقل الإسلام:

هذا عن تاريخنا في الماضي فماذا عن الحاضر ؟ لقد تعرض إسلامنا وتراثنا وتاريخنا في العصر الأخير لهجمة شرسة من قبل أعدائنا، لقد حاول الصليبيون اجتياح العالم الإسلامي والقضاء على دولة الإسلام، ونجحوا في البداية في إقامة إمارات لهم في فلسطين، وبعض هذه الامارات وصل إلى حدود العراق، وكان ذلك بسبب تفرق المسلمين وضعفهم، ولكن رب ضارة نافعة، فقد تنبه المسلمون إلى حالهم وضعفهم فأخذوا في بناء القوة الإسلامية، وكان فتح باب الجهاد سبيلا لنفي الخبث والفساد الذي علق بالنفوس وألمَّ بالمجتمع الإسلامي.

وعاد الصليبيون بعد قرنين من الزمن يجرون ذيول الخيبة والهزيمة، وعادت الديار التي دنسها الصليبيون إلى حظيرة الإسلام، ولكن الصليبيين لم يتوقفوا عن الغارة التي شنوها على الإسلام وأمة الإسلام فأخذ علماؤهم يدرسون ويبحثون، درسوا الإسلام وكتاب الإسلام كما درسوا المسلمين: أخلاقهم وصفاتهم وتعرفوا على مكامن القوة والضعف فيهم، وعقدوا المؤتمرات، ودبروا المؤامرات وتمخض كل هذا عن مخطط وضعته الأيدي الصليبية الحاقدة، وقد استهدف هذا المخطط المسلمين وديارهم وإسلامهم وتاريخهم، وشكلوا ثالوثا يمد أذرعه للقضاء على الإسلام والمسلمين.

تحطيم القوة السياسية الإسلامية:

الذراع الأول يتمثل في الاستعمار الذي قاد الجيوش لتدمير الدولة الإسلامية، ثم تجزئتها وامتصاص خيراتها والسيطرة على ثرواتها، وقد احتلوا ديار الإسلام بقوة السلاح، وعاثوا فيها فسادا، لقد كانت تلك الحروب امتدادا للحرب الصليبية، وكان النشيد الذي يردده جنود الصليب وهم يقتحمون معاقل الإسلام في ليبيا يقول[1]:

أماه... أتمي صلاتك ولا تبكي بل اضحكي وتأملي .

أنا ذاهب إلى طرابلس فرحا مسرورا...

سأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة.

سأحارب الديانة الإسلامية...

سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن... !!! .

وعندما احتل اللنبي الانجليزي مدينة القدس وقف خطيبا، وقال: «الآن انتهت الحروب الصليبية »، ونشرت الصحف البريطانية صورة اللنبي في ذلك الوقت ووضعت تحتها هذه العبارة التي نطق بها، ونشرت كذلك تهنئة لويد جورج وزير خارجية بريطانيا للنبي في البرلمان البريطاني لاحرازه النصر في آخر حملة من الحروب الصليبية التي سماها لويد جورج « الحرب الصليبية الثامنة»[2].

وعندما احتل الجنرال غورو الفرنسي دمشق توجه فورا إلى قبر صلاح الدين وركله بقدمه قائلا: « ها قد عدنا يا صلاح الدين »[3]!

---

(١) القومية والغزو الفكري ص٢٨٠ .

(٢) قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله ص٢٦

(٣) القومية والغزو الفكري ص٨٤ .

يقول أودين رستو رئيس قسم التخطيط في وزارة الخارجية الأميركية ومساعد وزير الخارجة الأميركية ومستشار الرئيس جونسن لشؤون الشرق الأوسط حتى عام ١٩٦٧ مبينا طبيعة الصراع بين الغرب والأمة الإسلامية« يجب أن ندرك أن الخلافات القائمة بيننا وبين الشعوب العربية والإسلامية ليست خلافات بين دول أو شعوب، بل هي خلافات بين الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية، لقد كان الصراع محتدما بين هاتين الحضارتين منذ القرون الوسطى، وهو مستمر حتى هذه اللحظة بصورة مختلفة، ومنذ قرن ونصف خضع الإسلام لسيطرة الغرب، وخضع التراث الإسلامي للتراث المسيحي ».

ثم أخذ رستويين موقع أمريكا من هذا الصراع فقال: « إن الظروف التاريخية تؤكد أن أمريكا إنما هي جزء مكمل للعالم الغربي: فلسفته، وعقيدته ونظامه، وذلك ما يجعلها تقف معادية للعالم الشرقي الإسلامي بفلسفته وعقيدته المتمثلة بالدين الإسلامي »، واستطرد رستو في بيان العداء الأميركي للإسلام والمسلمين فقال: « ولا تستطيع أمريكا إلا أن تقف هذا الموقف في الصف المعادي للإسلام وإلى جانب العالم الغربي والدولة الصهيونية، لأنها إن فعلت عكس ذلك فإنها تتنكر للغتها وفلسفتها وثقافتها »[1].

هذه هي طبيعة المعركة التي قادها الاستعمار، وهذا هو رأي زعماء العالم الغربي فيها، ومع أن جيوش الاستعمار رحلت عن ديار الإسلام إلا أن حكوماتهم لا تزال تؤثر تأثيرا كبيرا في عالمنا الإسلامي، في سياسته الداخلية والخارجية، وهذا واضح للعيان لمن تأمل أدنى تأمل في حاضرنا.

---

(١) معركة المصير ص٨٧-٩٤ . وانظر كتاب قادة العالم يقولون ص٢٥.

جيوش المبشرين تجوس خلال ديار المسلمين:

أما الذراع الثاني الذي أقامه التخطيط الصليبي فهو التبشير بالنصرانية في صفوف المسلمين، وقد دخلت جيوش المبشرين ديارنا، ووصلت إلى شبابنا وفتياتنا وفقرائنا ومستشفياتنا باسم الرحمة الإنسانية لمداواة المرضى ورعاية الأيتام وإطعام الفقير، ولكنها تهدف من وراء ذلك إلى تنصير المسلمين وهدم الإسلام في نفوس أبناء المسلمين، ومن يقرأ ما كتب عن هؤلاء يهوله الأمر، ومن أوائل ما كتب كتاب « الغارة على العالم الإسلامي »، وهو محاضر اجتماعات المبشرين في أوائل هذا القرن، وقد نشرتها مجلة « العالم الإسلامي » التي تصدر في باريس، وترجمت ونشرت على يد الكاتب الإسلامي الراحل محب الدين الخطيب رحمه الله.

ولا نريد التوسع في هذا المجال بل نكتفي بذكر شيء من أعمال المبشرين وجهودهم غير المشكورة في بلد إسلامي واحد هو أندونيسيا، وهذه البيانات مأخوذة من إحصائية صادرة عن مجلس كنائس أندونيسيا لعام ١٩٧٥، وقد ذكرت الاحصائية أن الطائفة البروتستانتية تملك في تلك الديار ٩٨١٩ كنيسة، يتبعها ٣٨٩٧ قسيسا، و٨٥٠٤ مبشرا متفرغا، وأن الطائفة الكاثوليكية تملك في تلك الديار ٧٢٥٠ كنيسة، يتبعها ٢٦٣٠ قسيسا و٥٣٩٣ مبشرا متفرغا، ويدير مجلس الكنائس الجنرال سيماتو بانغ، وهناك مؤسسة تبشيرية في منطقة واحدة بأندونيسيا تملك سبع طائرات، كما تملك شبكة مواصلات لاسلكية وخمسة مطارات، ومؤسسة واحدة تبشيرية تعليمية في جزيرة « كليتمان سيناتنغ » قامت ببناء ٣٤ مدرسة ابتدائية، و٤٠ مدرسة متوسطة، ويدرس في تلك المدارس ٣٢٠٠ طالب وطالبة.

وهناك مؤسسات تبشيرية في أندونيسيا تعمل في مجال المستشفيات

والنشر والشؤون التعليمية والصحافة، وقد نشرت مجلة التايم الأميركية في أواخر عام ١٩٦٧ أن ربع مليون مسلم تخلوا عن دينهم واعتنقوا النصرانية خلال ٣٠ شهرا، وقد يئس المبشرون في البداية من تنصير المسلمين، ثم فتحت أمامهم البلاد، وبلغ من سطوة المبشرين هناك أن أحد القسس في مدينة « ماكسار » الأندونيسية تفوه أمام مجموعة من الطلبة ومنهم مسلمون بأن نبي المسلمين محمداً ﷺ كان يعاشر نساءه سفاحا ؛ لأنه لم يعقد نكاحه إلا على تسع منهن، أما الباقيات فقد كن خليلات لم يعقد عليهن بنكاح شرعي[1] !!

وجهود المبشرين واضحة في شتى أقطار العالم الإسلامي، وفي الكويت البلد المسلم أقام النصارى أكثرمن عشرين كنيسة، ونرى أفراخ المبشرين دائما يوزعون الكتب والنشرات التبشيرية على البيوت وعلى أعتاب المساجد، ويرسلونها عبر صناديق البريد، ويلقونها داخل السيارات عندما يغادرها أصحابها، وقد كانت لهم مدرسة تبشيرية تحمل اسماً نصرانيا واضحا « مدرسة الراهبات الوردية »، ثم تنبهت الراهبات إلى أنَّ هذا الاسم يثير مشاعر بعض المسلمين، فحُوِّل اسمها إلى اسم آخر، وبنايتها التي تضم مئات من أبناء المسلمين تقوم كقلعة على جانب أحد الشوارع الرئيسية .

وقد رأيت منذ سنوات صورة في إحدى الصحف لحفلة أقيمت في هذه المدرسة وقد سموها « حفلة اللقمة المقدسة»، وهي صورة لمائدة طويلة على رأسها رجل دين قسيس، وإلى جانبه عشرات من الطلبة من أبناء المسلمين.

وفي كثير من الدول العربية مدارس نصرانية تدرس أبناء الجاليات الموجودة مثل: الأمريكية، والفرنسية، والانجليزية، ويؤم هذه المدارس

---

(١) هذه المعلومات والاحصائيات عن التبشير في اندونيسيا مأخوذة من كتاب رسالة إلى البابا لعبد الودود شلبي - نشر دار الانصار - القاهرة ص٣٣-٣٩ .

بعض أبناء المسلمين، وهي تسهم في إفسادهم، وتربيتهم تربية بعيدة عن الإسلام، وقد استطاعت مجلة « المجتمع الكويتي » أن تصور واحدة من حفلات المدرسة الأمريكية منذ سنوات، وقد ظهر في الصور الشباب والشابات يرقصون سويا في أوضاع مزرية.

دور المستشرقين في تدمير تاريخ الإسلام:

الذراع الثالث الذي أقامه مخطط الأمة الصليبية لتطويق المسلمين يتمثل في جناح المستشرقين، وقد تخصصت طائفة من علمائهم لدراسة لغتنا وأدبنا وديننا في عقائده وشريعته، واهتموا بدراسة تاريخنا وتراثنا، وعنوا بالتراث القديم والحديث، وأصبحوا أساتذة في ذلك في جامعاتهم وجامعاتنا: أساتذة في التاريخ الإسلامي، وفي الشريعة الإسلامية، وفي الفقه الإسلامي، وفي اللغة العربية، وفي الأدب العربي، وفي التاريخ الجاهلي القديم، وفي التاريخ العباسي...، وكل هذه المناصب الآن تملأ الجامعات الأوروبية.

ولما أصبحوا أساتذة، وألفوا، ودرسوا أخذوا يصوغون فكرنا وتراثنا صياغة جديدة، ويضعونها في قوالب معينة ملأوها بالأكاذيب والمفتريات والتحريف والتشويه بحيث أصبح شباب الإسلام يخجلون من دينهم وتراثهم عندما يطالعون الكتب الإسلامية التي سطرها هؤلاء المستشرقون، ومن طالع الجهود الاستشراقية يعجب من هذا السيل الذي كونوه في ثقافتنا وعلمنا، وقد تتبع الاستاذ نجيب العتيقي جهود المستشرقين وانتاجهم خلال ألف عام فبلغ ما كتبه في هذا المجال مجلدين كبيرين، ومع الأسف فإن الكاتب مخدوع بالمستشرقين وتراثهم، ولذلك فإنه يعرض نتاجهم عرض الفرح الفخور، جاهلا أو متجاهلا ما سببه هذا التراث من دمار.

وقد وصل تأثير هؤلاء المبشرين إلى طلاب العلم المسلمين وإلى مناهج التعليم وإلى المجامع العلمية واللغوية حيث يوجد بعض الأساتذة المستشرقين، فبعضهم أساتذة في جامعاتنا، وأعضاء في مجامعنا العلمية، ومخططون لمناهجنا التربوية، وهناك معاهد للاستشراق في لندن وباريس وواشنطن وموسكو وبرلين وغيرها.

وقد زار مدير معهد الاستشراق السوفيتي في موسكو الكويت منذ فترة بدعوة من المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وقال في مؤتمره الصحفي الذي نشرته صحيفة « صوت الخليج » الكويتية بتاريخ ٢/٤/١٩٨١م: « إن معهد الاستشراق السوفيتي أكبر معهد للدراسات الإنسانية في موسكو يعمل فيه ٨٥٠ باحثا، وهناك ٢٠٠ باحث يعملون في مدينة لينغراد ويتبعون المعهد »، واستطرد مدير المعهد يبين أن المعهد يقوم بالأبحاث والدراسات المتكاملة في الاجتماع والتاريخ والسياسة، وفي المعهد قسم خاص بالبلدان العربية، ولديهم متخصصون بالشؤون الإسلامية، هذا في البلدان الشيوعية، أما في البلدان الصليبية فجهودهم أكبر وأعظم.

لقد كتب تراثنا وتاريخنا هؤلاء المستشرقون أمثال الفردجيوم الانجليزي وبارون كراديفو الفرنسي، وجولد سيهر المجري، والقس زويمر الأمريكي، وعزيز عطية سوريال المصري، وفيليب حتى اللبناني الأصل الأمريكي الجنسية، ومجيد قدوري النصراني العراقي، ومن مشاهيرهم مرجليوث الانجليزي، ولوى ماسينيون الفرنسي ومئات غيرهم، وقد شوهوا تاريخنا وتراثنا، بعضهم حاقد صريح في عدائه وحقده أمثال المستشرق الفرنسي دير بيلو الذي وصف الرسول ﷺ بأنه « دجال »، ولا مانس الذي وصفه بأنه « لص نياق »[1] وبعضهم ظهر بالمظهر العلمي، واتسم بسمات التحقيق ليدس للإسلام كما يدس السم الزعاف

(١) العقل المسلم ص: ١٢ .

في العسل، أمثال جولد سيهر الذي ادعى أن الأحكام الشرعية الإسلامية لم تكن معروفة لجمهور المسلمين في الصدر الأول من الإسلام !! وأن كبار الأئمة كانوا جهلاء بالإسلام ! وأن الإمام أبا حنيفة - رحمه الله - لم يكن يعلم هل كانت معركة بدر قبل أحد أم بعدها !! واتهم هذا المستشرق الإمام الزهري الذي أجمع علماء الجرح والتعديل على أمانته بأنه كان يضع الحديث على الرسول ﷺ[1] !!

لا ننكر أن في بعض هؤلاء المستشرقين رجالا منصفين ولكنهم قليل، وإنصاف هؤلاء يدفعهم إلى مواقف رائعة فلا يتمالكون إلا أن يعلنوا إسلامهم أمثال المستشرق رينيه جون الذي أسلم، وتسمى باسم ناصر الدين رينيه، وفضح كثيرا من خطط المستشرقين ورد عليهم، وإبراهيم خليل أحمد المصري الذي أراد أن يقدم رسالة دكتوراه في بيان تناقضات الإسلام فغلبه القرآن، وأعلن إسلامه، وكتب كتابا بيّن فيه الطريقة التي يعمل بها المبشرون والمستشرقون والجهد الذي تقوم به الكنائس في مصر.

أما الذين يدرسون تاريخنا ويبقون على عقيدتهم فلن يتخلصوا من حقدهم على الإسلام إلا ما شاء الله، وانظروا إلى الأكاذيب التي طفحت بها دائرة المعارف الإسلامية التي كتبها المستشرقون أمثال اربيري وجب وجولد سيهر وغيرهم، أما الأعمال العلمية التي قام بها أمثال ونسنك الألماني مثل « المعجم المفهرس لألفاظ الحديث »، فقد كان المراد بها خدمة المستشرقين كي يسهل عليهم الوصول إلى أحاديث الرسول ﷺ.

إن المستشرقين أكثرهم من رجال الدين النصارى، فمثلا اندرسون الانجليزي تخرج من كلية اللاهوت في جامعة كمبردج، وقد كان من اركان حرب الجيش البريطاني في مصر خلال الحرب العالمية الثانية، ثم

---

(١) الاستشراق والمستشرقون للسباعي، ص٤٤، ٤٦ .

عمل رئيسا لقسم قوانين الاحوال الشخصية في معهد الدراسات الشرقية في لندن[١].

وقد زار الشيخ مصطفى السباعي ـ رحمه الله ـ جامعة أدنبره، فوجد المستشرق الذي يرأس الدراسات الإسلامية فيها قسيسا بلباس مدني، وقد وضع لقبه الديني مع اسمه على باب منزله[٢].

وزار جامعة جلاسجو فوجد المستشرق الذي يرأس الدراسات الشرقية قسيسا عاش رئيسا للإرسالية التبشرية في القدس قرابة عشرين عاما[٣]. ومن هؤلاء المستشرقين يهود أمثال المستشرق الألماني شخت، وقد قال الدكتور السباعي بعد جولة له في العالم الغربي ومقابلته لعدد كبير من المستشرقين: « إن المستشرقين في جمهورهم لا يخلو احدهم من أن يكون قسيسا أو استعماريا أو يهوديا وقد يشذ عن ذلك أفراد»[٤].

نماذج من خرافات الصليبين وأكاذيب المبشرين:

إن وقائع الحروب الصليبية وآلامها لا تزال توجه النصارى وتملك عليهم فكرهم، إن الأمهات يرضعن أبناءهن كراهية الإسلام مع الحليب، والقصص الشعبي لا يزال يتغنى ببطولات النصارى في تلك الحروب في الوقت الذي تشوه فيه صورة الإسلام رجاله.

وقد كنت أطالع كتابا مترجما عنوانه: «صلاح الدين وريكاردوس قلب الاسد»، وهو رواية غرامية اقتبس حوادثها جورج جرداق عن الملحمة الصليبية للسيرولتر سكوت ونشرتها دار الروائع في بيروت، وقد ملئت بالأكاذيب من أولها إلى آخرها، وسنكتفي بذكر مثال واحد منها:

---

(١) المصدر السابق: ص ٥١.

(٢) المصدر السابق: ص ٥٢ .

(٣) المصدر السابق: ص: ٥٤.

(٤) المصدر السابق: ص: ٥٢ .

يبدأ المؤلف الكتاب بوصف فارس صليبي يسير وحيدا في الصحراء. يقابله فارس عربي... يقتتلان ثم يتصالحان ويتعاهدان على الوفاء، ويسيران سويا، ويدور بينهما حديث طويل، ومن جملة ذلك أن العربي في مسيرته يأخذ بالإنشاد والتغني بالخمر والنساء فيناقشه الفارس الصليبي، وينهاه طالبا منه أن يحترم المكان الذي يسيران فيه، ويقول له: ما شأن الحب والخمر في وادي ظل الموت هذا، وفيه يطوف الأعداء والشياطين الذين طردتهم صلوات المؤمنين والصالحين من كافة أنحاء الأرض، وحملتهم قسرا على أن يسكنوا هذه الأماكن الملعونة كسكانها؟ فماذا يجيبه الفارس العربي[1] !؟

استمع إلى اجابته حيث يقول: « لا تتكلم بهذه اللهجة عن الشياطين أيها الأجنبي، واعلم أن قومي ينتسبون في أصلهم إلى هذه الذرية الخالدة التي تخافها وتقذفها بالشتائم واللعنة !!! فيقول له الصليبي: أتود أن أعتقد بأن قومك من ذرية الشيطان الذي لولا معونته لما استطعتم أبدا أن تمنعوا أرض فلسطين المقدسة عنا، وإني لا أعنيك بصورة خاصة، وإنما أعني أهل المشرق عامة، وليست الغرابة أن تنحدر من ذرية الشيطان بل الغرابة أن تفخر بهذا الانتساب !! فيقول له الفارس العربي مستنكرا: بالانتساب إلى من تريد أن يفخر الشجعان إن هم لم يفخروا بالانتساب إلى أشجع الكائنات ؟ وبمن يعتزون إن هم لم يعتزوا بملك الظلمات الذي آثر أن يسقط ويرزح تحت الأعباء الثقال على أن يحني هامته ويطوي ركبته ويسجد لسواه !؟ .

حوار طويل حول هذه القضية... ثم يبين الفارس العربي المسلم للفارس الصليبي كيف أنه وقومه الأكراد من سلالة الشيطان، ويذكر له

---

(١) عندما نقرأ الرواية إلى آخرها نجد أن هذا الفارس العربي المسلم الذي يتغنى بالخمر والنساء ويمجد الشياطين إنما هو صلاح الدين الأيوبي فلعنة الله على الظالمين(ص٣٥ من الرواية) .

أسطورة غـريـبـة كلهـا تخـريف ودجـل تبين أنـه وقـومـه وأمـتـه من ذرية الشيطان، ولا يكـتفي المؤلف بذلك بل يجعل هذا الـعربي ينشد أكـثرمن مـائة بيت كلهـا تسـبيح وتمجـيـد للـشيـطان الذي يعـبـده والذي هو من سلالته ! ! يقول في بعض هذه الأبيات:

أحيي فيـك سـلطـان الجحيـم ... وأعبـد حكمـة الأزل القديـم
لـك الـنـار الـتـي كـونـت مـنهـا ... لك الظلمات في الدهر البهيم[1]
تسبح بـاسمـك الأعـلى جنـود ... بأنغـام كدمـدمـة الهـزيـم[2]
وحولك من سراة الجـن[3] حـزب ... وحولك ألف شيطان حكيـم
وتنفـخ فـي وجـوه الـقـوم غـيظـا ... بافواه من اللـهـب العظيـم[4]

وهكذا. . . قصائد كـثيرة صاغها المترجم صياغة أدبية مـحكمة يصور الكاتب فيها صلاح الدين الايوبي وهو الـقائد الموحد الزاهد العابد التقي الورع الشـجاع على انه عـابد شيطان كـافر بالرحـمن، والصليبي الكـافر يصوره مدافعا عن تعاليم الأنبياء.

قد يقال: إن هذا الذي بينته ليس إلا ملحـمة شعبيـة أدبية، لا تعدو أن تكون تصـورات أديب جـمح به الخيـال، فـحلق هنا وهناك.، والرد على هذا القـول أن مثل هذه الأعـمال إنما تجسـد تراث النصرانـية الذي توارثته الأجيـال، وأنا أجزم بأن أكثر الكتب التاريخيـة التي خطتها أيدي المستشرقين لا تخالف مـا سطره صاحـب الأسطورة، ولا فرق بين كـثير مما كـتبـه المسـتـشـرقـون، وبين هذه الرواية الخـيـاليـة التي تجـسـد أفكار النصارى.

---

(١) البهيم: أي الأسود الذي لا ضوء فيه .

(٢) دمدمة الهزيم: اي كصوت الرعد الشديد .

(٣) سراة الجن: كبارهم .

(٤) ص ١٤ من الرواية .

بحوث المستشرقين شبيهة باخبار المشعوذين:

يقول المؤرخ رالف لنتون مؤلف كتاب « شجرة الحضارة » والأستاذ بجامعة « ييل » عن طفولة الرسول ﷺ: « وكانت طفولته غير مستقرة وصعبة لأن الطفل اليتيم كثيرا ما كان يذهب ليقيم عند مختلف المرضعات والأقارب »[1]! فهو يصور الرسول ﷺ بأنه كان إنساناً متشردا يأوي كل يوم إلى بيت ما، وكل يوم مرضعة ما، وكل من له دراية بالتاريخ يعلم كذب قوله هذا.

ويخلط هذا المؤرخ بين حادثتين في حياة الرسول ﷺ هي خروجه مع عمه إلى الشام وهو صبي صغير واشتراكه في حرب الفجار حيث يقول لنتون: « وعندما بلغ السابعة عشرة من عمره ذهب إلى سوريا مع عم له، وخاض غمار حرب دينية »[2] ! وصبيان المسلمين يعلمون أن هذا كذب فالرسول ﷺ سافر مع عمه إلى الشام للتجارة، أما الحرب التي خاضها فهي معركة الفجار التي كان فيها مع أعمامه يناولهم السهام وكانت قرب مكة.

ويتحدث هنري ماسيه في كتابه « الإسلام » عن زوجة الرسول ﷺ خديجة رضي الله عنها، ويصفها بانها « الأرملة المطلقة التي كانت تدير بيتا تجاريا »[3] و« بيتا تجاريا » يعني به معنى خاصا، أي بيتا للفسق والرذيلة والفجور!!! ألا لعنة الله على الظالمين.

ويفتري المؤرخ الإنجليزي ويلز في كتابه « معالم تاريخ الإنسانية»[4]عندما زعم أن عائلة السيدة خديجة رضي الله عنها «تضايقت

---

(١) شجرة الحضارة ٢/٣٤٠، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر - القاهرة ونيويورك .

(٢) المصدر السابق ٢/٣٤٠ .

(٣) الإسلام لهنري ماسية ص (٤٣) ٠ ترجمة د.مصطفى الرافعي، نشر محمد جواد مغنية انظر العقل المسلم للدكتور عبد الحليم عويس ص٤١ .

(٤) معالم تاريخ الانسانية ٣/٧٧٦. ترجمة عبد العزيز توفيق - نشر مطبعة التاليف والترجمة والنشر - القاهرة : ٩٦١ .

كثيرا من زواج الرسول منها » !! أين هذا في التاريخ !؟ وأي افتراء أشد من هذا !؟ ويسترسل ويلز ليشكك في سن خديجة عند زواج الرسول ﷺ منها فيقول: « وليس من المحقق أن زوجته كانت أسن منه بكثير، وإن أجمع التواتر على أنها كانت في الأربعين »، ثم يأتينا بما لم نسمع به عندما يزعم أن الرسول ﷺ ولد له ولد سماه «عبدمناف » !! أين هذا في التاريخ !؟ ومن « مناف » هذا عند هذا المؤرخ!؟؟ يقول: « مناف » اسم للرب المكي !! ثم يعقب على هذا قائلا: «وهذا يدل على أن محمدا لم يكن قد توصل في ذلك الوقت إلى أي اكتشافات دينية»[1] أي أنه ﷺ لم يكن رسولا، وإنما كان يكتشف الدين اكتشافا !!

ويتحدث ويلز عن الوحي فيقول: « قد اعتقد بعض متوقدي الخيال من الكتاب أن محمدا كانت تلم به أدوار صرع روحي عظيم، وأنه كان يخرج إلى الصحراء في آلام مبرحة من الشك والرغبة القدسية »!! ثم ينقل عن السيرك مارك سايكس قوله: « ففي هدأة الصحراء ليلا، وفي قيظ ظهيرة الصحراء نهارا عرف النبي نفسه كما يفعل الناس جميعا، وأحس الوحدة والانفراد وإن لم يستوحش، ذلك أن الصحراء لله، وفيها لا يستطيع إنسان أن يجحده ».

ويعقب ويلز على ذلك بقوله: « ربما كان الحال كذلك، ولكن لم يقم أي دليل على حدوث مثل هذه الرحلات الصحراوية » ![2] ويردد المستشرق هنري ماسيه كل الأكاذيب التي قيلت أو يمكن أن تقال عن مصدر الدين الذي جاء به الرسول ﷺ فيجعل الوحي ناشئاً عن الصوم الذي يضعف الجسم، فيحدث في الليل احلاما ورؤى[3] !!

(١) المصدر السابق: ٣/ ٧٧٧ .

(٢) المصدر السابق: ٣/ ٧٧٧.

(٣) المصدر السابق: ص ٣ .

ويزعم أن الرسول ﷺ أخذ القرآن عن الأمم السابقة فيقول: « ما من شك في أن القرآن لا يمكن أن يكون كله من نتائج الانخطاف الروحي، ومن الممكن القول بأن الأجزاء الأكثر قدما قد تعرضت لبعض التعديلات »[1].

ثم يستطرد قائلا: « ومما لا يقبل الجدل أن القرآن يعكس بطريقة غير مباشرة تأثير مذاهب مشتقة من اليهودية أو المسيحية، وهي مذاهب كانت متعددة يومذاك في بلاد العرب »، ثم يكذب ماسيه القرآن الذي ينفي عن الرسول ﷺ الشعر والكهانة، ويردد أقوال المشركين من قبل عندما يقول: « ويجب الاعتراف بأن خصوم محمد كان لهم بعض الحق في اعتباره كاهنا أوشاعرا »[2].

ويقول ويلز الإنجليزي: « ويحتمل أن محمدا رأى كنائس مسيحية في سوريا، ويكاد يكون محققا أنه كان يعرف عن اليهود وديانتهم، وأنه استمع إلى سخريتهم من ذلك الحجر الأسود في الكعبة الذي كانت له السيادة على الأرباب القبلية « الثلاثمئة في بلاد العرب » [3] فهو يرى أن الحجر الأسود عبارة عن الرب الكبير الذي كانت تعبده قريش وكان مهيمنا على بقية الأرباب !!

كل شيء يمكن أن يقال فالخرافات والأساطير تعرض وتساق كأنما هي حقائق، فما الفرق بين تلك الرواية الغرامية التي تجسد ملحمة شعبية يتداولها النصارى في بلاد الغرب، وبين ما يقوله هؤلاء المؤرخون المحققون ؟؟ لا فرق بين هذا وبين ما يقوله هؤلاء، إلا أن هؤلاء دلسوا علينا عندما زعموا أنهم ينشدون الحقيقة.

وما ذكرناه قبل قليل يعتبر غيض من فيض مما كتبه بعض المستشرقين

(١) الإسلام لهنري ماسيه: ١٠١ .

(٢) المصدر السابق: ص ١٠٣ .

(٣) معالم تاريخ الإنسانية .

في موضوع واحد هو شخصية الرسول ﷺ، والذي لم نسطره أكثر بكثير مما نقلناه، والمستشرقون ضلوا على علم، فهم لا يسلكون مسلك البحث النزيه، وغالب المستشرقين لا يراجعون النصوص متجردين عن الهوى تاركين البحث السليم يقودهم إلى النتيجة، ولكن أغلبهم يضع في ذهنه فكرة مسبقة، ثم يتصيد الأدلة لاثباتها، وحين يبحثون عن هذه الأدلة لا يهمهم صحتها بمقدار ما يهمهم الاستفادة منها لدعم آرائهم الشخصية، وكثيراً ما يستنبطون الأمر الكلي من الحادثة الجزئية، وهم يسيرون نحو هدفهم في تشويه الإسلام وتاريخه، وإذا رأوا واحدا من طلابهم المسلمين قد كشف باطلهم واستمسك بدينه وعرف الحقيقة، فإنهم يسعون بكل سبيل لتدميره، وقد ذكر الدكتور مصطفى السباعي ـ رحمه الله ـ أن المستشرق الإنجليزي أندرسون حدثه بنفسه أنه أسقط طالبا أزهريا تقدم للحصول على شهادة الدكتوراه، لأنه كتب كتابة نظيفة عن الإسلام، وكان يريده أن يكتب ما يشوه الإسلام.

وهم يلمّعون المستشرقين الذين شوهوا الإسلام، وينشرون لهم الدعاية التي ترفع ذكرهم وتعلي مكانتهم، ويرفضون أن ينال أحد من مكانتهم أو يدل على أخطائهم، لقد أراد الدكتور أمين المصري ـ رحمه الله ـ الحصول على شهادة الدكتوراه من جامعات انجلترا، وأحب أن يكون الموضوع الذي يكتب فيه: نقد كتب « شخت » في تاريخ الفقه الإسلامي، فقد كان يريد أن ينقض آراء هذا المستشرق في الفقه الإسلامي، وتقدم إلى المستشرق أندرسون ليكون مشرفا على رسالته فرفض ذلك بإصرار، فتحول إلى جامعة كمبردج، ولكنهم رفضوا طلبه أيضا، وقالوا له: إذا أردت أن تنجح في الدكتوراه فتجنب انتقاد «شخت»، فإن الجامعة لن تسمح لك بذلك!! فاضطر في النهاية إلى تحويل رسالته إلى موضوع آخر![1] فلم هذا الرفض !؟ لا شك أنهم

---

(١) الاستشراق للسباعي .

يريدون ابقاء هذا الرجل في أذهان الذين يقرأون عنه وعن كتبه علما من الأعلام ومرجعا فيما يُكتب أو يُقال.

وقد طغى علينا في فترة سابقة الشعور بالنقص، وكان كثير من علمائنا يأخذون آراء هؤلاء المستشرقين قضية مسلمة، بل كان بعض الأساتذة يعتمد على آرائهم اعتمادا كليا، فلا تقبل نقدا في رأيه ونظره، وردد بعض أبناء المسلمين أقوال المستشرقين ونقلوا كتبهم ونسبوها إلى انفسهم أمثال الدكتور طه حسين، فإنه نقل آراء المستشرق مبرجليوث وضمنها في كتابه « الأدب الجاهلي »، وليس له في الكتاب رأي جديد، وكذلك الأستاذ أحمد أمين أخذ كثيراً من آراء المستشرقين في كتبه التاريخية ونسبها لنفسه، ومنهم الدكتور علي حسن القط في كتابه: « نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي »، فإنه ترجمة حرفية لما كتبه جولد سيهر في كتابه: « دراسات إسلامية »، وكتاب « العقيدة والشريعة في الإسلام »[1].

لقد آن لنا أن ندق نواقيس الخطر وأن نطلق صفارات الإنذار وأن نواجه الأخطار التي تحيط بنا، إن الأمم رمتنا عن قوس واحدة شرقيها وغربيها، الشيوعيون والصليبيون واليهود، وقد أصبحنا أضيع من الأيتام على مأدبة اللئام، وصدق فينا قول الرسول ﷺ: « يوشك الأمم أن تتداعى عليكم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها » فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ ؟؟ قال: « بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن » فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن ؟؟ قال: « حب الدنيا وكراهية الموت »[2].

---

(١) المصدر السابق .

(٢) رواه أحمد وأبو داود وابن عساكر وصححه الشيخ ناصر الدين الالباني .

أمور مهمة نختم بها محاضرتنا:

وفي الختام نود التنبيه إلى أمور مهمة نبه إليها بعض المحققين:

١- يجب أن نتصدى لكتابات المستشرقين، ونتوجه إلى تقويمها، ونبين ما فيها من زيف، ويجب أن يقوم بذلك كتاب متخصصون وأن يشرف على هذا العمل مراكز علمية، وأن يعهد بهذه الأمانة إلى رجال مسلمين مشهود لهم بالكفاءة والنزاهة.

٢- أن نعرض تاريخنا عرضا مفصلا مبوبا مرتبا حتى يتسنى لأبناء هذا الجيل والأجيال المقبلة أن يطلعوا على ماضي أسلافهم بسهولة ويسر، وتعمق وموضوعية.

٣- أن نعرض تاريخ الإسلام على أنه صورة تطبيقية للإسلام، وننظر إليه نظرة المعتبر، فنظهر جماله وحقائقه ونتأسى بها، ونبين ما فيه من صفحات قاتمة ونتبين سنة الله في أمثالها.

٤- أن ننتبه إلى تأثير المستشرقين في مدارسنا وجامعاتنا وكلياتنا، ومناهج التعليم عندنا، وأن نتبين تأثيرهم في المسرح والسينما وفي غير ذلك من وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة.

٥ - ينبغي أن نعطي تراثنا وديننا حقه في مدارسنا وجامعاتنا، فلا يجعل للغة الكفار في بلادنا وفي مدارسنا نصيب الأسد بينما يكون عدد حصص التربية الإسلامية قليلا بحيث لا يزيد عن حصتين أوثلاث حصص في الإسبوع.

٦- يجب أن نعلم أن أساليب المستشرقين تتلون من جيل إلى جيل، ومن وقت إلى وقت، كما تتلون أساليب المستعمرين والمبشرين أيضا ونحن نظن أن اللون الجديد الذي يتخذه المستشرقون اليوم يختلف عن ذلك اللون الذي اتخذوه قديما، وذلك لأن هناك من المخلصين من أبناء

هذه الأمة ممن درسوا كتبهم فوقفوا على أكاذيبهم وادعاءاتهم وتزييفهم وأخذوا يفضحونهم ويبينون ما في كتاباتهم من عوار، أما اللون الجديد الذي يتخذه المستشرقون اليوم فيتمثل في المؤتمرات التي تعقد باسم الإسلام والنصرانية وهم يريدون أن يتوصل المسلمون والنصارى إلى نقطة وسط يلتقي فيها هؤلاء وهؤلاء، وقد عقدت في عام ١٩٧٥ ثلاثة مؤتمرات إسلامية نصرانية في مختلف أنحاء الأرض حيث يجتمع فيها مئات من علماء المسلمين والنصارى يتناقشون فيما بينهم.

أهناك لقاء بين « لا إله إلا الله » وبين « عقيدة الصليب وأن عيسى هو الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة » ؟؟ عندما جاء النصارى إلى المدينة المنورة قال لهم الرسول ﷺ:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾[آل عمران: ٦٤] والله إنهم ليعرفون حقيقة الإسلام كما يعرفون أبناءهم، ولكنه الدس والكيد... يريدون أن يَجُرُّوا أرجل المسلمين إلى شباكهم.

هذه بعض التوجيهات التي نختم بها كلامنا... أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

المحاضرة الخامسة

مجالات الصراع بين الخير والشر

تقديم

وجود عدو يصارعه الإنسان ضرورة لا مناص منها :

الذي يسبر غور النفس الإنسانية، ويراقب تصرفات البشر، ويدرس تاريخهم في ماضيهم وحاضرهم يصل إلى نتيجة مؤكدة لايكاد يختلف عليها، وهي أن الصراع أزلي في حياة الإنسان، وأن وجود عدو يصارعه الإنسان أمر ضروري له، فلا يتصور للإنسان وجود على ظهر هذه الأرض إن لم يوجد العدو الذي يوجه إليه عداءه، ومتى خلت حياته من عدو وجه عداءه إلى من لا يعاديه.

فإذا رفض بعض الناس النزول إلى حلبة الصراع، ورفضوا معاداة الآخرين، فإن هؤلاء الذين رفضت عداءهم ينصبون لك الأحابيل، ويضعون لك المخططات لتدميرك وهلاكك، ولا يلقون سلاحهم حتى يصلوا إلى أهدافهم، هذا الذي قررناه هنا نص عليه القرآن الكريم، فالقرآن يقرر أن البشر دائمو الاختلاف فيما بينهم ﴿وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ، إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

ومن الاختلاف ينشأ الصراع، ويتعادى البشر فيما بينهم، وانظر إلى خيرة البشر، وهم الأنبياء والمرسلون، هل خلت حياتهم من الصراع ؟ وهل هادنهم الناس، وتوقفوا عن معاداتهم؟ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾[الأنعام:١١٢].

تلك سنة من سنن الله في خلقه، فما أرسل الله من رسول، ولا ابتعث من نبي إلا عودي، وتألبت عليه قوى الشر.

فلا يجوز للمرء أن يطمح في أن يعيش حياة هادئة، لا يعكر صفوها مكر الأعداء، وظلم الأشقياء، ومؤامرات الطواغيت، بل على المرء أن يوطن نفسه على خوض صراع طويل مرير، لا يتوقف إلا إذا توقف في الإنسان نبضات قلبه، ولا يهدأ إلا إذا هدأت أنفاسه، والذين لا يريدوننا أن نفقه هذه الحقيقة اليوم هم أعداؤنا أو أولياؤهم، الذين يريدون تدجيننا كي ينالونا بسهولة عندما تسنح الفرصة لهم.

ضرورة تحديد العدو ومعرفته:

وما دام الصراع ضروريا لا انفكاك عنه، ولا خلاص منه فلا بدَّ من تحديد العدو الذى ينبغي أن تتجه قوانا وجهودنا إلى مصارعته ومحاربته، فتحديد العدو ضروري جدا، وإذا لم يوفق الإنسان في معرفة عدوه فإنه يتخذ العدو صديقا، والصديق عدوا، فيوجه المرء قواه لتدمير نفسه، ونفع عدوه، ويضيع المرء نفسه.

تعريف الله آدم بعدوه:

عندما خلق الله آدم، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وفتح عينيه على ذلك التكريم العظيم وجد مخلوقا حاسدا حاقدا يرفض تكريمه وطاعة أمر الله فيه، فقال الله لآدم ﴿يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ [طه: ١١٧].

لقد حدد الله لآدم عدوه تحديداً واضحا بيّنا: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه: ١١٧]، وكما فعل الله بآدم فعل ببنيه، فقد أرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب يعرفهم بأعدائهم، ويحذرهم من هؤلاء الأعداء، ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: ٢٧]، ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ

إبْلِيـــس كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ [الكهف: ٥٠].

الشيطان العدو الأول للإنسان:

فالعدو الأول للإنسان هو الشيطان كما يخبرنا القرآن، وهذه العداوة عميقة الجذور، لا يمكن أن تتوقف أبدا، فعندما طرده الله من جنته ورحمته، وأسقط كرامته، وأبطل طاعته لعصيانه أمر ربه في السجود لآدم طلب من الله إبقاءه في الحياة إلى يوم القيامة، لا لشيء إلا للكيد لبني آدم وإهلاكهم وتدميرهم ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ، قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِين، قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ، ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِين ﴾ [الأعراف: ١٤ ـ ١٧].

إن تحديد العدو ومعرفته أمر ضروري في نجاح الإنسان في صراعه مع القوى التي تريد تحطيمه، وعدو الإنسان الأول هو الشيطان، فالشيطان كان معززا مكرما في جنة الخلد يعبد الله مع ملائكة السماء.

وعندما خلق الحقّ آدم حسده إبليس بسبب ذلك التكريم الذي كرمّه الله تعالى به، فقد خلقه بيده ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾[ص: ٧٥]، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [ص: ٧٢]، فاستكبر إبليس عن السجود لآدم وحقد عليه، وعصى أمر ربه بسبب ذلك، فطرده الله من رحمته وجنته ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ [الأعراف: ١٣]، فأضمر الشيطان العداوة لآدم وبنيه، وعقد العزم على الكيد لهم، وتدميرهم وإهلاكهم ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ، ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ

أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

وقد شاء الله أن يمدّ للشيطان في عمره، فأجاب طلبه في أن يبقى حيا إلى يوم الدين ﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ، قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤، ١٥].

الشيطان مخلوق عاقل ذكي، وقد استخدم عقله وذكاءه في الإفساد والإضلال . الشيطان يعلم أن فلاح الإنسان ونعيمه وهناءه إنما هو في فقه دين الله المنزل إليه، ثم الاستقامة على هذا الدين، ولذلك فهو يزين للإنسان خلاف منهج الله، ويأمره بالعقائد والأعمال والأقوال والآداب التي تخالف دين الله وشرعه، ولا يزال يبتكر للبشر في كل عصر من النظريات والمفاسد ما يعجز العقل الإنساني عن استقرائه وحصره.

وسبيل الشيطان إلى تحقيق مراده من الإنسان هو تزيين الفاحشة والمعصية، وتحسين الباطل حتى يندفع المرء اندفاعاً ذاتيا إلى فعل مراد الشيطان، فقد زَيَّن لآدم الأكل من الشجرة التي نهاه الله عنها، وأقسم له ولزوجه أنه لهما ناصح، وزعم لهما أن الأكل منها يخلدهما في الجنة، أو يجعلهما مَلَكَيْن من ملائكة الرحمة، ثم تولى ساخرا ضاحكا عندما صدقا كذبه، ووقعا في أحابيله ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ، فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ، وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ، فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف: ١٩ - ٢٢].

هذا هو العدو الأول للإنسان، الذي تنبعث منه الشرور والمعاصي والآثام، والذي يثير الفساد في الأرض، ويحركه تحريكا، والذي يأكل الألم قلبه كلما رأى الخير سائدا بين البشر وصوت الحق عاليا.

أولياء الشيطان:

ويقف في صف الشيطان من البشر كل الذين خرجوا عن منهج الله ودينه وشريعته على اختلاف طرائقهم ومذاهبهم، فقد انقسم البشر إلى فريقين وحزبين: فريق يتولى الرحمن ويحبه، ويطيعه ويسير وفق هديه وشريعته، وفريق يتولى الشيطان ويطيعه، وينفذ مخططاته.

وليس من الضروري أن يقر حزب الشيطان بالولاء الصريح للشيطان، فكثير منهم يلعنه، ولكنهم من أوليائه وحزبه، لأنهم يسيرون وفق خطواته التي اختطها، وكل مبدأ ومنهج وعقيدة وطريق يخالف ما جاء من عند الله فإن الشيطان يرضاه، ويبارك خطوات القائمين عليه، فمراده إهلاك العباد، وكل مخالفة لمنهج الله فهي إهلاك كلي أو جزئي للعباد.

وقد حذرنا الله من الشيطان وأولياء الشيطان، وأمرنا بمعرفتهم ومعرفة مخططاتهم، والوقوف صفا واحدا في حربهم، وحذرنا من الانخداع بالشيطان وأولياء الشيطان، ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [النور: ٢١].

وأمر الله أولياءه بقتال أولياء الشيطان ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٧٦].

وإذا كان الشيطان يكتل أولياءه ويخطط لهم ويوجههم ويفسد الحياة، فإن الله - تبارك وتعالى - تكفل بإنزال هديه وإرسال رسله كي يبلغوا البشر دينه ومنهجه، فالرسل والرسالات توالت على مدار التاريخ الإنساني، تنشر النور والهدى وتستنقذ البشرية من براثن الشيطان، ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤]، ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

تحديد مجالات الصراع

مجالات الصراع التي ينبغي أن يخوض المؤمن غمارها ما بقي في الحياة ثلاثة:

المجال الأول

نفسه التي بين جنبيه

فالنفس أمارة بالسوء، والشيطان يستغلها ويزين لها الباطل، ويديم لها الوسوسة، وقد أمرنا الحق بالالتجاء إليه جل وعلا، ليذهب عنا وسوسة الشيطان وشره ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، مَلِكِ النَّاسِ، إِلَهِ النَّاسِ، مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ، الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ، مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾[الناس: ١-٦].

والوسواس الخناس الذي أمرنا بالاستعاذة منه هو الشيطان، فالشيطان كما في الحديث « يجري من ابن آدم مجرى الدم من العروق »، وهو واضع خرطومه على قلب ابن آدم، فإذا غفل العبد عن ذكر الله وسوس، وإذا ذكر الله خنس، كما يقول حَبْرُ هذه الأمة عبد الله بن عباس.

والشيطان يحاول أن يثني المؤمن عن كل خير، فإذا شاء العبد أن يدخل في الإسلام ويترك الكفر جاء الشيطان يجادله ويقول له: كيف تترك دين الآباء والأجداد، هل كان آباؤك على خطأ، وهل كنت قبل هذا ضالا ؟ وماذا يقول الناس عنك ؟ وإذا أراد المسلم أن يهاجر إلى دار الإيمان، قال له الشيطان: كيف تترك بلادك التي نشأت فيها، وعشيرتك التي تنتمي إليها ؟ وكيف تترك الأحباب والأصحاب !!؟

وإذا رام المسلم أن يقاتل في سبيل الله، جاءه الشيطان يثبطه ويوهن عزيمته، ويقول له: كيف تقاتل، وفي القتال إذهاب النفس والمال، فييتم الأولاد، ويذهب المال، وتنكح الزوجة !!؟

وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: « إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام فقال: تسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك ؟ فعصاه فأسلم.

ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: تهاجر وتدع أرضك وسماءك ؟ فعصاه فهاجر.

ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال: تجاهد فهو جهد النفس والمال، فتقتل، فتنكح المرأة، ويقسم المال ؟ فعصاه فجاهد ».

رواه أحمد والنسائي وابن حبان بإسناد صحيح.

ولا يدع الشيطان أمراً يحبه الله إلا زين للعبد مخالفته، ولا أمراً مكروها لله إلا وزين له مقارفته، ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩].

والإنسان في صراع دائم في نفسه مع الشيطان، يقوم الإنسان يصلي، فيأتي فيذكِّره من الدنيا مالم يكن يذكره قبل الصلاة، فيصرفه عن صلاته، ويشغله عنها، وقد وقع مثل ذلك للصحابة، وقد اشتكى بعضهم للرسول ﷺ مثل هذه الحال في صلاته، فقال: « ذلك شيطان يسمى خِنْزِبٌ، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه، واتفل عن يسارك ثلاثاً».

قال الصحابي: ففعلته، فأذهبه الله عني.

وفي حديث آخر يخبر الرسول ﷺ أن المؤذن إذا أذن بالصلاة أدبر الشيطان حتى يكون مكان الروحاء، أي يهرب من ذكر الله، حتى يصل إلى المكان المعروف بالروحاء، والروحاء موضع يبعد (٤٥)

كيلومترا عن المدينة، فإذا قضى أقبل، فإذا أقيمت الصلاة أدبر، فإذا قضيت أقبل، حتى يحول بين المرء وصلاته، يقول: اذكر كذا، اذكر كذا، حتى لا يدري أصلى ثلاثا أم أربعا ».

فمجال الصراع الأول الخطير الذي يحرص الشيطان على السيطرة عليه هو قلب المؤمن، فإذا ملكه ملك صاحبه، وسَيَّره وفق ما يريد، وجعله وليا من أوليائه، فإن أبى العبد فإنه لا يزال يهاجمه، ويداوره، ويهتبل منه لحظة ضعف، ولحظة غفلة.

ولكن المؤمن الحق لا يكاد الشيطان يلم به في مثل هذه اللحظات حتى تتداركه رحمة الله فيبصر ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، إنما هو طائف عارض يتجلى سريعا عندما يعود إلى الله ومنهجه. أما إخوان الشياطين فإنهم غرقى في ضلالهم لا يجدون خلاصا ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٢]، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾[مريم: ٨٣].

وسيف المؤمن في محاربة الشيطان في مجال نفسه، ودائرة قلبه هو الالتجاء إلى الله، والاحتماء به، فإذا ما أحس العبد بنوازغ الشيطان، استعاذ بالله، وذكر الله،وقرأ القرآن، فيذهب الله عنه وساوس الشيطان.

المجال الثاني

مجال الأمة الإسلامية

هذه الأمّة تكون قوية صالحة فاضلة إذا استقامت على الإسلام والتزمت بشريعته، وابتعدت عن كل ما ينافي ذلك ويعارضه .

ولن تبقى الأمة في هذا المستوى الراقي ما لم تُنَقِّ نفسها باستمرار بإقرار الفضائل ونبذ الرذائل، وهذه عملية مستمرة دائبة، أرأيتم المدن

الراقية اليوم كيف تقوم بعملية تطهير دائم، يتعاون فيها الأفراد وأجهزة الدولة المختلفة، لتبقى المدينة نظيفة طاهرة ! ماذا يحدث لو قلت عناية الأفراد بالنظافة وامتنعت البلدية من جمع الأوساخ وإقصائها عن الحواري والأحياء !! لا شك أن هذه المدينة تصبح بعد فترة وجيزة من الزمن كتلة من القاذورات تصعب الحياة فيها.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عملية تطهير دائم يقوم بها المجتمع تجاه نفسه، لتنقيته من القاذورات التي تدمر بناءه، وتذهب بهاءه، ولذا لم يكن عجبا أن يبين الحق خصائص هذه الأمة فيذكر في طليعتها هذه الخاصية ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ [التوبة: ٧١].

وإذا تأملنا في هذا النص القرآني جيدا وجدناه يتحدث عن الأمة الإسلامية والمجتمع الإسلامي، فالمؤمنون والمؤمنات وحدة فيما بينهم، ينصر بعضهم بعضا، ويوالي بعضهم بعضا، ثم ينبه النص على خصائص هذا المجتمع المترابط المتناصر ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [التوبة: ٧١].

وعندما أعلن القرآن أفضلية هذه الأمة على بقية الأمم بيّن سبب هذه المنزلة الرفيعة التي حازتها هذه الأمة وأول ما فضلها أمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

والفئة الممتازة في هذه الأمة هي التي نذرت نفسها لتقويم المعوج وإصلاح الفاسد ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ومتى تخلت هذه الأمة عن القيام بهذا الدور فقدت أهم خصائصها، وأصابها البلاء والانحراف، ودب إليها الوهن، وغضب الله عليها ولعنها، وأصبح حالها كحال بني إسرائيل من قبل ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ، كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

وقد قام العلماء والمصلحون على مدار التاريخ الإسلامي بالوقوف في وجه ضلال الحكام والأغنياء والأقوياء وانحرافهم قبل تقويم انحراف المحكومين والفقراء والضعفاء.

وقد هبت علينا اليوم رياح الغرب العاتية التي تريد تدمير البقية الباقية من هذا الأصل، فجاء دعاتهم يقولون: مالكم وللآخرين؟ إنهم أحرار فيما يفعلونه ويتركونه مالم يضروا غيرهم، ودائرة الحرية عندهم واسعة جدا، فلا حرج على الناس عندهم فيما يأكلونه ويشربونه ويلبسونه ويعملونه، فظهر الزنا، وتبرجت المرأة، وانتشرت المسرحيات والأفلام التي تعرض العهر والرذيلة، وذبحت القيم والأخلاق باسم الحرية.

ونحن نقول لهؤلاء: إن المجتمع المسلم الذي يحكمه الإسلام ليس حرا فيما يأخذ وما يدع، إذا كان قد رضي بالله ربا ومعبودا، وبدينه نظاما وتشريعا، للأنه لن يكون مسلما مالم يطبق تشريع الخالق، ويلتزم بحدود الإسلام وتعاليمه، وإن خرج عنها خروجا كليا كان كافرا، وإن خرج عنها خروجا جزئيا كان فاسقا أو ظالما.

إن السيادة في المجتمع الإسلامي للشريعة الإسلامية ولا قيمة لآراء الرجال إذا خرجت عن قانون الإسلام وشريعته.

إن القول بأن ما يقره أهل الرأي فينا هو الذي يجب أن يسري ويسود يعد ضلالا كبيرا في حكم الشريعة، وعلى كل فرد في المجتمع

الإسلامي أن يقاوم الباطل الذي يسري في أوصال المجتمع، ولذلك فإننا نقاوم الجاهلية بشتى أشكالها سواء تمثلت في قانون أو نظام أو منهج، إذا خالفت ما أنزله الله في كتابه وسنة رسوله ﷺ، فلا يمكن للمسلم أن يقبل إحلال ما حرمه الله من الخمر والميسر والزنا والتبرج والرقص وغيرها من المفاسد والمنكرات.

المجال الثالث

المجال العالمي

المجال الثالث للصراع الذي ينبغي أن يخوض المسلم غماره، مقاومة الشر في العالم كله، فالإسلام دين عالمي أنزل للبشرية جميعا، ورسول الإسلام رسول عالمي أرسل للعالم كله، ومهمة المسلم مهمة عالمية، لايمكن أن تحد بحدود أو تقيد بقيود.

إن مجال دعوة المسلم هو الجنس الإنساني أينما وجد، على اختلاف أجناس البشر وألوانهم ولغاتهم.

إن علينا أن نقر الحق ونحارب الباطل في شتى أقطار المعمورة، تلك مهمة إلهية ربانية، ليس لنا خيار في أن ندعها ما دمنا ندَّعي الإسلام، ونأخذ به، وأعظم الباطل الذي يجب أن نحاربه في جنبات الأرض هو الكفر بالله والشرك به، ولذلك فإن أصحاب السلطان الذين ينازعون الله في حكمه، وأصحاب الدعوات الضالة التي تؤله البشر أو الشجر والحجر والحيوان أعداء لنا، وعلينا أن نقاوم هذا الضلال الذي عشش في عقول البشر.

صحيح أننا لا نُكره الناس على اعتناق الإسلام تحقيقا لما نص الحق عليه في قوله: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ولكننا نحارب المبادئ

الظالمة، والنظم الكافرة، والطواغيت الذين يستعبدون البشر، لجعل شريعة الله هي المسيطرة في الأرض، ثم نترك للناس بعد ذلك الخيار في البقاء على ما هم فيه من ضلال أو انتقال إلى الحق الذي جاء من عند الله.

إننا عندما ننطلق في هذا العالم الرحب مبلغين دعوة الله، فنزيل من طريق الدعاة كل من وقف حائلا دون البلاغ لانكون ظالمين، ولا مستبدين، لأن الإسلام صوت الله ونوره الذي يجب أن يصل إلى الناس جميعا.

وقد فقه هذا الرعيل الأول فحطموا كل السدود التي أقامها أصحاب المبادئ الضالة كي يحولوا بها دون بلوغ الحق إلى العالمين، لقد حطموا دولا كبرى أبى حكامها إلا الوقوف في وجه الحق.

ثم إن العقل السويّ يقرر بوضوح أنه ليس من حق أي نظام غير دين الله أن يسود في أي جزء من العالم، لأن هذه الأرض ملك لله، والبشر عبيده، فيجب أن يكون القانون العام الذي يحكم المجتمع الإنساني هو قانون الله.

إن رجال القانون الوضعي يقرون بأن القانون يجب أن يوضع من جهة عليا لها الحق في إصداره ووضعه، وخالق الوجود ورب الكائنات هو أعلى سلطة في هذا الكون يأبى كل الإباء أن يصدر البشر القوانين التي تشكل إطارا يحكم حياة البشر، ويجعل ممارسة البشر لهذه القوانين اعتداء على ألوهيته وحاكميته.

وقد كلف الله الأمة الإسلامية ببذل كل الجهود الممكنة التي تكفل بأن تعلي كلمة الله في مختلف بقاع الأرض، وقد وضع لهذه الأمة منهجا عليها أن تسلكه لتحقيق مراد الله، يبدأ هذا المنهج بدعوة الأمم إلى الله ودينه وشرعه وينتهي بالحرب والقتال.

أنا أعلم أن قبل مصارعة الأمم الكافرة على مستوى العالم مراحل كثيرة من بناء الفرد والأمة، وإقامة الدولة وإعداد العدة، وغير ذلك، ولكنني في موضع بيان مجالات الصراع أو دوائر الصراع بين الخير والشر في حياة المسلم، ولاشك أن المجال العالمي هو أوسع هذه الميادين، وأكثرها كلفة، وأبعدها خطرا، والأمة الإسلامية بمجموعها مكلفة بهذه المهمة.

والحمد لله رب العالمين.

المحاضرة السادسة

منهج الإسلام في تزكية النفس

تقديم

الحمد لله الذي هدانا للإسلام العظيم، وأكرمنا بأنواره الهادية، فزكى بدينه القلوب، وأضاء بأنواره النفوس، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، ليتلوا علينا آيات ربنا ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة، فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى صحبه الأخيار وآله الأبرار، ومن تبعهم على إثرهم بإحسان، وبعد:

فإن خير ما تتوجه إليه الهمم العالية والنفوس الكريمة هو تهذيب الأرواح وتزكيتها، تخليصا لها من قاذورات الشرك والذنوب والمعاصي، وإمدادا لها بما يباركها ويطهرها من العلوم والأقوال والأعمال.

وهذه مهمة كبرى تناط بأصحاب التوجيه والإصلاح، وأول من أخذ بهذا المهم نفسه هم الرسل فزكوا أنفسهم بدين الله أعظم تزكية.

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]، ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ [الشمس: ٩].

وقد شهد الله لرسله وأنبيائه أنهم القمم السامقة الذين حققوا مراد الله من عباده.

وقامت الرسل أيضا بتزكية غيرهم تحقيقا لما أمرهم الله به، وقياما بالمهمة التي أرسلوا بها ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣]، ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٥١]، ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وإذا كانت تزكية النفوس من أعظم مهمات الرسل، فإنَّها المهم الذي يجب أن يُعْنَى به كل مسلم، وخاصة المربون والدعاة والمعلمون.

فإن النفوس المزكاة يصلح حالها وقالها وعملها، ومهما حاولنا أن نصلح النفوس الخبيثة فإنه الإصلاح الظاهري الذي يعالج من الجسم اصفراره وهزاله من غير أن يعلم سر الداء وأساس البلاء، ولو عولج المرض الذي في الأعماق لزالت تلك الآثار الظاهرة.

وقد رأينا كيف يتحول أصحاب الشر والفساد إلى أخيار صلحاء عندما يحل الإيمان في نفوسهم، فتزكو به منهم الأرواح والقلوب.

إن المحاولات المضنية في الإصلاح في بلاد المسلمين يذهب أكثرها هدرا، لأن المصلحين لم يعرفوا سبيل الإصلاح.

إن الصلاح الإنساني ينبع من أعماق الإنسان من نفسه التي بين جنبيه، فإذا زكت بالإيمان وأنوار القرآن، وتطهرت بالقول الطيب والعمل الصالح صلحت واستقامت.

وهذا كتيب صغير أصله محاضرة ألقيت في واحد من المؤتمرات الإسلامية التي دعيت إليها، عرضت في هذا الكتاب في مبحثه الأول لأهمية تزكية النفوس، وبينت في المبحث الثاني تفرد المنهج الإسلامي في مجال التزكية، وفي المبحث الثالث أشرت إلى معالم المنهج الإسلامي الذي يزكي النفوس ويصلحها.

نسأل الله أن يؤتي نفوسنا تقواها، ويزكيها هو خير من زكاها، هو وليها ومولاها.

المبحث الأول

أهمية تزكية النفوس

أرسل الله رسله وأنزل كتبه ليقوم العباد بتزكية أنفسهم وإصلاحها، ويتحقق ذلك بأن يقوم العباد بواجب العبودية لله رب العالمين.

وتزكية العباد نفوسهم تبقي هذه النفوس نقّية طيبة مستنيرة، كما أنّ إهمال النفس ومخالطة الفساد لها يقذرها ويفسدها ويخبثها.

ومن رحمة الله بنا أن النفوس القذرة المتعفنة لا تفوح روائح قذرها وعفنها، وإلا لما استطاع العباد أن يجالس بعضهم بعضا، ويخالط بعضهم بعضا، وقد أحسن الشاعر حيث يقول:

قد أحسن الله بنا ... أنّ الخطايا لا تفوح

إلا أن هذا المستور يتبدى إذا غادر الإنسان الحياة، ودخل العالم الأخروي فإن الأرواح الزاكية يفوح شذاها، وينتشر عطرها، فقد أخبرنا الرسول ﷺ أن روح العبد المؤمن عندما تقبض يخرج منها مثل أحسن نفحة مسك وجدت، ولا يُمرّ بمثل تلك الروح على ملأ من الملائكة إلا قالوا روح من هذه الروح الطيبة الطاهرة فيقال: روح فلان بن فلان بأحسن أسمائه وأحبها إلى صاحب تلك الروح.

أمّا الأرواح المدساة التي قذرها أصحابها في الدنيا وخبثوها بالذنوب والمعاصي فتفوح منها الروائح الخبيثة عند قبضها، وتتأذى الملائكة التي تحضر لقبضها من نتنها، كما يتأذى كل من تمرُّ به تلك الأرواح من الملائكة.

أما عندما يبعث الله عباده فإن ظهور فساد الأرواح وصلاحها يكون أظهر وأبين، فالروائح تنبعث من أرواح العباد دالة على طيب تلك

الأرواح أو فسادها، ويلقي ذلك الصلاح أو الفساد ظلاله على وجوه أصحابه وأجسادهم، فوجوه أصحاب النفوس المؤمنة الزكية مشرقة منيرة، ووجوه أصحاب النفوس الخبيثة مسودة مظلمة ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠]. ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ، وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦-١٠٧] ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ، إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ، وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ، تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٥].

وقد يظهر لأهل الدنيا قبل الآخرة طيب الأرواح وفسادها، فبعض الذين يرتقون في سلّم العبودية لله قد تفوح منهم الروائح الطيبة وإن لم يمسوا طيبا، كما كان حال رسول الله ﷺ، وقد تواتر انبعاث الروائح العطرة من أجساد الشهداء عند استشهادهم، وانبعاث هذه الروائح من قبورهم بعد دفنهم، وقد حصل مثل هذا لغير الشهداء، فقد وجدت طيب الروائح من قبور بعض علماء أهل السنة، كما وجدت الروائح الخبيثة من الخبثاء الذين ضلوا وأضلوا وأغرقوا في البدعة والفساد، وبلغ الحال ببعضهم أن أولياءهم لم يستطيعوا غسلهم ودفنهم لشدة نتن روائحهم مع قرب العهد بوفاتهم.

ومن أوتي بصيرة في دينه يري آثار الذنوب والمعاصي ترتسم على وجوه المجرمين وقسماتهم دالة على خبث صوتهم وفساد فعلهم، أما الآثار التي تتبدى على وجوه الأتقياء فأظهر من أن تذكر، إنها آثار ترسم الطمأنينة والجمال والنور في وجوه أصحابها.

أما مظاهرها في الآخرة فنفوس راضية، ووجوه مستنيرة، وأنوار تسطع يسيرون فيها حتى يجوزون الصراط ويدخلون الجنة.

وقد جاءَت هذه الشريعة المباركة مصرحة للعباد بمنهج التزكية ومنهج التدسية، فقد صرحت نصوص الكتاب وأحاديث الرسول ﷺ أن اعتقاداتنا وعلمنا وأعمالنا تؤثر في نفوسنا تأثيراً كبيراً، فهي إما أن تزكيها أو تدسيها.

جاء في الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن حذيفة بن اليمان أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا، فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى يصير على قلبين، أبيض بمثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض والآخر أسودا مِرْبَادا كالكوز مُجَخِّيًا، لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه ».

ومصداق هذا في كتاب الله قوله تعالى: ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤]، فالاعتقادات التي نعتقدها، والأعمال التي نعملها لها تأثير كبير في نفوسنا، ويصل هذا التأثير إلى درجة تميت أو تمرض القلب الذي جعله الله محل العقل والتدبير والسكينة والإيمان والرأفة والرحمة والإنابة، كما قال تعالى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤]، ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح: ٤]، ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤]، ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ﴾ [الحديد: ٢٧]، ﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٣٣].

نعم قد تصبح القلوب مريضة أو ميتة، بحيث لا تستطيع أن تقوم بالدور الذي خلقت لأجله، فالقلب السليم الخالي من الأمراض يتصف بصفتين: الأولى: الحياة، والثانية: الاستنارة، ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وهذا القلب الحي المستنير هو القلب السليم، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ، إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٧ ـ ٨٩] وقال الحق في مرضى القلوب ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: ١٠]، وقد يشتدُّ المرض فيصاب القلب بالعمى إذا فقد النور القرآني: ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]، وعند ذلك لا ينتفع العبد بما يؤمر به من خير، وما يحذر منه ـ من شرّ، ويصبح أصم ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ [الأنعام: ٣٩]، ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وهذا في مفهوم القرآن يعني موت القلب، فإن الله خلق القلب ليتفقه ويعتبر ويتدبر، ويحب الخير ويأمر به، ويكره الشر وينفر منه، فإذا انعكست أحواله ولم يقم بالوظيفة التي خلق من أجلها كان ذلك موتا في مفهوم القرآن.

ولما كان للمعتقدات والأعمال التي نعملها هذا التأثير في نفوسنا أمرنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ بإصلاح هذه النفوس، والمجاهدة في سبيل ذلك، وإصلاح النفوس في المفهوم القرآني يسمى « التزكية » وإفسادها يسمى التدسية.

والتزكية في اللغة الطهارة والنماء والبركة[١]، وسمّي المال المقدر الذي أوجب إخراجه من مال العبد زكاة لأنه ينمي المال ويباركه، كما يزكي نفس مخرجه ويطهرها.

وتزكية النفس ـ في الشرع ـ بتطهيرها من الفساد الذي يخالط النفوس، وتنميتها بالخيرات والبركات، ويتحقق ذلك كله بفعل الخيرات

---

(١) النهاية لابن الأثير: ٢/٣٠٧.

وترك المنكرات والإيمان بالله.

والنفس الزكية التي تطهرت وفق شرع الله هي النفس الطيبة التي تستحق في الدنيا الأوصاف المحمودة، وفي الآخرة الأجر والمثوبة.

وتطلق التدسية في مقابل التزكية، ويراد بها تخبيث النفس وتقذيرها وإفسادها بالذنوب والمعاصي.

وقد أعلن القرآن أكثر من مرة أن الفلاح الإنساني مرهون بتزكية المرء نفسه، وأن الخيبة والخسران مرهونة بتدسية المرء نفسه، وقد أقسم الحق على هذه الحقيقة أقساما سبعة مما يدل على خطورتها، فقال: ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا، وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا، وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا، وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا، وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ١ ـ ١٠]. وفي موضع آخر قال: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥].

وقال الحق لموسى عندما أرسله إلى فرعون: ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ، فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ، وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ [النازعات: ١٧ ـ ١٩].

وإذا كان الإسلام قد أمر بتزكية النفس وإصلاحها ـ فإنه أيضا جاء بالمنهج الذي يتم به الإصلاح والتزكية، يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ في وصف الكتاب الذي أنزله ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢]، فقد وصف الله ـ تبارك وتعالى ـ هذا الموحى به بوصفين: الأول: أنه روح، والثاني: أنه نور. وبالروح تكون الحياة، وبالنور تكشف الظلمات، ولذلك قال الحق فيمن هداه بكتابه ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فالإنسان قبل أن يهتدي بهدي الإسلام يكون ميتا، فإذا جاءَه الحق فإنه يحيى قلبه، فالقرآن بمثابة الروح لأرواحنا، وكما أنه روح هو نور أيضا، نعرف به الحق من الباطل والخير من الشر.

ووصف الحق القرآن أيضا بأنّه شفاء لأمراض القلوب، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، ﴿قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

والأمراض التي تصيب القلوب نوعان:

الأول: أمراض شبهات، فكثير من الناس تصيبه شبهة تتعلق بأصل من أصول الدين أو فروعه، وفي القرآن كشف لهذه الشبهات لمن رُزِق فهم في كتاب الله، فالقرآن بما فيه من علم يشفي من أمراض الشبهات، وهذه الشبهات إذا استقرت في القلب أفسدت تصوره.

والنوع الثاني: أمراض شهوات، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]. أي مرض الشهوة، وشفاء هذا النوع من الأمراض بالانتقاع بما في القرآن من المواعظ والتبشير والإنذار.

وهذا النوعان من الأمراض أعني أمراض الشبهات وأمراض الشهوات أصل فساد العبد وشقائه في معاشه ومعاده، كما أن أصل سعادته وفلاحه في معاشه ومعاده تصديق الرسول ﷺ فيما جاء به من عند ربه، وطاعته فيما أمر، والانتهاء عما نهى عنه وزجر.

والسر وراء ذلك أن العبد له قوتان:

الأولى: قوة الإدراك والنظر، يدرك العبد بهذه القوة ما جاءَه من عند الله، فيعلم بها ما علمه الله ورسوله، ويزيل بها الشبهات التي تثور من النفس وتلقيها شياطين الجن والإنس فإذا خالطت مثل هذه الشبهات

النفوس أفسدت القوة العلمية النظرية، ما لم يداوها صاحبها بالعلم الإلهي الذي يدفع هذا الفساد.

والقوة الثانية: هي قوة الإرادة والحب، وما يتبعه من النية والعزم والعمل، وهذه الإرادة يخالطها الهوى والشهوات، فتحرف مسار العبد، وتثبط من عزمه، وتوجه همه إلى غير الغاية التي ينبغي أن يسعى إليها، وكي يستقيم المرء على الحق ويخلص قصده ونيته يحتاج إلى مجاهدة نفسه بدفع الشهوات التي تحول بين العبد وبين كمال طاعة الله.

ويفسد هذه القوة الشبهات التي تثيرها النفس، أو يلقيها شياطين الجن والإنس، فإذا لم يسارع العبد إلى علاج ما ألم به من مرض الشبهات، أفسدت تلك الشبهات نفسه وقلبه وعقله.

وبالقوة الثانية قوة الإرادة والحب يكون التوجه والعمل، وتفسد هذه القوة أمراض الشهوات، فالنفوس بها ميل إلى ما تحبه من المناهج والمناكح والمناصب والأموال، فإذا لم يلجم العبد نفسه بلجام التقوى، ويمسك زمامها عما تحبه إذا كان الله لا يرضاه ـ زلت قدمه، وفسدت نيته، وضلت غايته، وعند ذلك يصبح محبا للشر راغبا فيه، مبغضا للخير نافرا منه، ولذلك كانت الاستجابة لله وللرسول هي السبيل الوحيد لإصلاح النفوس وتزكيتها[1] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [**الأنفال**: ٢٤].

---

(١) أحب أن أوجه عناية القارئ إلى الفرق بين التزكية بالفعل والتزكية بالقول، فالتزكية بالفعل ممدوح فاعلها، وتتحقق بتطهير النفس ومباركتها بالإيمان والعمل الصالح، وهذا النوع من التزكية هو الذي تكلمنا عليه وبينا منهج الإسلام فيه.
والنوع الثاني: التزكية بالقول تكون بمدح الإنسان نفسه وتوثيقها، وتحدثه عن صلاحه وتقاه، وهذا مذموم، قال تعالى: ﴿ولا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾. وقال: ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء﴾.

المبحث الثاني

معالم المنهج الإسلامي في إصلاح النفوس البشرية

لقد حاول البشر في القديم والحديث أن يضعوا مناهج لتقويم النفس الإنسانية، والذين أنزلت إليهم شرائع من عند الله حرفوا منهج الله في هذا السبيل، لقد عذَّب أقوام الجسد لإصلاح النفس، وخاضوا تجارب مضنية ومجاهدات شاقة للسمو بالأرواح، وأغرق آخرون في العب من الشهوات والجري وراء أهواء النفوس.

ويبقى المنهج الإسلامي في هذا الصدد هو المنهج الذي يصلح النفوس ويزكيها، وغيره من المناهج سراب إذا جاءَه من يعاني جوعة في الروح وظمأً في القلب لا يجده شيئا.

إن منهج التصوف ومنهج التفلسف ومنهج المجاهدات البوذية وغيرها لم تحقق للبشرية في هذا المجال شيئا يذكر، وكثير مما سطر في علم النفس الحديث من نظريات ومناهج إنما هي أفكار تتصارع ونظريات تتضارب، وإذا تأمل فيها المسلم المهتدي بهدي الكتاب والسنة، وجدها لا تسمن ولا تغني من جوع.

ويبقى منهج الإسلام الذي وضعه رب العزة لإصلاح النفوس البشرية منهجا فريدا بين المناهج البشرية، وإذا وفق العباد إلى الأخذ به كانت ثماره طيبة خيرة.

وسأحاول أن أتناول باختصار معالم هذا المنهج، وكان استمدادنا لهذه المعالم من جملة النصوص التي اطلعنا عليها.

١ ـ يكشف القرآن والسنة للعبادَ عن حقيقة السعادة العظمى التي يجد العبد في أكنافها الطمأنينة والسكينة والهدوء والراحة، فيندفع إلى تحقيق ما يطلبه ربُّه منه بقوة وعزم على الرغم مما يجده في طريقه من صعاب وعقبات.

وقد أعلمنا ربنا أن تزكية النفوس بهدي الله ونور كتابه والاستقامة

على ذلك هو الذي يجعل العبد يحصل السعادة في الدنيا والآخرة، قد يظن بعض الناس أن السعادة في الدنيا تتحقق إذا تمتع العبد بأنواع المآكل والمشارب والملابس، وحصل على المال والجاه والسلطان، وتزوج بالجميلات من ذوات الأحساب والأنساب، ومن تفكر في حال هؤلاء تفكر مبصر معتبر علم أن ما حصلوه يشاركهم فيه البهائم، بل قد يكون حظ البهائم من أنواع اللذات أعظم من حظوظ البشر منها.

إن النعيم الأكبر الذي يمكن أن يحوزه العبد في دنياه ينبع من القلب الذي خالطته بشاشة الإيمان، فإذا ما استولى الإيمان على القلب وجد حقيقة النعيم الذي اشتغل عنه الغافلون بمتاع الدنيا، فكانوا كمن سلا عن الذهب بالتراب، ورضي عن سكنى القصور بسكنى القبور.

إن الذين حصلوا حلاوة النعيم الإيماني، شغلهم هذا النعيم عن الأهل والأوطان والأموال، بل تراهم يبذلون أنفسهم وأموالهم وأولادهم في سبيل من أحبته قلوبهم وترى الواحد منهم يغرس الرمح في صدره فيقول فزت ورب الكعبة، ويستطيل الآخر حياته، فيلقي قوته من يده، ويهرول إلى العدو منشدا مستعجلا الوصول إلى الجنّة:

ركضا إلى الله بغير زاد ... إلا التقى وعمل المعاد

والصبر على الله في الجهاد

ويقول من أدرك حلاوة الإيمان من العارفين بالله: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف.

ويقول الآخر: إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيه طربا.

ويقول آخر: إنه لتمر بي أوقات أقول فيها إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب.

وقد تكلم ابن القيم بكلام قيم في معنى قول الرسول ﷺ « إني

لست كهيئتكم، إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني ».

فقد فسر الإطعام والإسقاء في الحديث بما يفيض على روحه ﷺ من أنواع البهجة واللذة والنعيم الذي كان رسول الله ﷺ في الذروة العليا منه.

وغلّط ابن القيم من ادعى أن الإسقاء والإطعام في الحديث حقيقيان إذ لا فارق في هذه الحال بينه وبين أصحابه إذا كان يشاركهم بالمآكل والمشارب.

وقد نبه ابن القيم في هذا المقام إلى أن غالب الناس متى حصل لقلوبهم ما يفرحهم ويسرهم بنيل مطلوبهم، أو ما يسوؤهم ويحزنهم لفوات مطلوبهم شغلوا بذلك عن الطعام والشراب، حتى أن بعض العشاق تمر به الأيام لا يأكل شيئا، ولا تطلب نفسه أكلا. وما أحسن ما قاله الشاعر:

لها أحاديث من ذكراك تشغلها عن الشراب وتلهيها عن الزاد
لها بوجهك نور يستضاء به ومن حديثك في أعقابها حادي
إذا شكت من كلال السير أو عدها روح القدوم فتحيا عند ميعاد[1]

٢ـ قطع مادة الفساد التي تفسد القلوب والعقول، ومن هنا أُمِرنا بالاستعاذة من الشيطان الذي يحاول جهده إفساد نفس الإنسان بوساوسه وترهاته ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣]، أي تحركهم إلى الشر تحريكا.

وأمرنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بالتعوذ بالله من الشيطان كي نمنع فساده أن يصل إلى قلوبنا ونفوسنا ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ، وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ

(١) راجع مفتاح دار السعادة لابن القيم: ١/ ٣٥ .

أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، مَلِكِ النَّاسِ، إِلَهِ النَّاسِ، مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ، الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: ١-٥].

وخير ما يبعد الشيطان ويبطل كيده، قراءة القرآن وخاصة آية الكرسي والمعوذتين، فقد أخبرنا الرسول ﷺ أن من قرأ آية الكرسي في المساء لم يقربه شيطان حتى يصبح، ومن قرأها في الصباح لم يقربه شيطان حتى يمسي، وذكر الله حصن حصين من الشيطان.

واستقامة الإنسان على طاعة الرحمن شأنها أن تقي العبد من الشيطان ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، فإذا ألم بهم عارض من الشيطان سرعان ما تدركهم عناية الرحمن فتبطل كيده وتزيل مكره ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وقطع مادة الفساد يلزم بعصيان النفس الأمارة بالسوء، التي تدعو صاحبها إلى المعصية والانحراف عن الصراط المستقيم، وعلى العبد أن يخالف أهل الشرك والذنوب والمعاصي فلا يطيع أمرهم، ولا يكثر من مخالطتهم إلا إذا كان داعيا لهم إلى الإسلام وطاعة الرحمن، فإن الإكثار من مخالطتهم يفسد على الإنسان قلبه.

ومن هنا جاء الأمر بالهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام، وجاء النهي عن مخالطة أهل المعاصي والذنوب.

٣- إن أساس التزكية في الإسلام يقوم على توحيد الخالق علما وعملا، والإسلام يجعل توحيد الخالق المحور الذي ينبغي أن يدور الإنسان حوله في قلبه ومشاعره وعمله، وبذلك تتوحد الهموم عند الإنسان وتصبح هما واحداً، وتتوحد الغايات وتصبح غاية واحدة، ويتلاقى العلم والعمل في توائم كامل، فلا تناقض، ولا تضارب، ولا تعارض وهذا يعني أن فهم الإنسان وعقيدته وعلمه وقصده ونشاطه الإنساني متفقة

في منظومة واحدة.

ومن خبر الحياة يعلم مدى الضنى والضيق الذي يصيب الإنسان إذا ما تعارضت في نفسه العلوم والأهداف، وتناقض منه التصرفات، إن توحيد الخالق في حياة المسلم يوحد الهدف والغاية ويحدد المسار في توافق فذ عجيب، وقد سبق بيان هذا المعنى في المحاضرة الأولى «التوحيد محور الحياة».

٤ ـ **ويطالب الإسلام أتباعه بتجديد إيمانهم دائما،** ذلك أن الإيمان يَخْلَقُ كما يخلق الثوب، وقد كان الصحابي يأخذ بيد الصحابي فيقول له: تعال نؤمن ساعة، فيجلسان فيذكران الله.

وقد أفادتنا النصوص القرآنية والأحاديث النبوية بأن الإيمان يزيد وينقص، وهذه المعلومة ترشدنا إلى بذل الجهد في سبيل زيادة الإيمان، والحذر المستمر من نقصانه وضموره.

ومن علامات ضمور الإيمان قسوة القلب، وقد كان الصالحون يبادرون إلى أهل العلم إذا قست منهم القلوب، كي ترق قلوبهم بما يسمعونه من عظات، وما يتلونه من آيات.

ومن أعظم ما يحفظ العباد صدق التوجه إلى الله، والالتجاء إليه ليديم علينا نعمة الإيمان، وتأمل في فاتحة الكتاب كيف يدعو العبد ربه ـ كلما رددها ـ طالبا الهداية: ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾ [**الفاتحة**: ٦].

إن الالتجاء إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ يبارك النفوس ويزكيها: «اللّهم آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها».

ويؤكد ضرورة الالتجاء إلى الله في هذا المطلب طبيعة القلوب التي لا تستقر على حال، بل هي دائمة التقلب والتحول. وقد كان الرسول ﷺ يدعو فيقول: « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ».

ويدعو فيقول: « اللهم اجعل في قلبي نورا » وكثيراً ما كان يحلف فيقول: « لا ومقلب القلوب » ويبن طبيعة القلوب في كثرة تغليب الله لها فيقول: « القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء».

إن شجرة الإيمان في القلب كشجرة طيبة في أرض طيبة، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤] والشجرة لا يبقى وجودها، ولا يستمر بقاؤها إلا بماء وغذاء، فإن قطع عنها الماء والغذاء سرى إليها الفساد، وكذلك الإيمان في القلوب إذا لم يمده صاحبه بما ينميه ويقويه من تلاوة آيات الكتاب، وذكر الله، ودعائه، وعبادته والتفكير في آلائه ضمر الإيمان وذبل، والله المستعان.

٥ ـ ولا شك أن أعظم ما ينمي الإيمان العلم والمعرفة، وقمة العلم والمعرفة العلم بالله ومعرفته، والسبيل الأعظم لتحقيق ذلك فقه النصوص التي حدثنا الله فيها عن نفسه، أو حدثنا فيها عنه رسوله، وحسبك أن تعلم بأن النصوص القرآنية المتحدثة عن الله وصفاته أفضل آيات الكتاب، فسورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] تعدل ثلث القرآن، وآية الكرسي أعظم أية في كتاب الله، وقد أرشدنا الحق إلى طريق آخر ينمي الإيمان ويجدده ألا وهو التفكر في مخلوقات الله وآياته ونعمه التي حبانا بها، فإن الكون صنعه الخالق، وفي كل شيء من خلقه له آية تدل على وحدانيته.

٦ـ ومما يزكي النفوس أن يكثر العبد من ذكر نعم الله التي حباه بها ربّه، فإن تذكر النعم يوجه النفوس إلى خالقها، ويعلقها به، فإنَّ الذي يغفل عن ذكر النعم يتعاظم في نفسه، وقد يدلُّ على الناس وعلى رب الناس بماله وجاهه وفطنته وذكائه، بل قد يدل بعبادته واستقامته، ولا يخلصه من ذلك إلا علمه بأنَّ كل ما به من صحة وعافية، وخلق

حسن، وعلم وفهم من الله وحده، فوجوده كله من الله، وحياته كلها بالله، وما تملكه كله من الله، ومصيره إلى الله وحده، والله قادر على أن يسلب العبد وجوده، ويسلبه ما أعطاه.

ولا يعرف العبد هذه المعاني إلا إذا عرف ربّه تبارك وتعالى، وعرف كماله وبره وغناه وجوده وإحسانه ورحمته، وأن الخير في يديه، وأنه مالك الملك، يؤتي منه من يشاء، ويمنع منه من يشاء، فهو سبحانه المحمود في السراء والضراء، والبؤس والرخاء.

وهذا يدعوه إلى أن يعرف نفسه وعجزها وتقصيرها وحاجتها إلى ربها ومعبودها فإذا شهد هذا المشهد ازداد علماً بالله وعظيم نعمه عليه.

٧ ـ والعلم وتذكر النعم لا يكفي في إصلاح النفوس وتقويمها، بل لا بدّ أن يصاحب العلم العمل، وعلم بلا عمل كشجر بلا ثمر، وقد سبق أن بينا تأثير الأعمال في إصلاح النفوس وتزكيتها أو تخبيثها تدسيتها.

٨ـ ويجب أن يركز في الأعمال على الواجبات، فلا يضيع المسلم فرضا من أجل سنة، كما أنه لا يجوز أن يرتكب محذورا خشية الوقوع في أمر مكروه.

وقد جلى لنا ربنا هذه القاعدة وبينها، ففي الحديث القدسي يقول الحق تبارك وتعالى: « من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بأحب إليَّ مما افترضته عليه، ولا يزال يتقرب إليَّ عبدي بالنوافل حتى أحبه » فالحديث يقرر أن خير ما يتقرب به المتقربون إلى الله فعل الفرائض التي فرضها، وفي النوافل مجال واسع رحب لمن أراد أن يصل إلى مراتب عالية عند الله ـ تبارك وتعالى ـ، فإذا تعارض الواجب والمستحب، فالواجب مقدم على غيره.

والتركيز على أعمال القلوب مقدم على أعمال الجوارح، ذلك أن القلوب هي محل الفقه والتدبر والعلم، والقلب مع الجسد كالملك مع

الرعية، فالقلب هو الملك والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طابت الجنود، وإذا خبث الملك خبثت الجنود.

وفي الحديث: « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب ».

وأعمال القلوب طاعات كحب الله ورسوله، والتوكل على الله، والاعتماد عليه، وإخلاص الدين له، والرضا به ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا، والصبر على الأذى فيه.

وتكون كفرا وذنوبا كبيرة أو صغيرة كاعتقاد المرء بألوهية غير الله، وقصد غيره بالعبادة، والتوكل على الأنداد والأصنام، ومحبة الأنداد والخوف منها، وينبغي الاعتناء بأعمال القلوب، لأنها في غاية الأهمية، فهي الركيزة القوية التي تقيم المرء في دين الله، فبمقدار إخلاص العبد لربه، وحبه له، ورضاه به وبرسوله ودينه - يكون ثباته وقوته في دين الله - تبارك وتعالى -، ومتى ضعف ذلك كله فإن الإنسان لا يستطيع أن يثبت للعواصف والمحن التي يبتلى بها.

٩- ومن أهم أعمال القلوب التي يجب العناية بها قصد المرء ونيته، ففي الحديث: « إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل إمرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو إمرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه ».

١٠ - ولما كان الإنسان قلما يستقيم على المنهج والطريق، فإن الله يأمره بأن يصلح من أمره ما أفسد، ويتحقق ذلك بالتوبة والعمل الصالح، فإن المرء إذا دسى نفسه بالذنوب والمعاصي فعليه أن يعاجل بإصلاح ما أفسد قبل أن يتكاثر عليه الأمر فيغرق، ولا ينفع بعد ذلك إصلاح، إمّا بسبب حضور الأجل، وإما لأن القلب غشاه الران، وأحاطت به الخطيئة، فلا يوفق للتوبة، ولا يصل إلى القلب شعاع من نور ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم

مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤].

والتوبة تمحو الخطايا، وتغسل الأدران، وتصلح من الإنسان ما فسد، والأعمال الصالحة تمحو الذنوب والخطايا ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وفي الحديث: «إن الإسلام يجب ما قبله، وإن الهجرة تجب ما قبلها».

١١ ـ وإذا كانت النفس عصية تأبى الانقياد فعليه أن يذكرها الموت والقبر والبعث والنشور والجنة والنار، ذلك أن القلب إذا تذكر الأهوال والعقبات التي سيمرُّ بها في الموت وما بعده لأن وصلح أمره وتداعى إلى تدارك ما فات، والزهد في الدنيا، والانشغال بأعمال الآخرة.

وقد حدثنا كتاب ربنا كما حدثنا رسولنا ﷺ عن الموت وسكراته، والقبر وآفاته وفتنته، وكيف يكون روضة من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النار، وحدثنا عن فناء هذا الكون حيث تخسف شمسه، ويكسف قمره، وينفرط عقد نجومه، وتدك الأرض والجبال، وتسجر البحار، وغير ذلك من الأهوال العظام، ثم يقوم الناس لرب العالمين، عندما ينفخ في الصور النفخة الثانية، حيث يحشرون حفاة عراة غرلا بهما، يجمع الله الأولين والآخرين، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، يقع فيه للعباد من الأهوال ما يجعل الناس سكارى، وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، وتنصب الموازين للحساب، ويساق الناس بعد ذلك إلى نار لا يخبو سعيرها، ولا يرجو أهلها الخروج منها، أو إلى جنة الخلد التي وعد المتقون، أكلها دائم وظلها، شبابها دائم، وخيرها عميم، وأفراحها متصلة ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا ، إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦] ولذلك يحسن بالمسلم أن يقرأ كثيرا فيما حدثنا الله به عن اليوم الآخر فإنه يزكي القلوب ويدفعها إلى فعل الخيرات، وترك المنكرات، وتقوية الصلة بالله .

وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين.

المحاضرة السابعة

أسلمة التعليم في ديار المسلمين

تقديم

أهمية هذا الموضوع وخطورته:

الحمدلله الذي رفع درجات من اختارهم واصطفاهم بالعلم والإيمان، وجعل العلم طريقاً إلى رضوانه وجنته، والصلاة والسلام على أعلم الناس بربه ودينه، الذي بعثه للعالمين معلماً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وعلى آله وصحبه الذين ارتقوا بالعلم الذي جاءهم من عند الله، فكانوا أغزر هذه الأمة علماً، وأكثرها فقهاً، وخيرها عملاً، وأقلها تكلفاً، وعلى من سلك سبيلهم، وسار على طريقهم إلى يوم الدين، وبعد:

فإن أحد المهمات الكبار التي يجب أن يُسعى إلى تحقيقها إعادة التعليم في ديار الإسلام إلى حظيرة الإسلام، بعد أن أبعد عنها دهراً طويلاً، ويتحقق ذلك بأن تجعل جميع العلوم في الديار الإسلامية محكومة بالإسلام في منطلقاتها وأهدافها، وأن يجعل الإسلام بنظمه وضوابطه إطاراً لهذه العلوم، وتكون العقيدة الإسلامية القاعدة التي تشكل منهجاً يحكم العلوم كلها.

وقد كانت العلوم والمعارف عبر التاريخ الإسلامي مصتبغة بالإسلام ومنضبطه في إطاره، ولم يحس المسلمون بفجوة بين العلم والدين توجب مصالحة واحداً منهما ومعاداة الآخر، فكان علماء الشريعة في كثير من الأحيان هم الأطباء والمهندسين وعلماء الهيئة؛ وقد تعمق العلماء المسلمون في مختلف العصور في جميع العلوم التي أباح الشارع أو حبَّب أو أوجب تعلمها والنظر فيها وصبغوها بالصبغة الإسلامية،

وقد تعثر هـذا النهج عندما عَزَف كثير من المسلمين في العـصور المتأخرة عن العلم، وخـاصة العلوم التي تبـحث في الكون والحيـاة، بل تقلصت العلوم الشرعية التي تخرج المجتهدين في الديار الإسلامية.

ثم جـاءت الطامـة الكبـرى عندمـا غـزا الكفـار ديارنا، واحـتلوا بلاد المسلمين، وعاثوا فيها فساداً، ومن جملة ما أفسدوه التعليم، فقد حرفوا مساره ووجهوه وجهة لا يرتضيها الإسلام، وخلطوه بالنظرة الغربية التي قطعت صلة العلـم بالله وبدينه المنزل، وفـصلوا العلم الديني - في كـثيـر من ديار المسلمين - عن علوم الحياة.

ونشـأ في ديارنا جيـلان: جيـل تعلَّم علوم الحـياة، واسـتلم مـراكـز التعليم والـتوجيـه والمسئوليـة لا يفقه من الإسـلام إلا قليلاً، وجيـل آخر درس الدين الإسلامي وعُزِل عن حكم الحياة بالإسلام.

وغُرس في نفوس الجيل الأول أن العلم والدين نقـيضان، وأن على الذين يسلـكون مـسلكاً يتـسـم بالعلم والإنصـاف أن يلـقـوا بالدين وراء ظهـورهم، وقُطعت الوشـيـجـة التـي تربط علوم الحـيـاة بخـالق الحـيـاة، ودُرِّست لأبنائنا النظريات التي تناقض عـقيـدة الإسلام وشريعـته، ونأتي اليوم لنقوّم الأمور، ونصحح المسار، وذلك بما نسميه بأسلمة التعليم.

وهذه المحاضرة التي ضـمها هذا الكتاب تهدف إلى التـعريف بالتعليم الإسلامي، وتتـحدث عن المنطلقـات والأهداف والغايات، تتـحدث عن واقع التـعليم في ديار المسلمين، وتـبين السبب الذي أدى إلـى الانفصـام بين العلم والدين، وتعـرض باخـتصـار إلى التحـديات التي تواجـهنا في مجال التعليم، وتبين الأصول التي يقوم عليها العلاج.

معنى التعليم الإسلامي

لا نريد بالتعليم الإسلامي تعليم العلوم الشرعية من التفسير والحديث والفقه وغيرها التي تدرس في المعاهد والكليات التي تعنى بدراسة الشريعة، وكذا دروس التربية الإسلامية التي تدرس في مدارس التعليم العام في المدارس التابعة لوزارات التربية.

وإنما مرادنا صبغ جميع العلوم التي تدرس في المدارس والجامعات في ديار الإسلام بالإسلام، بحيث يقوم التعليم في مختلف فروعه على أصول الإسلام، وتصتبغ العلوم بروح الإسلام وتوجهاته، ثم يكون الإسلام ضابطاً واطاراً للعلوم كلها.

وهذا يقضي إصلاح الخلل الكبير الذي أصاب المنهج التعليمي في ديارنا بحيث أصبح خليطاً من الإسلام وغير الإسلام.

ومرادنا بذلك التمكن من بناء الشخصية الإسلامية السويّة في التصور والاعتقاد، وفي السلوك والعمل وفي العلاقات والقيم والأخلاق.

المنطلق الذي ينبعث منه التعليم الإسلامي

إن لنا ديناً هو الإسلام، وهذا الدين يشكل منهج حياتنا، وللإسلام عقيدة ونظرة إلى الكون والحياة والإنسان، تشكل هذه النظرة تصوراً مستقلاً للوجود ودور الإنسان فيه، وعلاقة الإنسان بالوجود ودوره فيه.

والعلوم التي تبحث في الإنسان وتبحث في الكون لا تكون إسلامية ما لم تبن على عقيدة الإسلام ونظرته إلى الحياة.

إن علوم الغرب مصتبغة بعقيدة كاتبها ونظرتهم إلى الحياة والوجود، وقّل مثل ذلك في العلوم التي تدرس في الديار التي كانت تحكمها الشيوعية، وإذا نظرت إلى علوم اليونان والرومان وجدتها كذلك يقول

(سيبرسي نن) معرفاً التربية كما جاء في دائرة المعارف البريطانية: « هي الجهد الذي يقوم به آباء شعب ومربوه لإنشاء الأجيال القادمة على أساس نظرية الحياة التي يؤمنون بها ».

ويقول (جوفرن) وهو أحد كبار التربية في الديار الروسية [1]: « إن العلم الروسي ليس قسماً من أقسام العلم العالمي، إنه قسم منفصل قائم بذاته، يختلف عن سائر الأقسام كل الاختلاف، فإن سمة العلم السوفيتي الأساسية أنه قائم على فلسفة واضحة متميزة، إن التحقيقات العلمية في حاجة إلى أساس، وإن أساس علومنا الطبيعية الفلسفة المادية التي قدمها (ماركس) و(انجلز)و(لينين) و(ستالين)، إننا نريد أن نخوض - وفي أيدينا هذه الفلسفة - في معترك العلم الطبيعي العالمي، ونصارع جميع التصورات الأجنبية التي تناهض فلسفتنا المادية الماركسية بكل حزم وقوة».

إذن في عالم الغرب يوجد تعليم يقوم على أساس نظرية الحياة التي يؤمنون بها، كما يقول (سيبرسي نن) وفي روسيا تعليم كان يقوم وفق الفلسفة المادية، ونحن نريد أن نأخذ العلوم الطبيعية، ثم نقيمها وفق نظرة الإسلام، أعني على أصول الإسلام وعقيدة الإسلام.

قد يقال: إن علوم الرياضيات، وعلوم الطبيعة علوم محضة، ليس للعقائد دخل بها، فليس هناك علم طب روسي، وآخر فرنسي، وثالث أمريكي، ولذلك نجد الدول تتصارع كي تحصل العلوم والمخترعات التي توصل إليها أعداؤها، وهذا صحيح من ناحية، وخطأ من ناحية أخرى. صحيح إذا نظرنا إلى حقائق العلوم، وغير صحيح إذا نظرنا إلى أن الذين ألفوا هذه العلوم صبغوها بالصبغة التي يعتقدونها.

إن العلوم التي ألفها اليونان اصطبغت بالعقيدة الشركية التي كانت

---

(١) كتب هذا البحث قبل أن يتفكك الاتحاد السوفيتي وتنهار الشيوعية .

تسيطر على عقولهم، وقد كان أفلاطون يعتقد أن هناك آلهة لها شأن في تدبير الكون، وهي قوى متوسطة بين الخالق والمخلوق، وكان يعتقد أن الشر إنما يأتي من هذه الآلهة المتوسطة، وأن الله الذي كان يسميه بالعقل الفعال لا يصدر منه إلا الخير.

وعندما صعد أحد الرواد الشيوعين إلى الفضاء، قال: صعدت إلى أعلى ولم أجد الله، وكل العلوم المبنية على الفلسفة الشيوعية تحاول في منطلقاتها ونتائجها أن تؤكد النظرية الكفرية التي تنكر الخالق والآخرة، وتكذب بالرسل والكتب.

إن مرادنا بالتعليم أن تصبغ جميع العلوم بالعقيدة الإسلامية، فالله هو الخالق لهذا الكون، والكون وحدة تدل على هذا الخالق، والكون كله معبد تتجاوب أصداؤه بالتسبيح لخالقه، ويمكن أن نصل إلى هذه النتائج من خلال دراسة الفيزياء والكيمياء والفلك وغير ذلك من العلوم.

إذن نحن لا نرفض دراسة حقائق العلوم التي توصلت إليها الأمم، وإنما الذي نرفضه إقامة هذه العلوم على أصول وفلسفات تناقض الإسلام بحيث توجه هذه العلوم وجهة تخالف أصول الإسلام، كما تخالف نظرة الإسلام إلى الحياة.

نريد صياغة إسلامية جديدة لهذه العلوم، تجعل هذه العلوم دائرة في فلك الإسلام، بحيث تصتبغ بالإيمان بالله وخشيته والتوجه إليه، ليصبح الإسلام إطاراً لهذه العلوم ومحوراً لها.

وليس ذلك عجباً، فالإسلام دين الله الذي يحكم حياة الإنسان ويوجه نظره في الكون، والكون خلق الله، ولا شك أن كلام الله وأمره لن يناقض العلم الذي قام عليه الكون، بل يوافقه، ففي كلامه وصنعه إنسجام وتوافق عجيب.

خلاصة القول أن التعليم الإسلامي هو التعليم الذي يقوم على عقيدة

الإسلام، الموافق لنظرته إلى الحياة، القائم على الضوابط والأخلاق الإسلامية.

وينطلق التعليم القائم على ذلك من نظرة راسخة قوية محكمة وتصور واضح يصلح أن يكون محوراً للعلوم كلها، كما يصلح أن يكون إطاراً لها.

الأهداف والغايات

التعليم الإسلامي يهدف إلى إصلاح الإنسان في روحه وعقله وجسده، فالإسلام يعنى بالإنسان، ويعتبره وِحْدَةً غير مجزأة، كما يهدف إلى تسخير الحياة للإنسان، ولذلك طلب الإسلام من أتباعه النظر في الكون والسير فيه، والاستفادة مما أودعه الله فيه من خيرات، وقد امتن الله على عباده بأنه سخر الكون لهم، فالإسلام يريد أن يصلح الإنسان، ويصلح الحياة التي يعيشها، وسبيل الإنسان في ذلك هو العلم: العلم الشرعي الذي يصلح العقيدة والعمل، والعلم التجريبي الذي يكشف الإنسان به أسرار الكون، ويجعله متمكناً من الاستفادة من الكون وما فيه.

إن الإسلام يحقق للإنسان انسجاماً بين عقيدته وواقعه والكون الذي يعيش فيه، ذلك أن الإسلام أوضح لبني البشر أن هذا الكون مخلوق لهم، ومطلوب منهم أن يسخروا الحياة لخدمة الإنسان وفق منهج الله الذي وضعه لهم ﴿ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ [لقمان: ٢٠]، ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾ [الملك: ١٥]، ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٠١].

وأتباع الدين الإسلامي هم الفئة الوحيدة التي تستطيع أن توفق بين ظاهرها وباطنها، فلا تحس بالتناقض، لأن لها نظرة إلى الحياة تقوم

عليها حقائق الحياة، وبين هذا وذاك توافق عجيب، يجعل الإنسان يسير في الكون يكتشف سننه ونظمه، في الوقت الذي لا يعادي فيه الكون، ولا يعتقد أن الكون الذي يسميه الغرب بالطبيعة يعاديه، إن الإسلام يهدف إلى إصلاح الإنسان، ويدعوه إلى الاستفادة من الكون الذي سخره له، في الوقت الذي يدعوه إلى أن يعبد الإله الذي يعبده الكون ويسجد له.

واقع التعليم في ديار الإسلام

إذا نظرنا إلى التعليم الإسلامي اليوم وفق المعنى الذي حددناه للتعليم الإسلامي فإننا لا نجد عندنا تعليماً إسلامياً بهذا المعنى، إن العلوم المختلفة في المدارس والجامعات تقوم على أصول غربية، فالعقلية الغربية التي صاغت العلوم المختلفة تسري في العلوم التي تدرس عندنا في مدارسنا وجامعاتنا.

إن كثيراً من هذه العلوم يناقض عقيدة الإسلام ونظرته إلى الحياة، بل يقرر أن الإنسان ليس بخلق الخالق، وإنما تطور هكذا بدون خالق، إن العلوم غير مصتبغة بالصبغة الإسلامية في ديارنا، بل هي امتداد لعقلية الغرب وعقيدته، ونحن نعلم أن رجال الغرب هم الذين صاغوا مناهج التعليم في ديارنا عندما احتلوا ديارنا، وهم لا يزالون يهيمنون على هذه المناهج من خلال الرجال الذين درسوا علوم الغرب وتشبعوا بها، ومن خلال الكتب التي تترجم من غير تمحيص ولاتدقيق، ولا يزال الغرب يعني بالتعليم عندنا عناية كبيرة، ويرسل الخبراء والمستشارين والأساتذة الزائرين، ويهتم اهتماماً كبيراً بالتوجهات التربوية والتعليمية في ديارنا، أضف إلى هذا الإعلام الغربي يؤثر في توجيهنا تأثيراً كبيراً.

أنا لا أنكر أن هناك جهوداً كبيرة تحاول صياغة العلوم صياغة

إسلامية، وهو ما سماه المفكرون المسلمون « بأسلمة العلوم » وأن بعض هذه الجهود قد نجح فعلاً في بعض الديار الإسلامية، ولكن كل هذا عمل جزئي، فلم يقم بعد التعليم عندنا وفق المنهج الذي نستطيع أن نقول عنه: أصبح لدينا تعليم إسلامي.

وأنا إذ أسلط الضوء على الداء الذي أصيب به التعليم في ديارنا، هذا التعليم الذي أحدث شرخاً في عقيدتنا وإسلامنا، جعلنا نتشكك في ديننا، وجعلنا نقدس الغرب وحضارته وثقافته أكثر مما نعتز بإسلامنا وأصالتنا - إنني إذ أفعل ذلك لا أنكر أن هناك داءً آخر أصاب التعليم عندنا، وهذا الداء موروث خاصة في العلوم الشرعية، ذلك أن التعليم الشرعي انحرف عن مساره الصحيح في القرون المتأخرة، فقد حورب الإبداع في التعليم والتأليف، ودخلت في الإسلام علوم ليست فيه، وانحسرت عنه علوم أساسية كانت محل عناية المسلمين الأوائل، كما أصبحت طريقة التعليم عسرة صعبة، ولذلك فإن التعليم الشرعي لم يعط ثماره المرجوة منه في الحقب الأخيرة، وأضف إلى هذا إهمال المسلمين العلوم التي تبحث في الحياة والأحياء، مما سبب ضعف المسلمين وإبعادهم عن مركز القيادة.

أنا لا أنكر أن التعليم الشرعي في كثير من الأقطار في المعاهد الشرعية والجامعات الإسلامية أفضل مما كان، وقد طرأ عليه تحسن ملحوظ، ولكن لا يزال هناك الكثير من العيوب والآفات التي يجب أن يتخلص منها.

السبب في انفصام العلم عن الدين

أما عن سبب الانفصام بين الدين والتعليم، فذلك صدى لإجبار الأمّة الإسلامية على تلقي علوم الغرب، ونحن نعلم أن الغرب قد حارب الدين النصراني، لأن الكنيسة تقوم على دين محرف، وقد تبنت نظريات ظنتها حقائق، وحاربت كل ما خالفها، وعلّقت الذين ظهر لهم في علوم الحياة ما يخالف ما عليه الكنيسة على أعواد المشانق، بل حرقتهم أحياء، وفي حرب هؤلاء المتنورين للكنيسة استعانوا بالعلم، وحشدوا كل قواهم العقلية لتشويه رجال الدين، وقد نجحوا في إقصاء رجال الدين عن الحياة، وحاصروهم في زوايا الكنائس، كما نجحوا في إيجاد الفصام النكد بين الدين والعلم.

ونحن لا نخالف من يذهب إلى أن الدين النصراني يناقض كثيراً من الحقائق الدينية الصحيحة والحقائق العقلية والعلمية، ولكننا نأبى كل الإباء أن يكون الإسلام كذلك، لأن الإسلام لم يُحَرَّف كما حرف الدين النصراني، بل هو دين محفوظ، يدلنا على هذا أمران:

الأول: دراسة الإسلام التي تظهر لنا مدى عناية الإسلام بالعلم، وأنه يدعو إلى النظر والتأمل في الكون، كما تأمر بالسير فيه وتسخيره والاستفادة منه ﴿فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٥، ٦]، ﴿فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِه ، أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ، ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا﴾ [عبس: ٢٤-٢٦]، ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ [الغاشية: ١٧، ١٨].

والثاني: تاريخ الإسلام، حيث عاش العلماء في ظل الإسلام حياة

آمنة، بل كان للعلماء على مرّ التاريخ الإسلامي مكانة راقية، وقد حفظ لنا التاريخ أن كثيراً من علماء الشريعة كانوا هم علماء الفلك والطب والاجتماع.

فهذا الفصام بين الدين والعلم غريب على طبيعة الدين كما هو غريب على مجتمع المسلمين، ولكنه أثر للغزو الفكري والتعليمي والتربوي الغربي، فظن الذين رضعوا لبان ثقافة الغرب ومنهجه، أن كل الأديان كدين النصارى، وسبب ذلك هو الجهل بالإسلام ومنهجه وحقائقه، وهذا أوقع هؤلاء في لبس خطير.

إن القاعدة العقلية توجب إعطاء الأمرين المتماثلين حكماً واحداً، كما تقضي أن نفرق بين الأمرين المختلفين، ولا شك أن الإسلام يخالف النصرانية المحرفة، الإسلام دين التوحيد، ودين العلم، والدعوة إلى معرفة الحقائق على هدى ونور، فكيف يجعل كذلك الدين الذي يحارب العلم والإبداع !!.

التحديات التي تواجهنا في مجال التعليم

إن التحديات التي تواجهنا اليوم في مجال التربية والتعليم كما سبق أن بينت تتمثل في أمرين:

الأول: التبعية للغرب في علومه المصتبغة بفكره وعقيدته ونظرته إلى الحياة والأحياء.

والثاني: الجمود والتقليد اللذان ورثناهما من العصور الخالية في مجال العلم والتأليف والتدريس.

وهذا يقضي إيجاد منهج لإصلاح ذلك كله.

الأصول والمرتكزات التي يقوم عليها العلاج الناجع

بعد أن عرضنا أبعاد المشكلة فيما مضى أحب أن أضع بين أيدي الباحثين في هذا الموضوع الأصول والمرتكزات التي يقوم عليها العلاج الناجع حسب ما يتبدى لي:

١ـ العقيدة الإسلامية هي قاعدة التصور الإسلامي الذي يعطي نظرة كلية كاملة شاملة للكون والإنسان والحياة، ويعرِّف الإنسان بخالق الحياة، وعلاقته بالكون، وعلاقة الإنسان بخالقه وبالكون الذي يعيش فيه.

وهذا التصور الشامل والنظرة الكلية هو القاعدة التي تقوم عليها العلوم في المنهج الإسلامي.

٢ـ الإسلام هو المحور الذي تدور العلوم في فلكه، فالإسلام حاكم على العلوم كلها، ويصلح أن يكون محوراً لها، ومن نظر في هذا الأمر نظر متبصر علم أن الإسلام كما أنزل حاكماً للحياة الإنسانية، أنزل حاكماً للعلوم وضابطاً لها، وهو في ذلك نقطة الارتكاز التي تدور العلوم حولها.

وهذه المنهجية تجعل العلوم التي تدرس لأبناء المسلمين وحدة منسجمة مترابطة تدور في فلك واحد.

وقد تنبه رجال التربية إلى ضرورة وجود مثل هذا المحور في العملية التربوية، ولكنهم لم يوفقوا في الاهتداء إليه.

٣ـ بين العلم والدين وشيحة وصلة، وقد قطع الباحثون هذه الوشيحة بينهما، وحري بالباحثين المسلمين أن يعملوا على إعادة هذه الوشيحة بين العلوم التي تبحث في الكون والحياة والأحياء وبين خالق الكون والإنسان، وإعادة هذه الوشيحة والصلة يجعل دراسة العلوم مجالاً رحباً لتقوية الإيمان بالله عبر النظر في الخلق وأسراره.

٤ـ يجب تخليص العلوم من النظرة التي تقدس الغرب وعلومه وفلسفته، وفتح عقول الناشئة على تاريخ المسلمين العلمي، الذي يحاول الغرب إخفاءه وهدمه، بحيث ينشأ التلميذ معتزاً بهذا التاريخ الذي يحكي سير العلماء وما قدموه للإنسانية، وبذلك يعرف طالب العلم هويته، ويضع رجله على الطريق الصاعد الذي يحيي أمته.

٥ـ يجب إعادة صياغة العلوم المختلفة، كالطب والفلك والاقتصاد ونحوها صياغة إسلامية، بحيث تصتبغ بالإسلام في المنطلقات والأهداف، وتضبط بالضوابط الشرعية والأطر الإسلامية، وبذلك تتخلص هذه العلوم من الصبغة التي صبغها بها أصحاب العقائد الضالة كالعلمانيين والشيوعيين.

وينبغي أن يعهد إلى فئة من أفذاذ المتعلمين من هذه الأمة الذين جمعوا بين علم الشريعة الصافي الخالص، وعلوم الحياة في كل مجال، تكون مهمتهم صياغة العلوم المختلفة وفق منهج الإسلام ونظرته إلى الحياة، بحيث نعطي الطالب حقائق العلم، كما نركز فيه الإيمان واليقين وحب الإسلام.

٦ـ تنقية العلوم المختلفة التي تدرس في مراحل التعليم المختلفة مما شابها من نظريات فاسدة، وأفكار زائغة، وأحكام جائرة، وتصورات باطلة، فقد دخل في مقررات المدارس والجامعات والمعاهد من هذا شيء كثير في مختلف ديار الإسلام على تفاوت بينها في هذا، ومن ذلك تدريس النظريات الربوبية من غير بيان لعوارها، والزعم بأن أصل الإنسان حيوان، والقول بأزليّة المادة، وتفسير التاريخ تفسيراً ماديّا جدلياً.

وهذا يوجب أن نرفع من الكتب والمؤلفات والمناهج التربوية كل ما يناقض الإسلام ويهدم أصوله.

٧ـ رفض العلوم التي ذمها الإسلام كالسحر والتنجيم والكهانة، والعلوم التي ترمي إلى الفسق والفجور والموسيقا ونحوها.

٨ ـ وضع الضوابط والقواعد المستخلصة من الدين الإسلامي كي تكون مبادئ للعلوم بصفة عامّة، ثمّ لكل علم من العلوم بصفة خاصة.

٩ـ إبراز مدى اهتمام المسلمين في مختلف العصور بمختلف أنواع العلوم وإبراز مناهج البحث التي اتبعها علماؤنا في مختلف العلوم.

١٠ـ إبراز عيوب المنهج الغربي وخاصة الفصام النكد بين العلم والدين، وبيان أسباب هذا الفصام وآثاره.

١١ـ يجب أن يكون التعليم في مراحله الأولى ـ من الابتدائي وحتى الثانوي ـ واحداً لا تخصص فيه بحيث يعطي التلاميذ قسطاً كافياً من علوم الشريعة تكفي الطالب ليعرف دينه، ويستقيم عليه، وأما التخصص فيكون فيما وراء المرحلة الثانوية، إن ثنائية التعليم خطأ كبير، وقعنا فيه بسبب مكيدة خبيثة جاءنا بها أعداء الإسلام، وآن لنا أن نعود إلى المسار الصحيح، لا يجوز أن يكون في الأمة للتعليم مساران: الأول: يعنى بالحياة وعلومها ولا يفقه من الدين الإسلامي إلا القليل، والثاني يدرس علوم الشريعة، ولا يعلم من علوم الحياة إلا القليل.

إن جميع الدارسين في الأمة الإسلامية ينبغي أن يأخذوا في مراحل التعليم الأولى قدراً متكافئاً من العلوم الإسلامية والتجريبية، ثم بعد ذلك يكون التخصص بشرط أن لا تنقطع صلة دارسي الشريعة بعلوم الحياة، ولا دارسي علوم الطبيعة بعلوم الشريعة، بل يعطي كل واحد من الفريقين قدراً مناسباً لا يمنعه من التخصص الذي يسير فيه، ولا يحرمه من الاطلاع على قدر كاف في المجال الآخر، وتفصيل هذا لا تحتمله هذه العجالة.

١٢ـ عدم إغفال التربية في مجال التعليم، **فالتعليم في الإسلام وسيلة** وليس غاية. التعليم عندنا وسيلة لإصلاح النفوس وتهذيبها وإصلاح الحياة والأحياء وتسخير الحياة لمصحلة الإنسان، إن اليوم الذي أصبح فيه التعليم غاية، وأصبح الذي يحصل علماً ما وينال فيه شهادة جامعية، أو أكبر من ذلك قد بلغ النهاية ـ يوم سيء في تاريخ الأمة، فالأمة لا تريد العلم لذات العلم، بل لتحقق في الأحياء والحياة ما لم يمكن تحقيقة إلا بالعلم.

١٣ـ يجب أن يحاط العلم بأخلاق الإسلام، فالعالم المسلم ينبغي أن يتخلق بأخلاق الإسلام، ولذلك كانت الأخلاق في الإسلام حارساً وحامياً، بل كانت الأخلاق إطارا يحمي العالم كما يحمي العامل من الانحراف، ومتى فقد العالم الخلق فقد يُسَخِّرُ علمه في تدمير البشر، واهلاك الحرث والنسل، وإفساد الحياة، ونظرة في علوم الغرب التي تدمر وتقتل من أجل إعلاء كلمة الإنسان، وسيطرة أمة على أمة، ومن أجل الكسب والمال. . . تكفي لنعلم قيمة الأخلاق، وأنها ضرورية للعالم والعامل على حدٍّ سواءَ.

والحمدلله رب العالمين

المحاضرة الثامنة

أهل
السنة والجماعة أصحاب
المنهج الأصيل والصراط القويم

تقديم

الداعي لهذه المحاضرة:

الحمد لله الكريم الوهاب، صاحب الجود والأفضال، فضلنا معاشر بني آدم على كثير من خلقه تفضيلاً، وقوّمنا بدينه المنزل تقويما، وخصنا أتباع محمد ﷺ بالقرآن العظيم، والرسول الخاتم الكريم، وهدانا بدينه ورسوله إلى الحق المبين، وأزال عنا غشاوة الغفلة، وأنار لنا ظلمات الكفر والشرك والمعاصي بنور الإسلام، فله الحمد كله، وله المنّة كلها، وله وحده التمجيد والثناء والتسبيح، له نصلي ونسجد، وإليه نسعى ونحفِد، له الصلوات الطيّبات، والتحيات المباركات، وهو مولانا ونعم الوكيل.

ونصلي ونسلم على رسوله المجتبى، وحبيبه المصطفى، صاحب الرسالة الخاتمة، والدين المحفوظ الكامل، وصاحب المقام المحمود، والشفاعة العظمى، الذي أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وعرج به إلى السموات العلا، بلّغ الرسالة وأدى الأمانة، وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك.

وأصلي على أصحابه الأخيار وآله الأطهار الذين قَوَّمُوا المعوج من نفوسهم بدين الإسلام، وأقاموا العباد على دين الله، وحملوا الأمانة التي أبت السموات والأرض أن تحملها، فمضوا إلى ربهم محمودين راضين بما آتاهم، فرضي الله عنهم وأرضاهم.

وأصلي على التابعين السائرين على الصراط المستقيم، صَراط النبي

الكريم وخلفائة من بعده، وعلى من اتبع مسارهم وسلك سبيلهم إلى يوم الدين، وبعد:

فإن البحث الذي أطرقه في هذا الكتاب أعد بطلب من القائمين على رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكيا الشمالية، وألقي في مؤتمرها الثاني عشر الذي أقيم في مدينة كنساس ستي من ٢٣ إلى ٢٨ من جمادى الآخرة ١٤١٠ هـ الموافق ٢٢ إلى ٢٧ من ديسمبر ١٩٨٩هـ وقد تأخرت طباعته لظروف أوقفت كثيراً من نشاطي السابق بعد انتقالي من الكويت إلى عمان.

وقد اختير موضوع البحث ليناسب عنوان المؤتمر، فقد عقد المؤتمر تحت عنوان « نحو مسيرة راشدة للعمل الإسلامي ».

والموضوع يعالج مشكلة لا يزال يتردد صداها بين العاملين بالإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، ففي هذه المرحلة الصعبة التي يعيشها العالم الإسلامي يختلف العاملون في الحقل الإسلامي، ويزعم كل من تصدر اتجاهاً بأنّه على الطريق القويم، ويحاول جاهداً أن يغض من قيمة الطرف الآخر، وتَلَفُ كثيراً من الشباب الغض حيرة، ويتنابهم ذهول، ويأتي دائماً السؤال لمن يظن أن عنده الجواب: أين السبيل ؟ والحق مع من ؟.

إن كثيراً مما يقوله الفرقاء المتخاصمون ليس له نصيب من الصحة، ولا يثبت حين الامتحان والاختبار.

وقد جاء هذا البحث ليسهم في بيان هذه القضية، ويكشف عما تلبس بها من زيف من الأطراف المتنازعة.

إنني لم أحاكم الأطراف المتنازعة فذلك ليس منهجي في البحث، ولكني حاولت جاهداً أن أكشف عن المنهج الأصيل الذي يمثل الحق في هذه الأمة، وهو منهج أهل السنة والجماعة، وأكشف عن أصوله

وخصائصه، وأبين عدة قضايا سيكون لها أثر في كشف أمور خافية في المنهج والسبيل.

إنني لا أتعصب فيما تناولته لطائفة أو جماعة، بل كان رائدي تقديم النصح للجميع، راجياً من الله الصواب في القول، طامعاً في رحمة الله وعفوه، وبركة دعوة صالحة من عبد تقي يتقبل الله دعوته.

وفق الله العاملين بالإسلام إلى التواصي بالحق والصبر، والتعاون على البر والتقوى، بعيداً عن حظوظ النفس، والتحاكم إلى الهوى، والتعادي والتدابر والتباغض.

وأملي في من يجد فيما قدمته ما يؤاخذ عليه أن لا يبخل عليّ بالنصح والتسديد، فلعلي إن أبصرت ما بصَّرني به أن أصلح ما كان مني في طبعة قادمة، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

المبحث الأول

المسلمون بين الاستقامة والانحراف

١ـ حالة المسلمين في القرن الأخير :

شهد الربع الأوّل من القرن العشرين انهيار بقية السور العظيم الذي كان يحمي معاقل الإسلام، وأعني بذلك السور: الخلافة الإسلامية العثمانية التي تهاوت تحت مطارق الكفر ومؤامرات الأعداء الألداء والأبناء الأغبياء.

وبانهياره تحطمت آخر السدود التي كانت تحول دون الطوفان الكبير الذي أغرق العالم الإسلامي بالجيوش الجرارة التي قذف بها أعداؤنا إلى ديارنا لتقضي على بقايا القوة الإسلامية، وتهين كرامة المسلمين، وتخرجهم من النور إلى الظلمات، وصحا المسلمون على صهيل خيول أعدائهم، وقعقعة سلاحهم، وأخذوا يقارعون جيوش الكفر، ويحاولون حماية أنفسهم، ولكن أنّى للجسد الهزيل المقطع الأوصال المنهك القوى أن يقاوم القوة الجبارة التي أحاطت به من كل حدب وصوب.

ولم يكتف الأعداء بماحققوه من انتصارات في ميدان الحرب والقتال، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك عندما اغتالوا الشريعة الإسلامية، فأبعدوها عن سياسة الأمة وقيادتها، وأجهدوا أنفسهم في اغتيال العقيدة الإسلامية، ولتحقيق ذلك سلكوا كل سبيل، وزينوا للمسلمين أن يبحثوا عن علاج لمشكلاتهم في نظريات الشرق والغرب، وكل مبدأ ضال انتجته عقول البشر، وأبوا عليهم أن يرجعوا إلى الأصالة المتمثلة في المنهج الإسلامي.

وشهد العالم الإسلامي غب سقوط الخلافة تشتتا وضياعاً، وسرت في أوصال الأمّة الأمراض الفكرية والعقائدية المستوردة، ومسخت

الشخصية الإسلامية، وشوهت العقيدة الإسلامية، واحتارت السبل بأمّة الإسلام، فلم تدر أين السبيل، ولا أين الطريق.

وأقفرت كثير من ديار الإسلام وأجدبت، فقد منعت السماء قطرها، فجفت الحقول، وذوت الأشجار وعصفت الرياح بالبقية الباقية من خيرات الأرض، لقد عشنا فترة ضياع الوجهة والهوية، ورأينا كيف يمم الشباب في ديار الإسلام وجوههم وقلوبهم إلى ديار الكفر ومبادئه ومناهجه، ورأينا كيف خلت المساجد من روادها، وكيف امتلأت السينمات والمسارح، ودور اللهو بالشباب الذين كانت تعقد عليهم الآمال لإنهاض الأمة من كبوتها.

وإمعانا بالمكر زين للشباب أن بلاء الأمّة يكمن في دينها، فحورب الإسلام في ديار الإسلام في كل الميادين، وأصبح الدين ورجاله موضع هزء وسخرية، وأصبح المنادون بالعودة إلى الإسلام يعدون رجعيين ومتأخرين، بل صنفوا في عداد المجرمين.

ولقد كانت مهمة الرواد المسلمين الذي عاشوا هذه الفترة إيقاف السقوط الكبير في مهاوي الكفر والضلال.

وذلك باشعال جذوة الإيمان في النفوس، وإعادة الثقة بالإسلام، وامداد النفوس الخاوية بماء الحياة الذي يعيد إليها رونقها وصفاءَها، لقد كان الصراع في تلك الفترة على بقاء الإسلام أو زواله، فالدعوة الأصيلة في تلك المرحلة كانت تهدف إلى إحياء الإيمان في نفوس المسلمين.

لقد حورب الذين نذروا أنفسهم لهذه المهمة فزج بهم في أعماق السجون، وعلقوا على أعواد المشانق، ولفقت لهم التهم الباطلة، وطوردوا في بقاع الأرض، وعلى الرغم من البلاء والفتن والتشريد الذي تعرض له دعاة الإسلام في أرض الإسلام فإن الدعوة الإسلامية

أثمرت ثماراً طيبة، ولاقت قبولاً، فعادت جذوة الإسلام تشتعل في النفوس من جديد، وعاد كثير من المسلمين إلى الأصالة الإسلامية، وعرفوا هويتهم ووجهتهم.

وأنت إذا سرت في ديار الإسلام اليوم، ترى في ديارنا سهولاً خضراء، وروابي وارفة الظلال، تنبت في جنباتها الورود والرياحين، لقد بدأت الأرض تحيا من جديد، ويعود إليها بهاؤها ورونقها ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

إذا سرت في بلادنا ترى المساجد ملأى بالشباب، ووجهة الشباب في المدارس والجامعات ودور العلم هو الإسلام، وكثير من جموع الأمّة بدأت رحلة العودة بعد ضياع طويل، لقد سرى في الأمة قبس من ضياء، فأحال الظلام نوراً، ورأى السالكون الطريق، وحددوا الهدف والغاية.

٢ـ الفرقة والاختلاف بين العاملين بالإسلام:

إلا أن العاملين بالإسلام اليوم يقعون في مأزق كبير، يتمثل في الخلاف الذي تراه ناشبا بين العاملين بالإسلام، وقد يكون هذا الخلاف قوياً متأججاً، وقد يكون ضعيفاً خافتاً، وقد يتبدى في الممارسات والبرامج، وقد يظهر في الحوار، وقد تكتب فيه مؤلفات ورسائل، وقد يطرح في الصحافة والإذاعة والتلفاز.

وقادة الفكر وأهل الرأي لا يملون من التنظير والحوار والمناقشة، ويقع الشباب في حيرة، وتكبر الحيرة حتى تصبح قلقاً، وقد يتحول الحوار والنقاش إلى اتهامات، وقد يتحول إلى أكبر من ذلك، فقد يصبح غيبة، وكذبا وافتراء، وتصيداً للأخطاء، وإيذاءً باليد والرجل.

إنَّ لبَّ القضية أن كل طرف من المختلفين يزعم أنه على السداد والصواب، وأن منهجه هو المنهج، وطريقه هو الطريق، وبرنامجه هو البرنامج، ومن خالفه فإنه بعيد عن الصواب، وقد يكون هو الخطأ بعينه.

الغاية المأمولة من وراء المؤتمر :

ويأتي هذا المؤتمر ليقوم بالغاية المأمولة من وراء عقده بحيث يقوم بعملية الترشيد والتوجيه لمسيرة العاملين بالإسلام، وقد انتدبني الأخوة القائمون على المؤتمر لأكون في طليعة المحاضرين في هذا الموضوع الخطير، عاقدين عليَّ الأمل في أنَّ أحلَّ معضلة كبرى، لا تزال تردد أصداؤها في مختلف بقاع العالم الإسلامي، بل في العالم كله حيثما وجد المسلمون، وإنني أعلن بصراحة عدم قدرتي على حل هذا المشكل، ولكنني سأطرح ما عندي، فإن أصبت فبتوفيق الله، وإلا فإنَّ هذا أحسن ما وصل إليه جهدي، والله يغفر لي ضعفي، وتقصيري.

٣ـ نظرة فاحصة في طبيعة الاختلاف :

أحب أن أركز في البدء على أن كثيراً من النزاع غير نابع من اختلاف عقائدي، وغير عائد إلى فقه شرعي، وإن أُلبس لباس الدين والشرع، وإنما هو عائد في بعضه إلى هوى متمثل في حب القيادة والزعامة لتكثير الأتباع، فيقوم هذا النوع بحملات يقصد بها زعزعة الثقة بالآخرين ومناهجهم، كي يحافظ هؤلاء على أتباعهم، ويكسبون أنصاراً جدداً، ونصيحتنا لهؤلاء أن يلجموا أنفسهم بلجام التقوى، وأن يراقبوا الله في إخوانهم ودعوتهم، ولا أحب أن أقف كثيراً مع هؤلاء.

وبعض النزاع نابع من اختلاف في وسائل الدعوة وطرائقها وفي

التنظيم والترتيب، وليس اختلافا في المبادئ والأصول، وهذا اختلاف قريب، لا ينبغي أن يفرق صفوف العاملين، فالحق في الوسائل لا يكون واحدا دائماً بل قد يتعدد، والمتعدد قد يكون صواباً كله، بل إن الشارع قد يشرع الأمر الواحد متعدداً، فلا يخطئ أي مسلم أخذ بواحد من هذا المتعدد، كصيغ الأذان، وصيغ التشهد والصلاة على الرسول ﷺ، ويظلم المسلم نفسه إذا خطأ غيره في مثل هذا.

وبعض النزاع قائم في مسائل جزئية، للاجتهاد فيها محل، إذ دليلها غير قطعي الثبوت، أو غير قطعي الدلالة، ولكن الأنظار تختلف في فقه مرماه، وتحديد معناه، وهذا النوع من النزاع لا يجوز أن يحدث فرقة ولا خلافاً، فإنه نوع من الاختلاف الطبيعي الذي لا يخلو البشر من مثله، والتكليف بعدم حدوثه يوقع في الحرج والضيق، ولم يخلو منه مجتمع الصحابة، لا في حياة الرسول ﷺ ولا بعد وفاته.

أما النزاع والاختلاف الذي ينبغي أن يركز عليه، والذي فيه الكلام في هذا المؤتمر فهو النزاع العقائدي، فإنه الذي يوجد الفرقة والشقاق، ويجلب العداوة والشحناء، وهذا النوع من الخلاف قد يكون جذرياً كلياً، وقد يكون في جزئيات الأصول.

فالخلاف الكلي الجذري يمثله الرافضون لمنهج الله ودينه، وهؤلاء هم أهل الملل من غير المسلمين، من الشيوعيين والنصارى واليهود والبوذيين والصابئين وغيرهم من الكفار والمشركين، وهؤلاء خارج دائرة الإسلام، وحكمهم واضح لا لبس فيه، فنحن وإياهم على طرفي نقيض، وما يبدو بيننا وبينهم من اتفاق في بعض الجزئيات ليس له قيمة حقيقية، ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١].

وكل من رفض دين الإسلام، أو رفض اتباع الرسول أو كذب بواحد من أصول الاعتقاد، وهي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، فإنه كافر لا شكّ في كفره، وإن تسمى باسم المسلمين، وزعم أنه من أهل الإيمان.

أما الذين استجابوا لله وللرسول، وآمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرّه، فهؤلاء هم أهل الإسلام.

٤ـ بناء الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الجيل الرباني بدين الله :

وقد تمثل الإسلام في أول أمره في شخص الرسول ﷺ، فإن الله صاغه بالإسلام، وأقامه على شرائع الإيمان، وقوَّمه تقويما جعل شخصيته صورة عملية للمنهج الإلهي الرباني، وكذلك الرسل في أقوامهم يختارهم الله أفضل الناس وخير الناس ﴿**اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ثم يقومهم بدينه المنزل، ويصنعهم على عينه كما قال لموسى عليه السلام: ﴿**وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي**﴾ [طه: ٣٩].

وقال لمحمد ﷺ: ﴿**وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ**﴾ [الأعلى: ٨].

وقد أرسل جبريل إلى الرسول ﷺ، فصلى به الصلوات الخمس في يومين، وكان يدارسه القرآن في كل عام في رمضان مرة، حتى إذا كان العام الذي توفي فيه دارسه إياه مرتين.

وربى رسولنا ﷺ الذين استجابوا له بمنهج الله، حتى صحت عقائدهم، واستقامت أفكارهم، وخلصت نياتهم، وصلحت أعمالهم، فكانوا كما أحب الله ورسوله، وكانت الكلمة تصدر من الرسول ﷺ، فتعمل عملها في نفوس الصحابة، فتقوِّم معوجهم، وتهدي ضالهم،

وتعيدهم إلى الصراط المستقيم.

لم يكن الصحابة ملائكة، بل كانوا بشرا يخطئون ويصيبون، وقد يضعفون، ولكن القرآن لاحقهم بالتوجيه والتعليم ولاحقهم الرسول ﷺ بالتربية حتى ارتفعوا إلى مصاف الصديقين والصالحين، وأصبحوا باستقامتهم على المنهج خير أمة أخرجت للناس بشهادة الله فيهم، وبتصريحه برضائه عنهم.

لقد مثل جيل الصحابة الحق في واقع الحياة، فأصبح الحق محفوظا في كتاب الله وسنة رسوله من جهة، ومتمثلاً في واقع الحياة من جهة أخرى في جيل الصحابة، وكثير من الناس لا يعرف الحق إلا إذا كان متمثلاً في واقع مشهود، ولذلك كان المؤمنون الأتقياء المستقيمون على الحق شهداء على الناس ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقد أحدث وجود ذلك الجيل الذي تربى على منهج الله، وصاغ حياته وفق تعاليم الإسلام هزَّة كبرى في العالم الإنساني، واستطاع في فترة وجيزه أن ينقل أعداداً كثيرة إلى الإسلام، وسيطر الإسلامُ على أكثر المعمورة، وهز عروش الدول الكبرى في ذلك الوقت.

ولم يتقذر الرعيل الأول من هذه الأمة- أعني بهم جيل الصحابة - بشيء من قاذورات الملل الضالة والفرق الباطلة، فقد حصنهم الرسول ﷺ ضد الانحرافات ومداخل الشيطان، لقد قاوم الرسول ﷺ في حياته الانحرافات التي كانت تراود بعض النفوس، أو التي كان الشيطان يوسوس بها بين الفينة والفينة، فتأتي كلمة الحق من كتاب الله أو من فم الرسول ﷺ كالقذيفة تصيب الباطل في أم رأسه، فتدمغه فإذا هو زاهق ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

خرج الرسول ﷺ على بعض أصحابه يوماً، فوجدهم (يتنازعون في القدر، هذا ينزع آية، وهذا ينزع آية) فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً وبدا هذا في وجهه (فكأنما فقئ في وجهه حب الرمان فقال: بهذا أمرتم، أو بهذا وكلتم، أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، انظروا ما أمرتم به فاتبعوه، وما نهيتم عنه فاجتنبوه) [(1)].

ووقف الرسول ﷺ بقوة وشدَّة في وجه الذين أرادوا أن يغرقوا في التعبد بقيام الليل وصيام النهار، وترك النكاح وتحريم الطيبات، وأرشد أصحابه إلى التوازن والاعتدال.

وغضب عليه السلام غضباً شديداً عندما وقف متعالم جاهل مغرور بين يديه يعترض عليه في حكمه في الغنائم مرة، وفي الصدقات أخرى، ويقول: اعدل يا محمد، فيقول له الرسول ﷺ: ويحك ومن يعدل إذا لم أعدل، أيأمنني من في السماء ولا تأمنوني، فلما ولَّى، قال: يخرج من ضِئْضِئِي هذا أقوام يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن ولا يجاوز حناجرهم، يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية [(2)].

وحذر صحابته من الفتن، كما حذرهم من الذين يردون سنته، وجاء القرآن يحذر الصحابة من التنازع والاختلاف﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٣١، ٣٢]، ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وذم الذين اختلفوا في دينهم ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٣]،

---

(١) رواه أحمد بإسناد صحيح: ١٠/٣٣.

(٢) الحديث مروي هنا بالمعنى. انظر روايات الحديث في شرح النووي على مسلم: ٧/١٤١.

﴿ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٣]، ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [البقرة: ١٧٦]. ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقد وعى أصحاب رسول الله التعليمات والتوجيهات التي صدرت إليهم من ربهم ورسولهم في هذا الشأن، كانوا حريصين على أن يمثلوا منهج الله، ولا يحيدوا عنه، وأن لا يختلفوا فيه، وكانوا يسدُّون الثغرات التي تؤدي إلى الفرقة والنزاع وظهور الأهواء في المجتمع الإسلامي، فحاربوا أهل الردة ومانعي الزكاة الذين أرادوا إنقاص دين الله، وإزالة ركن من أركانه، وجمعوا القرآن، وجمعوا الأمّة عليه عندما رأى الصحابة بوادر اختلاف الأمّة في كتاب ربها.

وضرب عمر بن الخطاب صَبيغاً [1] بعراجين النخل على رأسه عندما رآه يبحث عن المعضلات والمشكلات في الكتاب والسنة، وتشددوا في رواية السنة، وأوقفوا البحث والحوار في المسائل الفرضية التي لم تقع بعد، ونهوا عن عضَل المسائل والتكلف في السؤال إلى غير ذلك من القواعد التي حفظت على الصحابة دينهم.

٥ـ أثر تطبيق المنهج النبوي على الإسلام وأهله:

ولما كانت الأمة الإسلامية على هذا النحو، فإنها فعلت الأفاعيل بأعداء الإسلام، فنشرت الإسلام، وانتقلت من نصر إلى نصر، ولم تستطع الجيوش الجرارة، والقوى المتقدمة أن تحدث ثلمة في بناء المسلمين المتراص، ولو بقيت الأمة على ذلك النمط الذي وصفناه من الوحدة والاتفاق والتعاضد والتناحر فإن اجتماع جيوش الكفار كلها لا

---

(١) صبيغ هذا كان يدور على الصحابة يسأل عن المسائل المشكلة حتى أدبه عمر رضي الله عنه.

يستطيع أن يقف في وجهها، فقد وعد الله رسوله ﷺ أن لا يسلط على أمته عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يحارب بعضهم بعضاً، ويقتل بعضهم بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً [(١)].

٦ـ ماذا فعل النزاع والاختلاف بأمّة الإسلام ؟

وبعد مضي مدة من عصر الصحابة من بعد الرسول ﷺ، وقع الخلاف والنزاع بين المسلمين في المجتمع الإسلامي، وأدى النزاع إلى القتال وسفك الدماء، وكانت حرباً ضروساً أزهقت أرواحاً خيره، وسفكت دماء طاهرة، واستطاع المسلمون تجاوز هذه المحنة التي زلزلت المجتمع الإسلامي، وأوجدت ثلماً في حصونه ومعاقله.

لم يكن النزاع الذي وقع في ذلك العصر نزاعاً عقائدياً أصولياً، ولكن انبثقت عنه خلافات تحمل هذا الوصف، ففي عام (٣٧) من الهجرة خرج من جيش عليّ خارجة كفَّرت علياً ومعاوية وكل من قبل بالتحكيم بين الفريقين، وتبلور هذا الاتجاه فيما عرف من بعد بالخوارج الذين ذهبوا إلى أن مرتكب الكبيرة كافر، وقد كان هذا الفريق خنجراً في جنب الأمة الإسلامية، يقوم بالثورات، ويحارب أهل الإسلام، ويسفك الدماء، ويسلب الأموال، ويسبي النساء والأطفال.

وغلت طائفة أخرى في علي بن أبي طالب، وادعت أن علياً هو وصي رسول الله ﷺ، وأنه أفضل الأمة بعد نبيها، وأنه أحق بالخلافة من غيره، وتبلور هذا التوجه في مذهب غلا في ذم الصحابة الذين قدموا الخلفاء الثلاثة على عليٍّ، وغلا في رفع عليّ بن أبي طالب فوق منزلته، وجعل الأمامة حقاً خالصاً لسلالة علي من بعده، ثم لنوابهم

---

(١) رواه أحمد وأبو داود .

بعد اختفاء إمامهم الثاني عشر كما يدعون.

وفي آخر عهد الصحابة تكلم بعض الضلال في القدر وأنكروا علم الله السابق، وزعموا أن الله لم يخلق أفعال العباد، وتبلور هذا الاتجاه في فرقة القدرية، الذين يزعمون أنه لا قدر، وأن الأمر أنف، وأن العباد يفعلون ما يشاؤون من غير تقدير سابق، وقابلهم فريق آخر زعموا أن العبد مجبور على فعله، وليس له خيار فيما يأخذ ويدع.

وفي آخر القرن الأول الهجري ظهر غيلان الدمشقي، وقال بالإرجاء، وزعم أن الأعمال غير داخلة في مسمى الإيمان، وأن الإيمان هو معرفة القلب، وأن المسلمين متساوون في إيمانهم، وزعموا أنه لا يضر مع الإيمان معصية، ولا تزيده طاعة.

وفي القرن الثاني الهجري ظهر واصل بن عطاء رأس الاعتزال، الذي ذهب إلى أن مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين، فلا هو مؤمن كما يقول أهل السنة والجماعة، ولا كافر كما تقوله الخوارج، وإنما هو في منزلة بين الإيمان والكفر، هذا في الدنيا، أمّا في الآخرة فقد وافقوا الخوارج بالحكم عليه بالخلود في النار، وزعم هؤلاء أن أحد فريقي الصحابة فساق من غير تحديد، ولهذا طعن واصل بن عطاء في عدالتهم، ولم يقبل شهادة واحد منهم.

وظهر أيضاً في القرن الثاني الجعد بن درهم، وأنكر صفات الله، وزعم أن القرآن مخلوق، وأنكر استواء الله على عرشه، وتلقى مذهبه من بعده الجهم بن صفوان، فَنُسب المذهب إليه، وزاد الجهم على مقالة أستاذه دعواه بأن الإنسان مجبور على فعله، وأن الإيمان هو المعرفة، وأن الكفر هو الجهل بالله، وقال بفناء الجنة والنار، وظهر في القرن الثاني أيضاً مقاتل بن سليمان الذي بالغ في إثبات الصفات، حتى أدى به ذلك إلى التجسيم وتشبيه الله بخلقه.

وزاد انتشار البدع وظهورها عندما استطاع بعض أهل هذه الفرق اقناع بعض الخلفاء ببدعهم، وأول من دخلت عليه هذه الضلالات الخليفة المأمون سابع خلفاء بني العباس، الذي تولى الخلافة في سنة مائة وسبعين، وكان من أفضل رجال بني العباس حزماً وعزماً وحلماً ورأيا ودهاء وشجاعة وبراعة وفصاحة وسماحة، إلا أنه كان رافضياً معتزلياً قدرياً.

« وفي سنة مائتين وإحدى عشرة أمر أن ينادي: برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير، فإن أفضل الخلفاء بعد رسول الله ﷺ عليٌ بن أبي طالب، وفي سنة مائتين واثنتي عشرة أظهر المأمون القول بخلق القرآن مضافا إلى تفضيل علي بن أبي طالب على الشيخين، فاشمأزت منه النفوس، ودعا الناس إلى رأيه المعكوس، وكادت الفتن أن تقوم على ساقها، فكف عن ذلك إلى سنة ثماني عشرة، فامتحن الناس بالقول بخلق القرآن، فأجاب من أجاب طوعاً وكرهاً، وامتنع الإمام أحمد عنه، ومن امتنع عنه من أئمة الحديث، وطلب المأمون الإمام أحمد، فهلك المأمون، ولم يره الإمام أحمد، وكان هلاك المأمون في رجب سنة ثماني عشرة بعد المائتين»[(١)]

وقال الصلاح الصفدي: « زاد الشر والضرر في عهد المأمون، وقويت به حجج المعتزلة وغيرهم وأخذ أصحاب الأهواء ومخالفو السنة مقدمات عقلية من الفلاسفة، فأدخلوها في مباحثهم، وفرقوا بها مضايق جدالهم، وبنوا عليها قواعد بدعهم، فاتسع الخرق على الراقع، وكاد منار الحق الواحد يشتبه بالثلاث الأثافي والرسوم البلاقع »[(٢)].

وبعد وفاة المأمون تولى المعتصم، فامتحن الناس بالقول بخلق القرآن،

---

(١) عقيدة السفاريني: ١/٨ .

(٢) عقيدة السفاريني: ١/١٠ .

ونهض بأعباء المحنة قاضيه أحمد بن أبي دؤاد، وضُرب الإمام أحمد ضرباً مبرحاً، فلم يجبهم، وناظروه فلم يقفوا أمامه في ميدان الحجاج.

وسجن المخالفون، ومات بعض أهل العلم تحت التعذيب أو في السجون. ومضى المسلمون، وفي كل يوم يظهر جديد من البدع، وتداخلت البدع فيما بينها، وأصبح التراث الإسلامي يحمل في طياته مختلف هذه العقائد والتوجهات، ولا تزال هذه العقائد والتوجهات تجد في المسلمين من يحمل لواءَها، ويوقف حياته على نشرها، ويقيم المدارس لمعاضدتها، ويؤلف الكتب لتدريس مبادئها.

« ومن الذين هدموا مذهب المعتزلة بعض الذين نشؤوا على الفكر المعتزلي أمثال أبي الحسن الأشعري - رحمه الله تعالى - المتوفى سنة ٣٢٤هـ، وقد بقى معتزليا أربعين عاماً، ثم رجع إلى مذهب السلف.

وعلى الرغم من اقتراب أبي الحسن الأشعري رحمه الله من مذهب السلف إلا أن المذهب الذي ينسب - إليه اليوم - لا يمثل مذهبه الذي توفى عليه، والذي دونه في كتبه التي ألفها آخر عمره، وكبار علماء الأشاعرة يجعلون مذهبه هو المذهب الذي كان وسطا بين مذهب المعتزلة ومذهب أهل السنة »[1].

٧- لم يصل الداء إلى الجذور :

على الرغم مما فعله الاختلاف بهذه الأمّة فإنه لم يُذْهِبْ هذا الدين، ولم يزله، وقد أكرم الله هذه الأمّة بأن حفظ لها دينها الذي هو عصمة أمرها بأمرين:

الأول: بحفظ كتاب الله، فلم يحدث فيه تغيير ولا تبديل على الرغم من المحاولات التي بذلت في هذا المضمار من قبل الجهلة من

(١) سبق أن بينا هذا في المحاضرة الأولى « نظرة في تاريخ العقيدة».

المسلمين والأعداء الذين يحاولون حرف مسار المسلمين.

والثاني: وجود الفئة التي تمثل الحق في عقائدها وفكرها وتصوراتها وتوجهاتها، وقد كانت هذه الفئة متمثلة في صحابة الرسول ﷺ، فلم يعرف عن واحد من الصحابة أنه كان رأساً من رؤوس البدعة والضلال، أو أنه قال بقول من الأقوال التي نشزت وندت من بعد، فلم يكن فيهم من قال بقول الخوارج أو الشيعة أو المرجئة أو القدرية أو المعتزلة.

يقول السفاريني رحمه الله تعالى: « اعلم أن الصحابة الكرام تنازعوا في كثير من مسائل الأحكام، وهم سادات المؤمنين، وأكمل الأمة إيماناً بلا خلاف، ولكن بحمد الله تعالى لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال، بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة على كل حال، فكلمتهم واحدة من أولهم إلى آخرهم»[(١)].

ويقول العلامة ابن القيم: « إن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا في زمن النبي ﷺ على عقيدة واحدة، لأنهم أدركوا زمان الوحي وشرف صحبة الرسول ﷺ، فأزال عنهم ظلم الشكوك والأوهام»[(٢)].

وقال أيضاً: « تنازع الصحابة في كثير من مسائل الأحكام، وهم سادات المؤمنين، وأكمل الأمة إيمانا، ولكن بحمدالله لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال »[(٣)].

---

(١) عقيدة السفاريني: ١/٦ .

(٢) أعلام الموقعين: ١/٤٩ .

(٣) أعلام الموقعين: ١/٤٩ .

٨ـ السائرون على المنهج الأمثل بقوا ظاهرين على الحق عبر القرون :

وقد أصبحت فئة الصحابة في عهد الرسول ﷺ هم المقياس الذي يقاس به الحق على مدار التاريخ، إذا ما تنازع الناس واختلفوا، فإن الفرقة المتميزة صاحبة المنهج الصائب هم الذين يختطون الخطة التي كان عليها الصحابة من قبل، ويتبعون المنهج الذي اتبعه الصحابة وساروا عليه.

وقد تلقى التابعون عن الصحابة منهجهم ومسارهم علماً وعملاً، واستمرّ هذا المنهج يتلقاه اللاحقون عن السابقين، ويكثر أصحاب هذا المنهج أو يقلون، ولكن لا يخلو منهم جيل أو زمان تصديقاً لقول الرسول ﷺ: « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك »[1].

وهذه الفئة التي تمثلت في جيل الصحابة وفي الأجيال التي اتبعتهم على نهجهم من بعدهم هم الذين يمثلون الخط الأصيل في هذه الأمة، فهم ليسوا فرقة من الفرق الإسلامية أو جماعة من الجماعات، وإنما هم أهل الحق، وهم الجماعة، فالجماعة في الإسلام أولئك السائرون على الحق المتمسكون به، ولو كانوا فئة قليلة، ولا عبرة هنا بالقلة والكثرة.

وليس معنى ذلك أن وجود الطائفة المنصورة: أهل السنة والجماعة كان قليلاً، بل هم السواد الأعظم في هذه الأمة في كل جيل وعصر، وقد بقيت الفرق المخالفة مجموعات جزئية في الأمّة الإسلامية، لم يستطع واحد منها أن يزاحم أهل السنة والجماعة في أن يصبح هو جماعة المسلمين.

وقد احتاج أتباع الصحابة الذين يمثلون منهجهم في كل عصر وجيل إلى الاشتغال بالنظر والاستدلال والاجتهاد وتمهيد القواعد والأصول،

(١) رواه مسلم في صحيحه .

وترتيب الأبواب والفصول، وتكثير المسائل بأدلتها، وإيراد الشبه بأجوبتها، بسبب كثرة الوقائع والاختلاف الذي أثارته الفرق المختلفة، ولبيان ما قعَّدوه من قواعد، حتى يظهروا الحق، ويكشفوا الظلمة والغمة.

ونستطيع أن نقول بعد العرض الذي عرضناه فيما سبق:

بأن أهل السنة والجماعة هم الفئة التي استوعبت دين الله المنزل علماً صحيحاً، وفقهاً سليماً، ومثلته في واقع الحياة عملاً صائباً، وسلوكاً سوياً، وحكموه في مجتمعهم تحكيما عادلاً شاملاً، وقد تحقق ذلك في الرسول ﷺ وأصحابه في حياته، ومثَّل الصحابة هذه الفئة من بعد الرسول ﷺ تمثيلاً قوياً، ورأينا كيف صفت نفوس الصحابة ومنهجهم من كل الانحرافات العقائدية والبدع والضلالات.

ورأينا كيف قامت الانحرافات في آخر جيل الصحابة، وكيف تميز عامّة المسلمين بالمنهج السويّ، وأصبح خط الصحابة المرتبط بالكتاب والسنّة هو المَعْلَمُ الأصيل بين الفرق المختلفة على مرّ العصور، وأصبحت الخطوط الخارجه عنه هي خطوط أهل البدعة والضلالة.

فأهل السنة هم أهل الطريقة السديدة الصافية من الابتداع في دين الله، البعيدة عن كل انحراف عقائدي، الذين اجتمعت كلمتهم على الحق الذي جاء به الكتاب والسنة، وكان عليه سلف الأمة من الصحابة، ومن نهج نهجهم من التابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

ولا يعني كون أهل السنة والجماعة أصحاب الخط الأصيل أن يكونوا ملائكة أطهاراً، أحاط كل واحد منهم بالدين كله، وفقهه حق الفقه، واستقام عليه تمام الاستقامة، فقد أخبر الحقُّ أن بعض من اصطفاهم وأورثهم الكتاب ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات،

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: ٣٢].

فأهل السنة والجماعة هم الفئة الممثلة للحق، وهي تتفاوت فيما بينها في فقه دين الله المنزل، كما تتفاوت في الاستقامة على هذا الحق.

ولا يجوز أن نخرج من إطار أهل السنة والجماعة مَنْ قصَّر في فقه مسألة من المسائل، أو أصابته حيرة في التعرف على قضية من القضايا.

لقد دخل على بعض أعلام الهدى من أهل السنة والجماعة جزئية من الجزئيات التي ضلت بها بعض الفرق، فلم يخرجوه بها عن أهل السنة والجماعة، إذا لم يتبنَّ أصل الانحراف ومنهجه، ولكنهم لم يسكتوا عن بيان ما تلبس به من باطل الفرق الأخرى، بل نصحوا له وبينوا زيف ما تلبس به.

المبحث الثاني

الفرق بين العقيدة وضوابط العقيدة

لعله قد اتضح مما سبق أن الذين نازعونا في أصل من أصول الاعتقاد هم أهل الكفر، كالذين يكفرون بالله أو يشركون به، أو يكفرون باليوم الآخر، أو يكفرون برسول من رسل الله ونبي من أنبيائه، وقد أوجب الله على المؤمنين بغض الكافرين، وحرّم عليهم توليهم، وإن كنا ـ مع ذلك ـ نرجو لهم الهداية والإيمان.

أما الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، فإنهم أهل القبلة، لا نخرجهم عن دائرة الإسلام، وإن كانوا قد اختلفوا في فقه أصول الاعتقاد، ولكن الاختلاف في الأصول عظيم كبير، فرّق الأمة إلى فرق كثيرة.

وأطلق على الخط الأصيل الذي يمثله الصحابة ومن جاء بعدهم على طريقهم علماً وعملاً أهل السنة والجماعة، وأصحاب هذا التوجه يجمعهم منهج قويم، لاتفاقهم في أصل الدين على منهج سواء.

فالفرق المخالفة لأهل السنة والجماعة ـ وإن اتفقت معهم ـ في الإيمان بأصول الاعتقاد في الجملة إلا أنها تنازعهم في فقه هذه الأصول على منهج سويّ سديد.

والفرق المخالفة كانت ولا زالت تدعو أهل السنة إلى ضلالاتها وانحرافاتها، وقد أقام علماء أهل السنة عواصم وأسواراً تحمي أهل السنة من انحرافات أهل البدع، ولم يرتض علماء أهل السنة مهادنة أهل البدع في مجال الحجاج والحوار، فأغلظوا لهم في القول، حتى لا يروج باطلهم على العوام، ومن قلّ حظه من العلم.

وهنا أمر عظيم لا بدَّ أن يتنبه إليه، ألا وهو الفارق بين العقيدة وبين

القواعد والضوابط التي وضعها علماؤنا لتميز معتقد أهل السنة، حماية له من أن يلتبس بغيره، ومخافة أن يضل المسلمون في باب الاعتقاد[1].

الاعتقاد هو العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، وقد تكفل الكتاب والسنة بتوضيح هذه الأصول توضيحا ليس عليه من مزيد، وبمقدار ما تتسع المعرفة والعلم بهذه الأصول يتنامى الإيمان ويزداد اليقين عند العبد المؤمن.

أما ضوابط الاعتقاد فإنها تلك القواعد المنهجية التي تعصم صاحبها من الضلال في باب الاعتقاد، وقد وضع علماء أهل السنة والجماعة هذه القواعد في مقابل انحرافات الفرق الإسلامية في مجال الاعتقاد.

ومعرفة هذه الضوابط في غاية الأهمية، لأنها تعصم من الانحراف في مجال الاعتقاد، وتحصن المسلم ضد تلك الانحرافات، وذلك الضلال الذي وقعت فيه الفرق التي تنسب إلى الإسلام، والعلم بهذه الضوابط يعين في الرد على شبهات الخصوم ودحضها.

ومعرفة هذه الضوابط لا يحتاج إلى دراسة طويلة ووقت طويل، فيمكن للدراس أن يحيط بها ويفقهها في جلسات، وإن كان البحث في تفاصيلها يحتاج إلى وقت طويل، والخوض في التفاصيل يُترك للمتخصصين في هذا المجال، أمَّا عموم المسلمين فتكفيهم في هذا المضمار نبذة مختصرة واضحة.

وأحب أن أقرر هنا أن هذه الضوابط والقواعد ـ مع عظيم أهميتها ـ لا يمكن أن تُوجِدَ العقيدة الحيّة النابضة الدافعة إلى العمل والجهاد والمجاهدة.

إن العقيدة التي ننشد إقرارها في أعماق النفوس وخفايا القلوب لا

---

(١) ذكر شيخ الإسلام كثيرا من هذه الضوابط والقواعد في كتبه ومؤلفاته ،انظر على سبيل المثال القواعد التي ذكرها في باب الأسماء والصفات في الرسالة التدمرية .

يمكن أن تبنيها القواعد الجافة، والضوابط المقننة، إن هذه الضوابط كالحائط الذي يوضع على حافة الطريق ليمنع السالكين من الخروج عن الجادة السوية، ولكن الحواجز التي تحجز السالكين عن الانحراف لا يمكن أن تمنح السالكين القوة الدافعة التي تجعلهم ينطلقون في مسارهم بالسرعة المطلوبة.

إن الذي يوجد القوة الدافعة النابضة في أعماق النفوس لون آخر من العقيدة، وأعني بذلك العقيدة التي تقوم على العلم الذي يسوقه القرآن والسنة في الحديث عن الله وعظمته وقدرته ورحمته وهدايته وأفعاله في خلقه.

وإذا كان العلم بضوابط الاعتقاد يكفيه نبذة واضحة المعالم، فإن البحث في مجال الاعتقاد والتوسع العلمي فيه ليس له حدود، فكلما توسع العبد في هذا المجال ازداد إيماناً ويقيناً وثباتاً، وهذا العلم لا يقف فيه العبد عند حدّ، فكلما علمنا منه الجديد، دعونا الله أن يهبنا منه المزيد، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[طه: ١١٤].

وقد نبه علماؤنا إلى هذا الفرق بين العقيدة وضوابطها يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: « من شأن المصنفين في العقائد المختصرة على مذهب أهل السنة والجماعة أن يذكروا ما يتميز به أهل السنة والجماعة عن الكفار والمبتدعين، فيذكرون إثبات الصفات، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأنه تعالى يرى في الآخرة خلافاً للجهمية والمعتزلة وغيرهم.

ويذكرون أنه خالق أفعال العباد، وأنه مريد لجميع الكائنات، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن خلافاً للقدرية من المعتزلة وغيرهم.

ويذكرون مسائل الأسماء والأحكام والوعد والوعيد، وأن المؤمن لا يكفر بمجرد الذنب، ولا يخلد في النار خلافاً للخوارج والمعتزلة،

ويحققون القول في الإيمان، ويثبتون الوعيد لأهل الكبائر مجملا خلافاً للمرجئة، ويذكرون إمامة الخلفاء الأربعة وفضائلهم خلافا للشيعة من الرافضة وغيرهم»[1].

ويقول السفاريني: « سموا معرفة العقائد عن أدلتها بالكلام المشتق من الكلم وهو الجرح [2]، ومعظم خلافياته مع الفرق الإسلامية خصوصاً المعتزلة، لأنهم أول فرقة أسسوا الخلاف»[3].

وبيّن في موضع آخر « أننا لا نأخذ الاعتقادات الإسلامية من القواعد الكلامية، بل نأخذها من النصوص القرآنية والأخبار النبوية، وليس القصد بالأوضاع الكلامية إلا دفع شبه الخصوم والفرق الضالة»[4].

وتوسع في بيان هذا المعنى في موضع ثالث فقال: «ما ينبغي أن يعلم أن القواعد الكلامية ما رُتبت هذا الترتيب، وبوبت هذا التبويب لتؤخذ منها الاعتقادات الإسلامية، والقواعد الدينية، بل المقصود منها ليس إلا دفع شبه الخصوم ودحض نهج أهل البدع والضلال، فإنهم طعنوا في بعض منها بأنه غير معقول، فبين علماء السنة أن زعمهم على غاية الغلط والذهول، فإن الأنبياء تأتي بمحارات العقول لا بمحالاتها، ثم بين لهم علماء السنة بالقواعد الكلامية معقولية ما أنكروه، وزيفوا عليهم من بدعهم الفظيعة ونزاعاتهم الشنيعة ما ابتكروا، وإنما أخذ أهل السنة الاعتقادات، واعتمدوا من المعتقدات على ما جاءت به من النصوص الصريحة، والأخبار الصحيحة، ودرج عليه سلف الأمة،

---

(١) شرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية: ص ١٤ .

(٢) الأولى تسمية هذا العلم بعلم الاعتقاد أو علم التوحيد أو علم أصول الدين بدلاً من علم الكلام .

(٣) عقيدة السفاريني: ١/ ١١ .

(٤) عقيدة السفاريني: ١/ ٥ .

ونهج عليه أعلام من الرعيل الأول »[1].

وإذا كان الأمر على ما بينت، فإن مسيرة العاملين بالإسلام تحتاج إلى شيء من المراجعة والتدقيق، فليس العقائديون هم الذين يعلمون ضوابط العقيدة وحدها، ويعنون بها عناية كبيرة، ثم يظنون أنهم حققوا المطلوب، وأصبحوا الفئة المختارة المتميزة عن غيرها، إن معرفة الضوابط والعلم بها ـ كما قلت ـ أمر ضروري، ولكنه لا يكفي، والذي يجب أن تشغل به الجماعات، ويشتغل به الأفراد شغلاً كبيراً هو بناء المعرفة الواسعة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، وكما قلت من قبل: إن هذا مجال واسع رحب، يعظم قدر العبد بمقدار ما يُحَصِّل فيه من علم.

وأحب أن أنبه أيضاً في هذا الموضع إلى أن الإسلام والإيمان ليسا عقيدة فحسب، والعقيدة إن لم تترجم إلى توجيهات وأعمال قلبية، وبرامج عملية، وصياغة للإنسان بمنهج الإسلام فإن العقيدة تصبح مجرد معرفة باردة ساكنة، بل تذبل وتموت في نفس صاحبها.

إن العقيدة الحيّة النابضة تأبى أن تبقى حبيسة الصدور، بعيدة عن التمثل في واقع مشهود.

إن العقيدة الحيّة تحرك القلب وتبعثه، فيتجه إلى ربه ومولاه، فيخلص دينه لله، ويكون حبه ورجاؤه واعتماده وتوكله على الله، ويكون خوفه وخشيته ورهبته من الله، ورغبته وقصده إلى الله، وأفكاره تطوف دائماً حول ربّه ومنهجه ودينه، وتحاول أن تنظر دائماً في السبل والكيفيات التي ترفع لواء الدين وتعلي مناره، وتنشره في ربوع الأرض.

يدلك على صدق هذه النظرة أن أعظم شيء في هذا الدين هو توحيد الله عز وجل، وتوحيد الله يقوم على أصلين عظيمين: الأول:

---

(١) عقيدة السفاريني: ١/ ٧١ .

علمي نظري. والثاني: عملي.

والتوحيد العلمي: إفراد الله بالوحدانية في ذاته وصفاته وأفعاله، فهو واحد أحد فرد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، ليس له مثيل ولا نظير ولا شبيه، تعالى عن الصاحبة والولد.

والتوحيد العملي: أن يفرد العبد ربَّه بالعبادة، فيقصده وحده بعبادته، فله يصلي ويسجد، وإليه يسعى ويحفد، له صلاته كلها، ونسكه كله، وله حياته ومماته، ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

والتوحيد بأصليه يصوغ الإنسان صياغة كاملة يوائم فيها بين العقيدة المستكنة في أعماق القلوب، وبين التوجهات والأعمال الخفية والظاهرة، بحيث يكون الانسجام والاتفاق بعيداً عن التناقضات التي تقع بين معتقدات الإنسان وبين سلوكه وأعماله.

والإيمان عند أهل السنة والجماعة اعتقاد بالجنان، ونطق باللسان، وعمل بالأركان.

إن الحديث الذي أسلفته عن العقيدة وضوابطها يلقي ضوءاً على منهج أهل السنة والجماعة، فأهل السنة والجماعة يحملون الأمانة التي أنزلها الله إلى رسوله ﷺ، فهم وارثوها وحافظوها والعاملون بها، وتزعم كثير من الفرق أنها تقوم بهذه المهمة، فتأتي الضوابط لتحدد التوجه والمسار.

لم تكن عناية أهل السنة والجماعة مقصورة على هذه الضوابط، وإنما الضوابط لتحديد نوعية العقيدة والتوجه، وهذا مبحث في غاية الأهمية للرواد من أبناء المسلمين، إلا أنني أرى بعض العاملين بالإسلام عنايتهم مقصورة على هذه الضوابط، بينما العقيدة والمنهج الذي تحكمه الضوابط

لا يعنى به العناية التي يستحقها، ولا يلتفت إليه الالتفاف الذي يقتضيه مقامه.

إن الغاية التي يهدف المنهج الإسلامي إلى تحقيقها هي إقامة العباد على منهج العبودية الحقّة لله رب العالمين، بحيث يرتبط الفرد والمجتمع بالله الواحد الأحد، وبدينه المنزل، ورسوله المبعوث، ويصبح الولاء خالصاً لله وحده، وتحقيق العبودية لله هي نقطة البداية في العمل الحركي الدعوي، وهي نقطة الارتكاز وحجر الزاوية في العمل الفردي والجماعي.

والمسلم العامل بهذا الدين والجماعة العارفة بمنهج رب العالمين، عليها أن تجاهد في فقه هذه العبودية، ثم تجاهد في إقرارها في النفوس، وفي واقع الحياة، ويؤكد صدق هذه النظرة أن القرآن حصر الدين كلّه في هذه القضية، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]، ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٨]، ودلالة الحصر في كلٍّ من الآيتين، تجعل قوله: ﴿أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الأنبياء: ١٠٨]، خلاصة مركزة وافية للوحي المنزل من عند الله.

وقد أصاب الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى عندما قرّر أن: « لا إله إلا الله منهج حياة ».

ومع كون العبودية لله الواحد الأحد قضية واحدة، إلا أنها دائرة واسعة تشمل الدين كله، وقد صاغ الإسلام منهجاً كاملاً لتحقيقها في حياة الفرد والجماعة، ودائرة العبودية دائرة واضحة أبعادها، محددة معالمها، وتفصيل ذلك يتحقق بالعلم بالدين المنزل من رب العالمين(١).

---

(١) انظر في هذا ما سبق بيانه في مبحث: « التوحيد محور الحياة ».

المبحث الثالث

أصول أهل السنة والجماعة وضوابطهم في باب الاعتقاد

بينت من قبل أن أهل السنة والجماعة ذكروا في أصولهم ومدوناتهم التي دونها ما امتازوا به عن الفرق الضالة ولم يقصدوا إلى تجلية جميع الأصول الاعتقادية، ولذلك لم يتوسعوا في تجلية الجانب الاعتقادي بكل تفاصيله من الكتاب والسنة، وإنما عرضوا لما وقع فيه الخلاف كي لا ينحرف المسار بأهل الإسلام فيما زل فيه المخالفون.

وقد جلَّيت ـ بحمد الله وفضله ـ عقيدة الإسلام في ضوء الكتاب والسنة في سلسلة صدرت تحت عنوان «العقيدة في ضوء الكتاب والسنة» ولذلك سأقتصر هنا على ذكر الأصول والضوابط التي يذكرها علماء أهل السنة لتميزهم عن غيرهم في الجانب الاعتقادي، وسيكون ذكري لها على سبيل الإجمال من غير تفصيل كثير، وهي كالتالي:

١ـ تحديد دائرة الإيمان ومعرفة أهله :

اختلف أهل القبلة في تحديد حقيقة الإيمان، فذهبت المرجئة إلى أن المؤمن هو الذي يقر بقلبه بما جاء به الرسول ﷺ وإن لم يقرّ بذلك بلسانه، ولم يقم بالواجبات ويترك المحذورات.

وقرر أهل السنة أن تصديق القلب هو قاعدة الإيمان بحيث يزول الإيمان بزوال الاعتقاد، ولكنَّ التصديق وحده لا يكفي، فكثير من أهل الكفر يعتقدون صدق ما جاء به الرسول ﷺ، ولكنهم يرفضون الإقرار بما يعتقدون صدقه، ففرعون وملؤه كانوا يعلمون صدق موسى، ولكنهم جحدوا استكباراً وعلواً، وكذلك أحبار اليهود كانوا يعرفون الرسول ﷺ كما يعرفون آباءهم، ولكنهم جحدوا.

إن الإيمان الذي يبقى مستكنا في القلب لا يصاحبه نطق اللسان، ولا يصدقه الواقع العملي الذي يعيشه المسلم إيمان ضعيف، يناقض المرء فيه اعتقاده.

لقد جرّأ المرجئة المسلمين على ارتكاب الذنوب والمعاصي وعلى ترك الواجبات بدعوى أن الإيمان موجود في القلب، وأن فعل القبائح وترك الملائح لا يؤثر في الإيمان، وسرت هذه المقولة عند عوام المسلمين، فتراهم يحتجون بها عند التقصير زاعمين أن إيمانهم قويٌّ، وهو في أعماق نفوسهم، مع أنهم مرتكبون للمنكرات تاركون للخيرات.

وقد زعم المرجئة أن الإيمان شيء واحد لا يتفاوت فلا فرق عندهم بين أدنى المسلمين إيماناً وبين إيمان أبي بكر وعمر، وحسبك بهذا ضلالاً وبعداً عن الحق.

٢ـ الإيمان أصول وفروع :

وذهب الخوارج إلى أن الأعمال من الإيمان، ولكنهم قرروا في أصولهم أن الإيمان ِوحْدة واحدة لا يمكن أن يتجزأ، فإذا ذهب جزء منه فقد ذهب كله، وبذلك كفّروا كل من ارتكب المحذورات، وترك الواجبات.

وذهب أهل السنة والجماعة إلى أن للإيمان أصولاً وفروعاً، وأنه لا يزول إلا بزوال أصله، وأنَّ زوال فرعه بارتكاب المحذورات وترك الواجبات ينقص الإيمان ويشوهه، ولكنه لا يزيله ويذهبه.

فالإيمان كالإنسان قد لا تزول منه الحياة إذا نقص منه عضو كاليد أو الرجل أو العين أو الأذن، فإذا خلع قلبه أو قطع رأسه زالت منه الحياة، ولذلك قالوا في من ارتكب الكبائر من المؤمنين هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته.

وقد نص شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتبه على أن الإيمان يقبل التبعيض والتجزئة، وقليله يخرج الله به من النار من دخلها، ليس كما يقوله الخارجون عن مقالة أهل السنة إنه لا يقبل التبعيض والتجزئة، بل هو شيء واحد، إمّا أن يحصل كله أو لا يحصل منه شيء.

وأحب أن أنبه هنا أن الذي لا يقبل التجزئة هو الاعتقاد، فكل من كفر بأصل من أصول الاعتقاد فقد كفر بالاعتقاد كله، فمن كذب رسولاً فهو كمن كذب الرسل جميعاً، ومن كفر بالرسل، فقد كفر بالله.

٣ـ نصوص الوعيد عند أهل السنة :

وأهل السنة والجماعة يؤمنون بنصوص الوعيد، ويمرونها كما جاءت، ولا يعرضون لها بالتأويل، ويحكمون نصوص الوعيد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

ولا يحكمون لواحد من المؤمنين بالجنة أو النار إلا من جاء النص عليه.

ولا يوجبون العذاب لكل من توجه إليه الوعيد، فقد يغفر الله له بما فعله من طاعات، أو بإنابة وتوبة ونحو ذلك.

٤ـ منهج أهل السنة والجماعة في صفات الله وأسمائه :

وأهل السنة والجماعة يؤمنون بكل ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله، لأن رد ما أخبر به الله ورسوله في هذا الجانب تكذيب لهما، أضف إلى هذا أنه لا أحد أعلم بالله من الله، ولا أحد أعلم بالله بعد الله من رسول الله، فكيف يرد خبر الله وخبر رسوله في هذا.

وقد تنازع أهل القبلة في أسماء الله وصفاته، فوضع علماء أهل السنة والجماعة قواعد ضابطة للفقه والفهم في هذا الأصل، حتى يتحدد تحديدا يظهر الحق، وينجو المؤمن من المنزلقات التي وقعت فيها فرق الضلال، **وأهم المعالم التي وضعوها لضبط هذا الأصل هي**:

١ـ عدم تشبيه الله بشيء من مخلوقاته.

٢ـ عدم التطلع إلى إدراك كيفية الصفات.

٣ـ عدم تعطيل الله عن شيء من صفاته، وعدم تحريف الصفات وتأويلها.

٤ـ عدم تسمية الله باسم أو وصفه بصفة لم تأت بها النصوص، وهذا معنى قولهم: الأسماء والصفات توقيفية.

٥ـ إثبات معاني الصفات وفق ما تفقهه العرب من كلامها.

ولمّا كان الاختلاف واضحاً بيناً بين أهل السنة والجماعة وبين فرق الضلال في بعض النقاط، فقد نصّوا في عقائدهم على وجوب الإيمان بها، كالنص على أن القرآن كلام الله، وأن لله يدا ووجها، وأنه استوى على العرش استواء يليق بجلاله، ونحو ذلك[1].

٥ـ موقفهم من رؤية الله في الآخرة:

ونازع بعض أهل القبلة في رؤية المؤمنين ربهم في القيامة وفي الجنة، وأهل السنة يصدقون بذلك، ويعتقدون صحته، فقد صحت عندهم الأخبار بوقوعه.

---

(١) فصلنا القول في أسماء الله وصفاته في كتاب صدر بعنوان: «أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة».

٦- إيمانهم بالبرزخ واليوم الآخر :

وزعم الفلاسفة أن ما أخبرت به النصوص من النعيم والعذاب والحساب في القبر والقيامة والجنة والنار ليس له حقيقة، وإنما هو من باب ضرب الأمثال، أو من باب التخييل لإصلاح النفوس وتقويمها.

وأهل السنة والجماعة يؤمنون بكل ما جاءت به النصوص في هذا، ويعتقدون أنه حق وصدق.

٧- التصديق بالشفاعة في القيامة:

ونازع بعض أهل القبلة في شفاعة الرسول ﷺ وشفاعة غيره في الآخرة، وأهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك كله على النحو الذي جاءَت به النصوص، ولا يكذبون بشيء من ذلك.

٨- الإيمان بالقدر :

ونازع بعض أهل القبلة في القدر، فنفى بعضهم القدر السابق، وادعى أن الله لم يقدر مقادير الخلائق، وأن الله غير عالم بأفعال العباد، وغيرُ خالق لها، وادعى آخرون أن العبد ليس له إرادة وليس له فعل، ففعله هو فعل الله فيه ليس غير.

وذهب أهل السنة والجماعة إلى أن الله عَلِمَ في الأزل ما سيكون في هذا الكون صغيره وكبيره، وكتب في اللوح المحفوظ كل ما هو كائن، وأن مشيئته في عباده ماضية، فلا يقع في كونه إلا ما يشاؤه، وأن العباد لهم مشيئة وإرادة حقيقيتان،ولكنهم لا يخرجون عما قدره وشاءه.

ويؤمنون بأن العباد مطالبون بمعرفة ما أمرهم به الله فيفعلوه، وما نهاهم عنه فيجتنبوه، ولا يجوز لهم القعود عن العمل احتجاجاً بالقدر،

كما لا يجوز لهم الاحتجاج بالقدر على فعل القبائح والمناكر[1].

٩- الإيمان بكرامات الأولياء :

ومن أصول أهل السنة والجماعة التصديق بكرامات الأولياء، وما يجري على أيديهم من خوارق العادات، ولا يرون كل خارق كرامة، ذلك أن الكرامة عندهم مختصة بأهل الاستقامة.

١٠- تولي جميع صحابة رسول الله وآله الكرام:

وأهل السنة يحبون آل بيت رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، ويعترفون لهم جميعاً بالفضل، ولا يتولون طائفة منهم دون طائفة كما تفعل الفرق الضالة، ويترضون عنهم، ويدعون لهم، ولا يسبونهم، ولايلعنونهم، ويسفهونهم كما تفعل فرق الضلال، ويسكتون عن المفاضلة فيما بينهم إلا فيما جاءت به النصوص، فما قدمته قدموه، وما سكتت عنه سكتوا عنه.

ويمسك علماء أهل السنة عما شجر بين الصحابة، ويقولون تلك فتنة عصم الله سيوفنا من أن تتحرك فيها، فلنكف ألسنتنا عن الخوض فيها.

١١- إنكار المنكر والجهاد في سبيل الله :

وأهل السنة والجماعة ينكرون المنكر ويأمرون بالمعروف،ويجاهدون في سبيل الله من كفر بالله،ويقاتلون مع كل بَرٍّ وفاجر من أئمة المسلمين.

ويرى أهل السنة قتال من خرج من أهل القبلة عن شريعة الإسلام، وإن نطق بالشهادتين وأدى بعض فرائض الإسلام على تفصيلٍ ذكروه في كتبهم ومدوناتهم.

---

(١) فصلنا القول في القضاء والقدر في كتاب مستقل .

المبحث الرابع
المؤلفات في الاعتقاد على منهج أهل السنة والجماعة

وقد دون أفذاذ العلماء من أهل السنة والجماعة مؤلفات كثيرة في باب الاعتقاد، وقد عنوا فيها بإبراز أصول الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة، ودللوا على صحتها من الكتاب والسنة، وقد اقتصرت بعض المؤلفات على هذا التأصيل والتدليل.

واقتصر آخرون على إيراد البدع التي ابتدعت في مجال الاعتقاد، وبيان عوارها وزيفها وإيراد النصوص الكاشفة لتلك البدع والضلالات.

وجمعت بعض الكتب بين المنهجين.

ويلاحظ هنا ما ذكرته من قبل أن مؤلفات علمائنا لم تتجه إلى تجلية كل أصول الاعتقاد بتفريعاتها من الكتاب والسنة، وإنما كان همهم إبراز الأصول التي خالفت فيها الفرق، وبيان زيف مذاهب المخالفين لأهل السنة فيها.

وقد عنون كثير من العلماء لمؤلفاتهم في العقيدة بعنوان «**السنة**» ويريدون بالسنة هنا المنهج الأمثل الذي سلكه أتباع رسول الله ﷺ في الاعتقاد، بعيداً عن أهل البدع والضلال.

وعنون آخرون لمدوناتهم باسم العقيدة، وآخرون باسم «**الشريعة**»، وآخرون باسم « أصول أهل السنة».

ومن أول من ألّف في هذا الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، فقد وصلنا من مؤلفاته رسالتان لطيفتان في هذا الموضوع عنون لإحداهما باسم « **السنة** » وردَّ في الأخرى على الجهمية والزنادقة.

ولابن الإمام أحمد رسالة في الاعتقاد بعنوان «السنة » أيضاً، ومن

الذين عنونوا لمؤلفهم في الاعتقاد بعنوان « **السنة** » الحافظ أبو بكر عمرو ابن أبي عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني المتوفى عام ٢٨٧ هـ، والكتاب مطبوع في مجلدين، وقد خرج أحاديثه وآثاره الشيخ ناصر الدين الألباني.

وللإمام ابن خزيمة المتوفى في سنة ٣١١ هـ مجلد مطبوع في الاعتقاد عنون له باسم « **كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب**».

ومن علماء أهل السنة الذين أجادوا في الرد على أهل البدع: الإمام عثمان بن سعيد الدارمي المتوفى سنة ٢٨٠ هـ، وله في ذلك كتابان الأول: **كتاب الرد على الجهمية**، وهو يقع في (١١٨) صفحة، والثاني: **الرد على بشر المريسي**.

ومن الذين أجادوا في الرد على الجهمية الإمام البخاري صاحب الصحيح، فله في ذلك كتاب: **الرد على الجهمية**، وقد طبع مراراً.

ومن أوسع كتب الاعتقاد كتاب: « **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة** وإجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم» للحافظ أبي القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي المتوفي سنة ٤١٨ هـ، وكتابه مطبوع في أربعة مجلدات كبار.

وللبيهقي المحدث المتوفى سنة ٤٥٨هـ كتاب في «**الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث** » . وهو مطبوع في مجلد واحد.

ومن المؤلفات النافعة في العقيدة ما دونه الطحاوي رحمه الله تعالى، وعرف فيما بعد باسم « **العقيدة الطحاوية** ». وقد شرح هذا الكتاب شرحا واضحاً جيداً محمد بن محمد بن أبي العز الحنفي، وقد قدر لهذا الكتاب أن ينتشر في زماننا، انتشاراً واسعاً، وانتفع به العلماء وطلبة العلم كثيراً.

وفارس التأليف في علم الاعتقاد الذي لا يشق له غبار هو الحبر العلامة شيخ الإسلام ابن تيمية، فإنه جلى هذا العلم ورتبه وقعده، وأتى فيه بالعجب العجاب، ومؤلفاته فيها منها الصغير، ومنها الكبير، ومنها المطول، ومن طالع مجموع فتاويه التي جمعها ابن قاسم وطبعت في أكثر من ثلاثين مجلداً رأى المساحة الواسعة التي تشغلها بحوث الاعتقاد فيها.

وقد ألّف جمع من العلماء في العصور الأخيرة مؤلفات قيمة في الاعتقاد على منهج أهل السنة والجماعة، فمن هؤلاء الشيخ محمد بن أحمد السفاريني له عقيدة عرفت باسمه، وشرحها بنفسه وكان قد سماها باسم: « لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية ».

ومن الكتب النافعة في هذا المجال مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله وخاصة كتاب التوحيد، فإنه نافع جدّاً في بابه ولمحمد بن إسماعيل الأمير الشهير بالصنعاني المتوفى سنة ١١٨٢هـ رسالة صغيرة مفيدة سماها بـ « **تطهير الاعتقاد عن أدران الشرك والإلحاد**».

ولصديق حسن خان المتوفى سنة ١٣٠٧ هـ تبارك وتعالى ـ وهو أحد علماء الهند وملوكها ـ مؤلف في مجلدين سماه: « **الدين الخالص**».

وكل ما ذكرته من المؤلفات فهو مطبوع. والمؤلفات غير ما ذكرته كثيرة، منها المطبوع، ومنها المخطوط.

المبحث الخامس

خصائص منهج أهل السنة والجماعة ومميزاته

أشرت أثناء العرض السابق إلى بعض المميزات التي اتسم بها منهج أهل السنة والجماعة، ولكن هذا الموضوع يحتاج إلى مزيد من الإيضاح والبيان.

أولاً: إدراكهم حقيقة الهدف العظيم الذي يجب أن يعنى به علما وعملاً:

وقد أسلفت القول في هذا الموضوع، فالهدف الكبير الذي خلق البشر من أجله، ومن أجله أنزل الله الكتب، وبعث الرسل هو إقامة العباد على منهج العبودية لله الواحد الأحد، وهذا الأصل العظيم هو أول دعوة الرسل وآخرها وجذرها وسنامها، وهو الصبغة والإطار الذي يحكم الدين كله.

ولذلك اتجه الصحابة ومن سار على دربهم إلى العناية بهذا الأصل وتجليته، وبيان ما ناقضه من الشرك والكفر والرياء، ولا يحقق المسلم العبودية لله إلا بإخلاص الدين لرب العالمين، وهذا هو التوحيد الذي لا يقبل الله أحداً لم يحققه.

والذين يقصِّرون في العناية بهذا الأصل فإنهم لم يعرفوا دين الله حق المعرفة.

وهذا الأصل هو الحاكم لكل التوجهات الفكرية والسياسية والأخلاقية والاجتماعية، ولذا فإن الذين يَقْصُرُونَ البحث فيه على الجانب الاعتقادي فحسب لم يفقهوا سعة هذا الدين وشموله وكماله، إن هذا الأصل يتسع حتى يشمل الدين كله، ويحكم الحياة كلها.

ثانياً: الاقتصار على الكتاب والسنة في التعرف على الحق:

وهذا المنهج يقضي بأن يتفرد وحده في صياغة الفرد والأمة، ولا يشاب بضلالات الأمم السابقة، ونظريات الأمم اللاحقة، فالدين كامل واف بالغرض بشهادة أصدق الصادقين، ومزاحمة المناهج الأخرى للإسلام في المهمة التي أنزل الإسلام من أجلها يفقد الإسلام صفاءه وقدرته على التزكية والتوجيه والإصلاح.

لقد كان المنهج القرآني الإيماني النبوي القائم على أصل الأصول، وهو الإيمان بالله عند الرعيل الأول من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان هو الذي يقوّم الحياة الإنسانية ويصلحها، وهو المنهج الذي نذر أهل السنة والجماعةأنفسهم لإعلاء مناره ورفع لوائه، ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وكل المناهج التي تسود العالم اليوم لا تصلح لأن تقيم الحياة البشرية على منهج سواء، لأنها ثمرات العقول البشرية، وما كان منها وحي سماوي فإنه حرِّف وغيِّر وبدّل.

فكتب الفلسفة منذ القديم تحاول أن تضرب بسهم في هذا الميدان، ولكنها لا تستطيع أن تقدم المنهج القويم، فكل ما انتجته الفلسفة هوثمار العقول البشرية التي تتصف بالقصور والنقص والجهل، وقد عانى المسلمون كثيراً من الكتب الفلسفية المترجمة، وقد أفسدت على المسلمين كثيرا، يقول السفاريني: « قال العلماء: إن المأمون لما هادن بعض ملوك النصارى - أظنه صاحب قبرص - طلب منه خزائن كتب اليونان، وكانت عندهم مجموعة في بيت لا يظهر عليه أحد، فجمع الملك خواصه من ذوي الرأي، فاستشارهم في ذلك، فكلهم أشار بعدم تجهيزها إليه إلا مطراناً واحداً، فإنه قال: جهزها إليهم، فما دخلت

هذه العلوم على دولة شرعية إلا أفسدتها، وأوقعت بين علمائها »[1].

لقد وقع الفلاسفة قديماً وحديثاً في الكفر والشرك، واحتارت بهم السبل، حتى أنكر بعضهم الموجودات والمحسوسات.

أما الكتب السماوية التي كانت تملك خاصية إصلاح النفوس والمجتمعات فقد حرِّفت وغيِّرت، وفقدت خاصية المنهج الرباني، ثم إن الله نسخها بشريعة القرآن.

ثالثاً: عدم التقديم بين يدي الله ورسوله:

على المسلم أن يأخذ دينه ومنهجه وشريعته من دين الله عز وجل، ولا يجوز له أن يقدم على كلام الله وكلام رسوله ﷺ رأياً أو حكماً أو قياساً أو تشريعاً، ولا يجوز أن يعارض دين الله بنتاج العقول الإنسانية مهما كان مركز أصحابها وذكاؤهم وفطنتهم وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾[**الحجرات**:١].

والتقديم بين يدي الله ورسوله تقديم الأقوال والآراء والنظريات والفلسفات على كلام الله ورسوله.

وقد خالف كثير من أهل الإسلام هذا النهج في مجالات كثيرة:

١- فأهل الكلام حكّموا العقل في قضايا الشرع وأمور العقيدة، وردوا منها ما ادعوا مخالفته للعقل، فقد نفى بعضهم أسماء الله وصفاته، وآخرون أنكروا عذاب القبر وفتنته، ونفى بعضهم رؤية الله في الآخرة، وردوا بذلك النصوص الصحيحة، بدعوى أنها مخالفة للمعقول، وغير جارية على مقتضى الدليل، وأي تقديم أعظم من هذا التقديم بين يدي الله ورسوله.

---

(١) لوامع الأنوار البهية: ٩/١ .

وقد أدى بهم هذا النهج إلى الطعن في حملة السنة ورواتها من الصحابة والتابعين، بل ذهبوا إلى أعظم من هذا، فهذا عمرو بن عبيد يقول في حديث لم يَرُقْ له، ولم يستوعبه عقله الضعيف: « لو سمعته من الأعمش لكذبته، ولو سمعت زيد بن وهب[1] يقول هذا ما أجبته، ولو سمعت رسول الله يقول هذا لرددته، ولو سمعت الله يقول هذا لقلت له: ليس على هذا أخذت ميثاقنا »[2].

والحق الذي يجب الإقرار به أن كل الفرق المخالفة لمنهج السلف غلت في تقدير العقل، وقدمت حكمه على الشرع، واستعملت الموازين والمقاييس العقلية في محاكمة القضايا الغيبية، وابتعدت هذه الفرق عن الكتاب والسنة بنسب متفاوتة[3].

٢ـ وقدم المسلمون اليوم شرائع البشر على شريعة الله، فحكموا القوانين الوضعية في رقاب المسلمين ومشكلاتهم، وكل ذلك من التقديم بين يدي الله ورسوله، لقد كان القرآن صريحاً في هذا المسألة ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٤]، ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وطاعة غير الله إنما تكون في دائرة المباح الذي لم يحرمه الله، ولم يوجبه، وهي دائرة العفو، أو في دائرة تطبيق المنهج في واقع الحياة.

أما الأمر أو الشرع المضاد لشرع الله وأمره، فلا قيمة له عند المسلم، ولا يجوز طاعته، بل تجب معارضته ومقاومته، فقد أمر الله بطاعة الوالدين بعد بيان فضلهما، ثم قال: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ

---

(١) الأعمش وابن وهب راويان من رواة الحديث الذي كذب به عمرو.

(٢) تاريخ بغداد: ١٢/١٧٢.

(٣) انظر المحاضرة الأولى: « نظرة في تاريخ العقيدة للمؤلف».

لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا ﴾ [لقمان: ١٥].

وقال الرسول ﷺ: « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ».

إن العقول البشرية والبصائر النفسية لا ينتفع بها أصحابها نفعاً صحيحاً بعيداً عن وحي السماء، فعلماؤنا يقرّرون أن العقل مع الشرع، كالبصر مع ضوء الشمس، وضوء المصباح، فالمبصر لا ينتفع ببصره إلا في وجود النور، وصاحب البصيرة والعقل إذا غاب عنه ضوء الشريعة قلّماً ينتفع بعقله وبصيرته: ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

رابعاً: اتباعهم للمنهج القرآني النبوي في العلم والمعرفة:

أصل العلم ومبدؤه عندهم هو العلم بالله ـ تبارك وتعالى ـ، ومن العلم بالله تتشعب أنواع العلوم، فالعلم بالله أعظم سبيل لمعرفة الله، ومعرفة الحياة والأشياء ومعرفة النفس الإنسانية.

يقول ابن أبي حاتم: « عرفنا كل شيء بالله، وسئل ابن عباس: بم عرفت ربك ؟ فقال: أعرفه بما عرَّف به نفسه، وأصفه بما وصف به نفسه ».

وهذا الطريق إلى معرفة الله، ومعرفة أصل الحياة والإنسان، ومعرفة الغاية والهدف طريق مأمون العاقبة، محمود المسار، فالله هو العليم الخبير الخالق للإنسان وللكون الذي يعيش فيه، ولذا فإنه يعطي علماً غير مظنون، وحكما غير مطعون فيه.

وقد فقه علماؤنا هذا النهج والتزموا به، فالبخاري ابتدأ كتابه الجامع الصحيح المعروف بصحيح البخاري، وهو أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى بأصل العلم والإيمان وهو « بدء نزول الوحي »، فأخبر أولا عن

صفة نزول العلم والإيمان على الرسول ﷺ، ثمَّ أتبعه بكتاب الإيمان الذي هو الإقرار بما جاء به، ثم بكتاب العلم الذي هو معرفة ما جاء به، فرتبه الترتيب الحقيقي الذي يدل على علمه وحكمته رحمه الله تعالى.

وكثير من الفرق المخالفة لأهل السنة والجماعة لا يَدْعُون في أول الأمر إلى العلم بالله عن طريق ما جاء الله به، وإنما يدعون إلى الشك أو النظر، ونقطة البداية عند كثير من الفرق، ومنهم الفلاسفة، البحث في النفس الإنسانية، فيجعلون دراستها الأصل الذي يبنون عليه، ويفرعون عنه، وتكلموا في إدراكهم العلم، وأنه تارة يكون بالحس، وتارة يكون بالعقل، وتارة بهما.

وجعل هؤلاء العلوم الحسيّة والبدهية ونحوها الأصل الذي لا يحصل العلم إلا بها.

وكثير من المصنفين في الفلسفة يبدأ بدراسة المنطق ثم الطبيعي والرياضي، ثم ينتقل إلى العلم الإلهي، فتجد كثيراً من المصنفين في علم الكلام يبدأ تأليفه بالكلام على النظر والعلم والدليل، ثم ينتقلون إلى حدوث العالم وإثبات محدثه، ثم ينتقل بعضهم إلى تقسيم المعلوم إلى موجود ومعدوم، ثم يتكلم على أقسام الموجودات والمعدومات.

ولقد تاه أصحاب المناهج والمذاهب التي خالفت النهج الإيماني القرآني النبوي في باب المعرفة والعلم في صحراء شاسعة مترامية الأطراف، فلم يجدوا بعد طول البحث والنظر إلا الحيرة والشك، ومات كثير منهم وهو ينوح على نفسه، لأنه لم يجد برد اليقين، ولم يدرك الغاية التي ينشدها من وراء البحث والتقصي [1].

---

(١) أوردت في محاضرة: « نظرة في تاريخ العقيدة » من هذا الكتاب بعض كلام الذين تاهوا في هذا الميدان كالرازي والشهرستاني والجويني فارجع إليه إن شئت .

إن الإسلام جاء لتخليص البشر من الضلال الفكري والعلمي، كما يخلصهم من الضلال العملي والسلوكي، والذين ذهبوا بعيداً عن المنهج العلمي الذي جاء به الإسلام ظلموا أنفسهم، لأنهم أبوا إلا أن يعتمدوا على عقولهم فيما لا تستطيع عقولهم تحصيله والوصول إليه.

خامسا: التوسط والاعتدال:

يجنح البشر في كثير من الأحيان إلى التطرف فيما يعتقدون، وفي أحكامهم وتوجهاتهم، وصفة المنهج الحق أنه دائماً وسط بين باطلين، فالإسلام وسط بين الأديان، والأمة الإسلامية وسط بين أهل الملل، وأهل السنة والجماعة وسط بين الفرق.

لقد تطرف الخوارج في الحكم على العصاة من أهل الكبائر فكفروهم، وأخرجوهم من دائرة الإسلام، وتطرفت المرجئة فعدوهم في قمة التقى والصلاح، وتوسط أهل السنة في أمرهم، فعدوهم مسلمين مؤمنين، ولكن في إيمانهم نقصاً وتشوها، ولذلك قالوا في الفاسق: هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته.

وغلت بعض الفرق فزعمت أن العبد مجبور على فعله، فهو كالريشة في مهب الريح لا يملك حولاً ولا طولاً، وليس له إرادة تصدر عنها الأقوال والأفعال، وغلت طائفة أخرى زعمت أن لا قدر، وأن العبد يخلق فعله، وتوسط أهل السنة عندما قالوا إن للعبد اختياراً، ولكنه لا يخرج عن دائرة المشيئة الإلهية على حد قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

وتطرفت طائفة نفت عن الله أسماءه وصفاته، وتطرفت طائفة أخرى شبهت الله بخلقه، وتوسط أهل السنة والجماعة، فأثبتوا لله ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير

تحريف ولا تعطيل.

وغلت طائفة أخرى في علي بن أبي طالب، فزعمت أنه أفضل الصحابة، وأنه وَصِيُّ رسول الله نص الله على إمامته، وأن الإمامة من بعده محصورة في أبنائه، وغلت فيه وفي الأئمة من أبنائه حيث رفعتهم إلى مرتبة النبوة، وزعمت فيهم ما ليس فيهم، وادعت أن الإمامة على النحو الذي قرروه أصل من أصول الإيمان، لا يتم الإيمان إلا به.

وغلا هذا الفريق في صحابة الرسول ﷺ فاعتبروهم خونة، لأنهم ولوا الخلافة من لا يستحقها، وكذبوا بالسنة التي وردت عن طريقهم.

وغلت طائفة أخرى فسبت علياً وتحاملت عليه.

وتوسط أهل السنة والجماعة، فتولوا جميع صحابة رسول الله ﷺ، وصانوا ألسنتهم عن الطعن فيهم، ودعوا لهم بالمغفرة والرحمة، وقبلوا ما نقلوه عن رسول الله ﷺ ورتبوا الصحابة في الفضل وفق ما نصت عليه الأحاديث، وسكتوا عمن لم تُحَدِّدُ النصوص مرتبته.

يقول السفاريني رحمه الله تعالى - في أهل السنة والجماعة: « هم وسط في باب أفعال الله تعالى بين الجبرية والقدرية، وفي باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية من القدرية وغيرهم، وفي باب الإيمان بين الحرورية والمعتزلة، وبين المرجئة والجهمية، وفي أصحاب رسول الله ﷺ بين الرافضة والخوارج »[1].

سادساً: الاتفاق على الحق والدعوة إلى الوحدة:

وأهل السنة والجماعة يعرفون الحق، ويدعون إليه، فهم دعاة وحدة لا دعاة فرقة، ولكنها وحدة تقوم على أصول، فلا يدعون إلى نسف

---

(١) عقيدة السفاريني: ١/١٩ .

الحواجز التي تقوم بينهم وبين الفرق الضالة، لأن الضوابط والقواعد والأصول التي يتبعونها تميزهم عن الفرق الضالة، وتظهر أصالتهم ونصاعة منهجهم.

ولا يخرجون من إطار أهل السنة والجماعة العصاة المذنبين، ولا يخرجون من أخطأ في جزئية من جزئيات المنهج، ما دام ملتزما بالمنهج على وجه العموم.

والناس اليوم طرفان ووسط، فالطرف الأول الذي يريد أن يلغي كل فارق بين الفرق الإسلامية وأهل السنة، والطرف الثاني الذي يخرج من إطار أهل السنة كل من عرف بزلة في المنهج العلمي أو العملي.

والأصل الالتزام بالحق والدعوة إلى الوحدة في ضوء الأصول والضوابط التي قعَّدها علماء أهل السنة والجماعة .

سابعاً: الحكم على الناس بالعدل:

ومن أصولهم الحكم على الناس بالعدل، فلا يخرجون من دائرة الإسلام إلا من كفر بمعلوم من الدين بالضرورة بعد أن تقام عليه الحجة، حتى الفرق المناوئة لهم لم يبادروا إلى تكفيرهم وإخراجهم من دائرة الإسلام، فلم يقاتلوا الخوارج على الرغم من تكفير الخوارج لمن خالفهم حتى سفك الخوارج دماء المسلمين، واستباحوا حرماتهم.

ولم يكفِّروا العصاة من أهل السنة،فقد نصَّ الحق - تبارك وتعالى - على أن الفئة الخيرة المصطفاة، منها المقتصد الذي يقتصر على فعل الواجبات وترك المحرمات، ومنها الظالم لنفسه بالذنوب والمعاصي، ومنها السابق بالخيرات، الذي أكثر من المستحبات بجانب أخذه بالفرائض والواجبات، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: ٣٢].

ثامنا: أسلوب تناول العقيدة وطريقة الاستدلال:

الأسلوب الذي يستعمله علماء أهل السنة والجماعة في الحديث عن العقائد وتقعيد القواعد أسلوب القرآن الكريم، وهذا أسلوب عربي مبين، خال من الجفاف والتعقيد والمصطلحات الكلامية والفلسفية، وهذا الأسلوب كما يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: أسلوب يمتاز بالحيوية والإيقاع، واللمسة المباشرة والإيحاء: الإيحاء بالحقائق الكبيرة التي لا تتمثل كلها في العبارة وحدها، بل توحي بها العبارة.

وهذا الأسلوب يخاطب الكينونة الإنسانية بكل جوانبها وطاقاتها ومنافذ المعرفة فيها، ولا يخاطب الفكر وحده في الكائن البشري كما هو الحال في كتب الفلسفة وعلماء الكلام.

إن الأسلوب الذي صيغت به كتب الفلسفة وعلم الكلام لا يصلح لعرض العقيدة الإسلامية، فإنه أسلوب يحاول حصر الحقيقة في العبارة، وهو أسلوب يقتل العقيدة، ويطفئ إشعاعها وإيحائها، ويقصرها على جانب واحد من جوانب الكينونة الإنسانية.

إن الأسلوب الذي صاغ به القرآن العقيدة الإسلامية، واتبعه علماء أهل السنة من بعد ذلك يتسم بالبساطة والوضوح، ويجعل إدراك العقيدة سهلاً ميسراً لكافة المستويات من الناس على اختلاف مداركهم وفطرهم، أخذ كل حسب طاقته من التفكير والإقناع، بخلاف تلك الأساليب الفلسفية والكلامية المعقدة المتلئة بالمصطلحات، إذ لا يدرك محتوياتها إلا القليل من الناس[1].

أما منهج علماء أهل السنة والجماعة في الاستدلال فهو منهج نابع من المنهج القرآني النبوي الذي يتسم بأنه منهج فطري قريب المأخذ، فالقرآن مثلاً يستدل بالآيات نفسها على وجود صانعها، من غير احتياج

(١) راجع في هذا خصائص التصور الإسلامي لسيد قطب: ص ١٦ .

إلى إقامة الأقيسة التي أقامها المتكلمون للاستدلال على حدوث العالم، فالعلم بكون هذه العوالم مخلوقة مربوبة أمر فطري لا يحتاج إلى إقامة دليل وبرهان، فالإنسان يعلم بفطرته أن هذا الكون الذي يراه فقير إلى الخالق، مقهور مربوب، وهذا لا يحتاج إلى الأقيسة التي أقاموها كي نعلم حدوث العالم وأن له محدثاً.

والقرآن أورد من الأدلة العقلية التي يحتاج إليها في العلم بالله ووحدانيته ما لا يقدر أحد قدره، ونهاية ما يذكره المتكلمون جاء القرآن بخلاصته على أحسن وجه، وذلك كالأمثال المضروبة التي يذكرها الله في كتابه التي قال الله فيها: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الكهف: ٥٤].

والأدلة العقلية التي استفادها علماء أهل السنة من كتاب الله ونسجوا على منوالها في الحجاج والاستدلال كلها لائقة بجلال الله وكماله، فلم يستعملوا قياس الشمول، ولا قياس التمثيل الذي يستوي أفراده في حق الخالق جل وعلا، لأنه يلزم منهما تسوية الخالق بالمخلوق.

وإنما يستعمل في حقه - تبارك وتعالى - قياس الأولى الذي مضمونه أنَّ كلَّ كمال وجودي غير مستلزم للعدم ولا للنقص بوجه من الوجوه اتصف المخلوق به، فالخالق أولى أن يتصف به، لأنه هو الذي وهب المخلوق ذلك الكمال، ولأنه لو لم يتصف بذلك الكمال مع إمكان أن يتصف به لكان في الممكنات من هو أكمل منه وهو محال ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠].

وكل نقص ينزه عنه المخلوق فالخالق أولى بالتنزه عنه.

ويلاحظ أن الأدلة العقلية الكلامية والفلسفية أكثرها ضعيف لا ينهض للاستدلال على المطلوب، وضعف الدليل الذي يستدل به على الحق

يؤدي إلى كثرة الشك والاضطراب والحيرة، بل قد يؤدي إلى ردّ الحق، إذ يسهل على الخصم بيان عوار الدليل، فإذا ردَّه ردّ الحق مع أن الحق قويٌ في ذاته، والضعف إنما هو في الدليل الموصل إليه.

لأجل ذلك نجد أهل الكلام أكثر الناس انتقالاً من قول إلى قول، وجزماً بالقول في موضع وبنقيضه في موضع آخر، بل يكفرون بقول ما، وهم ممن قال به في موضع آخر.

بخلاف الأدلة التي استفادها أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة، فإنها تدل على الحق بأبلغ عبارة وأوجزها، وأصحابها مستقرون عليها آخذون بها، لا يتلجلجون، ولا يضطربون [(١)].

ويلاحظ أن بعض أدلة المتكلمين يلزم منها لوازم باطلة، فقد نفوا ما قرره القرآن من كون الله في السماء، وأنه يُرى في الآخرة بدعوى أنه يلزم من إثبات ذلك أن يكون في جهة، ونفوا ذلك بحجة أن الذي في جهة يكون متحيزاً، مع أن النصوص قد دلت دلالة صريحة على كونه في السماء، ونفت النصوص الباطل الذي لزم دليلهم، فالسماء لا تحويه جل وعلا، وإنما المراد من كونه في السماء أنه في العلو.

---

(١) راجع مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٤/ ٥٠ .

خاتمة

الجماعات الإسلامية ليست فرقاً اعتقادية

في كلمة الختام أحب أن أوضح بأن منهج أهل السنة والجماعة اليوم لا يزال واضحاً بيِّنَ المعالم، وأتباعه موجودون في مشارق العالم الإسلامي ومغاربه، وهم متفاوتون في فقه المنهج والعمل به، والاستقامة عليه، ولا يزال لبعض الفرق الضالة وجود ظاهر، وبعضهم نشط في بيان مذهبه والدعوة إليه بشتى الوسائل والسبل، وبعض تلك المذاهب قد اندثر وزال، ولم يبق منه إلا أفكار أصحابه وآرائهم، ولكن لا يوجد له أتباع يمثلون فِرَقه.

وقد جدّ على أهل السنة اليوم أمر لم يكن له مثيل في العالم الإسلامي من قبل، فقد زال سلطان الإسلام وحكمه عن أكثر ديار الإسلام، وحكمت أكثر هذه الديار بشرائع وضعية مضادة ومحادة للشريعة، ولا توجد للمسلمين دولة تحمي وجودهم، وتدافع عن إسلامهم وعقيدتهم، وتنشر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، فقام بعض الدعاة بالدعوة إلى تجمع المسلمين على الإسلام في مواجهة دعوات الكفر والزندقة التي تريد اغتيال عقيدة المسلمين وشريعتهم، واستجاب لكل داعية فئات من المسلمين، قد يقلون وقد يكثرون، وكان لهذه التجمعات أثر واضح في تقريب المسلمين إلى دينهم، وتقوية بنيانهم، وغسل أدرانهم، وإصلاح ذات بينهم، وإعادة ثقتهم بدينهم وشريعتهم.

وقد قام بعض الذين ينسبون إلى العلم والدعوة منادين بخطورة التجمع والجماعات زاعمين أن ذلك غير مشروع، مدعين أن هذه

الجماعات فرق جديدة، كالخوارج والمرجئة والمعتزلة، وأبرز السالكون لهذا السبيل، السلبيات والأخطاء التي أظهرها نشوء هذه الجماعات.

وأنا أوافق هؤلاء الأفاضل في أنَّ الخط العقائدي يجب أن يكون واضحاً ظاهراً في العمل الفردي والجماعي، وأوافقهم على أنه لا يجوز مجاملة الفرق الضالة، وذلك بالالتقاء في نقطة وسط بيننا وبينهم.

ولكني اختلف معهم اختلافا بينا في عدِّ الجماعات القائمة في ديار أهل السنة فرقاً ضالة.

إن الجماعات التي تتبنى الخط العقائدي لأهل السنة، وتسير على منهج أهل السنة، ولا ترضى بالانتساب إلى أي فرقة من فرق الضلال هي جزء من أهل السنة.

فإن قيل فلم هذه التسميات والتجمعات ؟ فالجواب أن هذه الجماعات لم تنشئ مذهباً عقائدياً جديداً، ولم تخالف أهل السنة في منهجهم، ولكنها قامت لتحقيق واجب عظيم، وأمر خطير هو إعلاء منار الإسلام حتى يكون الدين لله، وتكون الشريعة هي الحاكمة، ولما كان هذا لا يتم إلا بجماعة متعاونة متكاتفة كان قيام الجماعة واجباً وجوب الوسائل لتحقيق الغايات، وإلا فكيف يتم الوقوف في وجه الشيوعيين والزنادقة الباطنية الذين حاولوا اغتيال دين الأمة وعقيدتها، وتسلموا الحكم في كثير من بقاع الإسلام، وكيف يمكن للجهود الفردية أن توقف الطغيان الكبير للشر والفساد في بلاد الإسلام.

فإن قيل: فلم الجماعات إذن ؟ ولم لا تكون جماعة واحدة؟ فالجواب أن الدعاة والعلماء يختلفون في تحديد الوسائل التي يسلكونها دفاعاً عن الإسلام وأهله، والبرامج التي يطرحونها لإعادة مجد الإسلام وإعلاء مناره، والتعدد ليس خطأ دائماً، فقد يكون المتعدد كله صواباً.

ليس معنى ذلك أن ما تتبناه الجماعات من آراء وأفكار وتصورات

صحيح كله، فالجماعات كالأفراد فيها الغث والسمين، والصحيح والخاطئ، ومهمة الدعاة وأهل الرأي تقويم المسار، وتسديد الاتجاه.

ولا شك أن للجماعات القائمة في العالم الإسلامي اليوم سلبياتها كما لها إيجابياتها، ولا شكّ أنها تتفاوت في الاقتراب والابتعاد عن المنهج الحق، ولكن هذا أمر طبيعي، فالمسلمون من أهل السنة لا يمكن أن يكونوا على درجة واحدة من الفقه والفهم والتصور السليم السوي.

إنني أعيد وأزيد بأن الجماعات اليوم ليست فرقاً عقائدية جديدة، جاءتنا ببدعة جديدة ومنهج جديد، ولكنها جماعات تداعى إلى كل واحد منها أفراد للتعاون على إقامة معروف أو إبطال منكر، وأعظم معروف هو المناداة بتحكيم شرع الله، والمجاهدة في هذا السبيل، ومطالبة المسلمين بتحقيقه.

وبعض هذه الجماعات عنيت بالدعوة، وآخرون بالعلم، وفريق ثالث بمشكلات المجتمع، وبعضها اتصف بالشمول والتوازن أكثر من غيره، وكل جماعة سدّت ثغراً ونفعت في جانب من الجوانب.

والذين ينادون بهدم التجمع في ظل الإسلام وفي إطار عقيدة أهل السنة ومنهجهم يغمضون أعينهم عن الحال المؤلمة التي يعيشها المسلمون اليوم، ويطالبون المسلمين أن يواجهوا كيانات الكفر وتجمعاته بالجهود الفردية المبعثرة، وأنى للقوى المبعثرة أن تقف في وجه القوى المتماسكة المتجمعة المنظمة !!

أنا أتفق مع الذين يرون أن لا حاجة بالمسلمين إلى تجمعات إذا قامت دولة الإسلام التي توجه طاقات المسلمين إلى كل مجال من مجالات الخير، بحيث تستوعب طاقاتهم في مختلف الأعمال التي تطالب الشريعة بإنشائها، ولكن قبل أن يتحقق ذلك لا غنى للمسلمين عن أن يكون لهم وجود حتى لا تندثر البقية الباقية من وجودهم.

وكلمة أخيرة أوجهها للجماعات الإسلامية القائمة اليوم منادية بإقامة الدين وإعلاء مناره فأقول: **صححوا مناهجكم في ضوء العقيدة الإسلامية الصافية، واضبطوا ذلك بالضوابط والقواعد التي حكمت عقيدة أهل السنة والجماعة، حاولوا دائماً أن تُقَوِّموا وتُنَقُّوا وتنظفوا أنفسكم ومناهجكم، وبذلك تتقارب صفوفكم، وتتحد قلوبكم.**

ودعوة أخرى يحبها لكم كل مسلم منصف وهو أن تتحدوا على كلمة سواء، فإن لم تقدروا على ذلك فلا أقل من أن تتقاربوا، وتتفاهموا وتزيلوا سوء الظن، ولا يمنعكم ذلك من التحاور والتناصح في ظلال الأخوة الإسلامية، فإن من الظلم أن يزعم كل فريق من أتباع المنهج الواحد أنه وحده على الحق وأن الآخرين على ضلال مع اتفاق الجميع على الأصول.

وفق الله جميع العاملين بالحق لما يحبه ويرضاه، وصلى الله على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

المحاضرة التاسعة

كيف

تستعيد الأمة مكانتها من جديد

تقديم

التعريف بموضوع المحاضرة وبيان أهميته

الحمد لله قيوم السماوات والأرض، بيده مقاليد الحكم، له الأمر كله والخلق كله، يصرف الأمور ويقدّرها وفق علمه وحكمته، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعزُّ من يشاء، ويذل من يشاء، بيده الخير، إنَّه على كل شيء قدير، قوله القول، وحكمه الحكم، لا رادَّ لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا مبدِّل لأمره.

وأصلى وأسلم على عبده المصطفى، ورسوله المجتبى، خيرته من خلقه، وخاتم أنبيائه ورسله، الذي أقام الشريعة الغراء، وأنار القلوب العمياء، ومحا دولة الباطل، وطمس معالم الشرك، وأصلي وأسلم على آله وصحبه الذين جعلوه لهم قدوة وأسوة، واتبعوا النور الذي جاء به، وكانوا على المحجة البيضاء، يُقِرُّون بالحقِّ ويدعون إليه، ويجاهدون في سبيل إعلائه حتى ظهر أمر الله، وأصبح الدين كله لله، وعلى التابعين، ومن اتبع سبيلهم إلى يوم الدين وبعد:

فإنَّ الأمة الإسلامية ـ بإذن من الله وَقَدَر ـ تسلمت قيادة ركب البشرية منذ أن تكونت على يديّ معلم البشرية وهاديها محمد صلى الله وعليه وسلم، واستمرَّت على ذلك دهورا طويلة، ولكنها فقدت تلك المنزلة شيئا فشيئا، حتى أصبحت في أيامنا على الحال التي نعرفها ونشاهدها، ذلَّت بعد عزة، وجهلت بعد علم، وضعفت بعد قُوَّة، وأصبحت في ذيل القافلة بعد أن كانت في طليعتها، وأخذت تتسول على موائد الفكر الإنساني بعد أن كان منارة تهدي الحيارى والتائهين، وأخذت تضطرب في سيرها، وتتأرجح في فكرها، ولا تعرف السبيل الذي تسلكه بعد أن كانت الدليل الحاذق الرائد في الدروب المتشابكة في الصحراء التي لا يَهْتدي فيها الأدلاء المجربون.

وجاء الذين آلمهم حال أمّتهم من أصحاب الفهم الثاقب، والبصر النافذ، والرأي السديد ليفكِّروا في حال هذه الأمة في ماضيها وحاضرها، فهالهم الأمر فالبَوْن بين الحالين بعيد، والفرق كبير.

لقد جرب عالمنا الإسلامي مختلف الأنماط في عصره هذا، فقد تسلَّط على رقابنا جماعات وأحزاب وَعَدَتنا بأنَّها ستعيد لنا عزَّتنا وكرامتنا، وأنَّها ستنهي مُشْكلاتنا، وتجمع شملنا،، وتوحد جموعنا، وننظر إلى حالنا وقد مضى على الأمل الموعود وقت طويل فلا نرى إلا السراب، لقد كان حظنا مما وُعدنا به مزيدا من الفرقة والانقسام والتأخير، فقد أصبحت الأمة الواحدة أمما، والدولة دولا، وانتشر الفقر، وازدادت التعاسة في كثير من ديار المسلمين، وضاع كثير من هذه الديار عندما استولى عليها أعداء الله من الشيوعيين والصليبيين واليهود.

لقد تبين لنا تَبَيُّنًا لا لبس فيه فشل دعاة الوطنية ودعاة القومية، كما فشل الاشتراكيون والبعثيون، ولم يبق إلا الإسلام.

لقد نجح الإسلام في الماضي عندما حكم هذه الديار - ديار المسلمين - نجح في إيجاد مجتمع مثالي في عالم البشر، فقد أوجد كيانا سعدت به البشرية، وترعرعت في جنباته الفضائل والقيم الصالحة، وتناسى المسلمون في ظله العصبيات للأقوام والأجناس والأوطان، وأصبحوا في ظله أخوة، ولاؤهم لله ربِّ العالمين.

لقد أضاع المسلمون الكثير من تعاليم دينهم، وانحرف بهم المسار، واستبدلوا به عاداتٍ موروثة، وعاداتٍ وفلسفاتٍ وتوجُّهاتٍ وافدة، فكان ثمار ذلك الفرقة والانقسام والهزائم العسكرية والفكرية.

واليوم صحا المسلمون من جديد يحاولون تنظيم صفوفهم، وتَلَمُّسَ طريقهم ليحملوا الراية من جديد، غير أنَّ الطريق مليء بالصعاب محفوف بالمخاطر، فالأعداء متربصون بنا من كلِّ جانب يرصدون حركاتنا، ويقرؤون كتاباتنا، ويدرسون فكرنا، ثُمّ يأتمرون ويخططون،

ويرسلون إلينا سهامهم، وبعض سهامهم رجال من هذه الأمة، هم من جلدتنا، ويتكلمون بألستنا، ولكنَّهم يدعوننا إلى الدَّمار وغضب الجبار وقد أصيب جموع كثيرة من هذه الأمة، كما أصيب الدعاة الصالحون منها بسهام الأعداء ومكرهم وخديعتهم.

أضِفْ إلى ذلك الجهل الذي انتشر في ربوع العالم الإسلامي، والأمراض الفكرية الهائلة التي يعاني منها المسلمون في هذا العالم الرَّحْبِ، كلُّ ذلك يؤخِّر المسيرة، ويُضعِفُ تيارها، ويجعلنا نعاني معاناة هائلة، ونحن نُشُق طريقنا إلى الأمام.

وهذا البحث يسلِّط الضوء على المكانة الفضلى التي استحقّتها هذه الأمة، والسر في استحقاقها لها، ثم يبين السبب الذي عزل الأمة عن المكانة التي كانت تحتلها، وقد أعاد الباحث هذا إلى سبب واحد هو الفرقة بأنواعها: الفرقة في الدين والاعتقاد، والفرقة التشريعية، والفرقة السياسية.

كما سَلَّطتُ الضوء على الطريق الذي يعيد للأمَّة عِزَّها من جديد، ويرقى بها إلى المكانة التي كانت تحتلها، وقد أعاد الباحث هذا إلى سبب واحد، هو الوحدة بكلٍّ أنواعها، وشتى مجالاتها، وأصول هذه الوحدة: الانتماء للإسلام دون سواه، وتوحيد مصدر الهداية، ووحدة العقيدة، والوحدة السياسية المتمثلة في إقامة الدولة الإسلامية وإرجاع الخلافة الراشدة.

وَخَتَمْتُ البحث بكلمة موجزة، لإلقاء الأضواء على طرق الدُّعاة التي سلكوها في عملهم في مجال الارتقاء بالأمة إلى المستوى الذي يطمعون في بلوغها إليه.

وَفَّقَ الله العاملين بالإسلام إلى توحيد الوجهة والعمل، وإلى توحيد الصفوف وَرَصِّها، وَسَدِّ الثغرات، وتقويم النفوس وبناء الأمة بالإسلام، كي تستعيدَ الأمة مجدها من جديد.

الفصل الأول

فضل الأمة الإسلامية

المبحث الأول

معنى الوسطية

قال تعالى مبينا فضل هذه الأمة: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وأصل الوسط الموضع الوسط الذي هو الجزء بين طرفين، والوسط مركز الاتزان والاعتدال، يقول الزمخشريُّ في هذا: " الوسط عدل بين الأطراف، ليس إلى بعضها أقرب من بعض" [(١)].

وقد تعارف الناس على ذَمِّ الذي يمسك أحد طرفي الشيء ولا يلزم موضع الاعتدال، فتراهم يقولون: فلان مُتَطَرِّفٌ في أمره في مقام الذمٍّ كما يقولون: فلان معتدل في مقام المدح.

والسرُّ في ذلك أنَّ العباد في أكثر أحوالهم يجنحون إلى الإفراط أو التفريط، فترى بعضهم يجنح إلى الغلو في الرهبنة والتعبد، حتى يتركوا الزواج والملذات، ويسكنوا الفيافي والقفار، وآخرون يُغْرِقُون في العَبِّ من الشهوات والتمتع بِالْمَلَذَّاتِ بعيدا عن مقاصد الشَّرع وضوابطه، واتِّباع المنهج الوسط الذي يحقق الاعتدال والاتزان يقضي بأن يعيش المرء في دنياه آخذا منها قدرا أباحه الله من الطيبات في الوقت الذي يُؤَدِّي فيه حقَّ ربِّه، ويكون هَمُّهُ تحقيق مراد الله منه.

يقول الطبري في تفسير الوسط: " وأنا أرى أنَّ الوسط في هذا

---

(١) الكشاف: ٣١٧/١ .

الموضع، هو الوسط الذي بمعني الجزء الذي هو بين طرفين، مثل وسط الدار، وأرى أن الله تعالى ذكره إنَّما وصفهم بأنَّهم وسط لتوسُّطِهم في الدين، فلا هم أهل غلو فيه غلو النصارى الذين غَلَوْا بالترهب، وقيلهم في عيسى ما قالوه فيه، ولا هم مقصرين فيه تقصير اليهود، الذين بَدَّلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياء الله، وكذبوا على ربهم وكفروا به، ولكنَّهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك إذ كان أحبُّ الأمور إلى الله أوسطها "[1].

والوسط هو الأفضل والأحسن لأمرين:

الأول: أنَّ الأطراف يتسارع إليها الخلل والأعوار، والأوساط محميةٌ محوطةٌ، كما يقول الزمخشري[2]، ومنه قول الطائي:

كانت هي الوسط المحميَّ فاكتنفتْ بها الحوادثُ حتى أصبحت طرفا

والثاني: أنَّ الوسط هو مركز الاعتدال والاتزان، فالعرب تقول: قريش أوسط العرب نسبا أي أفضلها، والرسول ﷺ وسط في قريش، أي أفضل قريش نسبا، وفي هذا يقول زهير بن أبي سلمي[3]:

هُم وسطٌ يرضى الأنام بحُكمهم إذا نزلت إحدى اللّيالي بِمُعظَمِ

وفي محكم التنزيل ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ [القلم: ٢٨]، أي خيرهم، وقال تعالى ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، والصلاة الوسطى صلاة العصر كما ثبت في بعض الأحاديث، وما حث على الالتزام بها إلا لأنَّها خير من بقية الصلوات. وفي الحديث أنَّ الفردوس وسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن.

(١) تفسير الطبري: ٦/٢ .

(٢) تفسير الزمخشري: ٣١٧/١ .

(٣) تفسير الطبري: ٦/٢ .

وقد صرح الحقُّ - تبارك وتعالى - بأفضلية هذه الأمة على غيرها من الأمم مما يدلُّ على أنه عنى بالوسطية الأفضلية، وهذا التصريح جاء في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وصرَّح في موضع آخر باجتبائه لهذه الأمة واصطفائه لها، ولا يكون الاصطفاء والاجتباء إلاَّ لفضلها وعُلُوِّ شأنها، قال تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

المبحث الثاني
سِرُّ هذا الفضل

إنَّ هذا التفضيل الذي صَرَّحَتْ به النصوص ليس اعتباطا، وإنَّما كان لأنَّ الأمة الإسلامية استقامت على منهج الله، فالإسلام هو الذي صنع هذه الأمة، فقد بنى عقيدتها، ورسم منهجها وطريقها؛ وأقام أخلاقها وقيمها، وتأمل في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، تجد أنَّ كلمة " جعلناكم " ليس معناها خلقناكم، وإنما المعني الصحيح هو صيرناكم أمة وسطا، وإنَّما صيرها الله كذلك بدينه المنزل، عندما استقامت على الخصائص التي رسمها ربُّ العالمين، وتستطيع أن تلحظ هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فهنا مُخْرِجٌ وهو الله، ومُخْرَجٌ وهو هذه الأمة، وأداة حصل بها الإخراج على هذا النحو وهو الإسلام، فبالاستقامة على الإسلام تحققت الأفضلية.

إذن ليست الأفضلية والخيرية لقبا أطلق على هذه الأمة من غير مضمونٍ، ولكنه عنوان لحقيقة تجسَّدت في هذه الأمة، فقد سَمَا هذا

الدين بهذه الأمة في عقيدتها وتفكيرها، وتوجُّهات قلوبها وأقوالها وأعمالها ونظمها، حتى مثَّلت الأنموذج الفاضل الذي يريده الله - تبارك وتعالى - للبشرية.

وهذه الأفضلية مرهونة باستمرار هذه الخصائص في الأمة، فإذا تدنَّت هذه الخصائص أو انحرفت أو زالت، فإنَّ الخيريَّة تتناقص، أو تضمرُ أو تضعف، وهذا هو السرُّ في تخلُّف هذه الأمة في عصرنا، والسبب فيما أصابها من فرقة واختلاف، وما رماها به الأعداء من بلايا ومصائب.

إنَّ أفضليَّة هذه الأمة تتلخص بأخذها بهذا الدين في نفسها، ودعوة الناس إلى الحقِّ الذي قرره هذا الدين، ونهيهم عن الباطل الذي نهاهم عنه هذا الدين، مع تحقق الإيمان وفق ما جاء به الإسلام ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

المبحث الثالث

لم عرَّف الله الأمة الإسلامية بمكانتها وفضلها ؟

إن الحياة الإنسانية مجال صراع رهيب بين الأمم المختلفة، وكلُّ أمة تدِّعي أنَّها الأفضل والأكمل، وأنَّها التي تستحقُّ أن تغلب وتسود، وقد أخبر الله هذه الأمة بمكانتها كي لاتذلَّ في مجال الصِّراع، ولا تهون في ميدان الخصام ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩] .

لقد ادعى كلٌّ من اليهود والنصارى والوثنيّين أنَّه الأفضل والأكمل، وأنَّ غيره ليس على شيء ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ

قَوْلِهِمْ ﴾ [البقرة: ١١٣].

والذين لا يعلمون هم مشركو العرب.

وغلا اليهود والنصارى في دعواهم عندما ادعوا أنَّهم أبناء الله وأحباؤه ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ [المائدة: ١٨]، وادعوا أنَّ الجنة وقفٌ عليهم ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١].

ورتَّب كلٌّ فريق على دعواه هذه مُطالبةُ غيره باتباع منهجه ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٥].

ولا تزال الأمم المختلفة إلى اليوم تدَّعِي هذه الدعوى، لقد رفع هتلر شعار "ألمانيا فوق الجميع"، والشعب الأمريكي اليوم يشعر أنَّه من طينة أخرى غير طينة البشر، وروسيا كانت تدعي أنها جاءت العالم بإكسير السعادة.

إنَّ اليهود كانوا في ميزان الله خير الأمم عندما استقاموا على الشريعة التي أنزلها الله ـ تبارك وتعالى ـ ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٤٧].

﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [الدخان: ٣٢].

والنصارى كانوا أصحاب رسالة لهم في ميزان الله فضل عندما استقاموا على الدين الذي أنزل إليهم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ

اللَّهِ﴾ [الصف: ١٤].

ولكن اليهود والنصارى أنحرف بهم المسار، وتنكبوا الجادَّة، فأصبح اليهود مغضوبا عليهم، والنصارى ضالِّين، وهم جميعا في ميزان الله من الخاسرين، لقد غيَّرُوا وبدَّلوا، فلعنهم الله، وغضب عليهم، وضرب عليهم الذلَّة والمسكنة، وهم لا يمثِّلون اليوم الفئة الفاضلة في ميزان الحقِّ، وقد جاءت هذه الأمة من بعدهم لتكون الأمة الفاضلة.

وإذا أنت رجعت إلى سورة البقرة، وإلى ما حَدَّثنا الحقُّ فيها عن أهل الكتاب، ترى أنَّ القرآن كشف لنا عن الدعوى المُضَلِّلَةِ التي يدعيها أهل الكتاب من أنَّهم الأفضل والأصلح، وبين أنَّها دعوى زائفة، ذلك أنَّ أهل الكتاب انحرفوا عن الخصائص التي كانت ترفعهم إلى مصاف الأمة الفاضلة، وسرت فيهم العلل والأدواء التي شوهت العقيدة الصافية، والشريعة المنزلة، واختلت عندهم القيم والتصورات الإيمانية، كما اختل السلوك والقول والعمل، فمن اتهامات للخالق العظيم، إلى تشويه لسير الأنبياء، إلى تحريف للكتب المنزلة، إلى كتمان للعلم، وسفك للدماء، وتمرد على أحكام الشرع، واتباع الشيطان.

وبعد هذا البيان الطويل لحال الأمم التي تدعي الأفضلية في سورة البقرة يأتي قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. ليقرر مكانة هذه الأمة، وانها الأمة الفاضلة، كي تعرف مكانتها، ولا تهُون في مواجهة أهل الكتاب، ولقد سَمَّى أهل الكتاب الذين يحاولون انتقاص هذه الأمة، وإلقاء الشكوك حول تشريعها بالسفهاء ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢].

إنهم سفهاء فقدوا المقاييس القويمة، واختلت عندهم الضوابط، ولذلك صدرت عنهم أحكام خاطئة، وتصرفات باطلة.

أمَّا الأمم الأخرى التي تنازع هذه الأمة الفضل، ففضلها دنيوي عارض، ليس له في ميزان الله اعتبار، لأنه قائم على متاع الدنيا العارض ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ [الأنعام: ٣٢]، ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[الروم: ٧].

ولقد وصف القرآن الحضارات التي ارتقت في العلوم المادية، ولكنها انحدرت في عقيدتها وأخلاقها وقيمها بالضلال والزيغ.

إنَّ المجتمع الذي يستحق أن يوصف بالرقيِّ ـ في ميزان الله ـ هو المجتمع الذي يقيم حياته وِفْقَ منهج الله وتشريعه، وإن كان غير متقدم في مجال العمران والزراعة والصناعة.

أما الجاهلية فإنها تعتبر المجتمع راقيا إذا كان يملك العلوم المادية، والمجتمع المتأخر في عرفها هو المجتمع الفقير الذي لايملك أسباب الرقي المادي وتنتشر فيه الأمية.

ونحن عندما ندرس المجتمع الإسلاميَّ المثاليَّ نراه كان مجتمعا فقيرا، لا يكاد الفرد يجد فيه ما يسد رمقه، ولا ما يواري جسده، وكانت بيوت الرسول ﷺ يمرُّ عليها الهلال والهلال والهلال، ثلاثة أهلة في شهرين ـ كما تقول أمُّ المؤمنين عائشة ـ ولا يوقد فيها نار لإنضاج طعام، والذين كانوا يُحسِنون القراءة والكتابة في ذلك المجتمع قليل، والصناعات والعلوم التي ترقى بالحياة في جانبها المادي كانت فيهم قليلة نادرة.

إنَّ نظرة الجاهلية إلى المجتمع الصالح المتحضر تصادم نظرة الإسلام، إن الإسلام يَصِمُ أكثر التجمعات الإنسانية تقدما بالتأخر والرجعية والضلال إن لم تحقق العبودية لله، ولم تُقِمْ حياتها وتشريعاتها وفق منهج الله، إنَّ هذا الرقي الماديَّ والعلم المادي لم يخلص فرعون ونمرود وعادا وثمود وغيرهم من الأمم من مقت الله وغضبه.

ليس معني هذا أن الإسلام يحارب الرقيَّ الماديَّ، فالإسلام يأمرنا بأن نسعى في الأرض لنسخر ما فيها من خيرات لصالحنا، ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥]، ولكنه يريد منا أن نبني هذا الرقيَّ على أصول سليمة قويمة.

يريدنا أن نقوم على الحياة ونضبطها بضوابط إلهية تحميها من الانحراف والضلال، فلا نقيم الصروح الضخمة التي تستنفذ طاقات الألوف وعشرات الألوف من البشر لغاية تافهة، كما فعل بناة الأهرام الذين أفنوا أعمار أجيال ليقيم الحاكم منهم هرما يكون له قبرا، أو كما فعل النصارى عندما أقاموا الكنائس الفخمة والأديرة، وبذلوا في سبيل ذلك جهودا وأموالا هائلة كان أكثر الأمة بحاجة إلى القليل منها. وقد أنكر هود على قومه مثل هذه الأفعال الحمقاء ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨، ١٢٩].

والجاهلية الجديدة أثمرت حضارة مادية هائلة سخَّرتها لخدمة الشيطان، وإقرار الظلم وإزهاق الحقِّ، وامتصاص دماء الشعوب المغلوبة على أمرها، وإزهاق أرواح الملايين من البشر لا لشيء إلا لكي تكون العزة لأمة على بقية الأمم، أو لشعب على بقية الشعوب.

نحن لا نوافق الأمم التي تدعي أنَّها الأفضل والأحسن، لأنَّها تملك العمارات الشاهقة، والحدائق الغناء، والمسارح الرحبة، والقصور الفخمة، والشوارع المنسَّقة، والمدارس والجامعات والمستشفيات.. لا نوافقها على أنَّها الأفضل من أجل ذلك وحده، ولا لأنَّها توصلت إلى علوم هائلة بنت بها الرقيَّ الماديَّ، ولو كان هذا صحيحا فإنَّ اللصَّ صاحب القصر الكبير أفضل من الشريف صاحب الكوخ الصغير، والعالم الذي يخطط لتدمير البشرية أفضل من الإنسان العاديِّ الذي يسعى في إصلاح العباد.

لقد أقامت كثير من الأمم حضاراتٍ راقيةً في المجال الماديِّ، ولكنها أقامتها على أسس ظالمة فأتي الله بنيانهم من القواعد، ودمَّر ما كانوا يعرشون ﴿فكأيِّن مِّن قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطَّلة وقصر مَّشيد﴾[الحج: ٤٥]﴿وكأيِّن مِّن قرية أمليت لها وهي ظالمة ثمَّ أخذتها وإليَّ المصير﴾ [الحج: ٤٨]، ﴿وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين، فلمَّا أحسُّوا بأسنا إذا هم مِّنها يركضون، لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلَّكم تسألون، قالوا يا ويلنا إنَّا كنَّا ظالمين﴾[الأنبياء: ١١ ـ ١٤].

المبحث الرابع
عوامل ارتقاء الأمة الإسلامية إلى المكانة الفضلى

حَقَّقَ المسلمون ـ بفضل الله ورحمته ـ في عالم البشر الرقيَّ العظيم الذي أصبحوا به خير أمة أخرجت للناس.

ويُمْكِنُنَا أن نلخِّص العوامل التي أوصلتهم إلى هذا الرقيِّ العظيم في عبارة واحدة: « لَقَدْ حَقَّقُوا الْهَدَفَ الذي خَلَقَهُمْ الله من أجله، ألا وَهُوَ الْعُبودِيَّةِ لله الْعَظِيم». ﴿وما خلقتُ الجنَّ والإنس إلاَّ ليعبُدون﴾ [الذاريات: ٥٦].

ومن أجل تحقيق هذا الهدف العظيم أنزل الله كتبه وأرسل رسله، ﴿وما أرسلنا من قبلك من رَّسول إلاَّ نوحي إليه أنَّه لا إله إلاَّ أنا فاعبدون﴾ [الأنبياء: ٢٥]. ويحقِّق البشر العبودية لله في عالمهم عندما يرضون بالله إلها معبودا، ويتَّخذون دينه الذي أنزله منهجًا يستمدُّون منه عقيدتهم وأخلاقهم وتشريعهم، فالدِّين الذي أنزله الله هو المنهج الذي يقيم العباد على النحو الذي يريده الله ـ تبارك وتعالى ـ، وهو نظام كامل يصوغ حياة البشر صياغة إلهيةً ربانية، لذا فإنَّ العبارة التي تقول: " إن الإسلام منهج حياة" تلخص القضية بأوجز عبارة وأوضحها.

وتحقيق العبودية باتخاذ الإسلام منهج حياة يحقق الصلاح للنوع الإنساني في داخل نفسه وفي مجتمعه، ولذلك لم يبعد عن الحقيقة الذين قالوا: إن غاية الدين الذي أنزله الحقُّ - تبارك وتعالى - هو إصلاح النوع الإنساني، وقطع دابر الفساد. فقد قال شعيب لقومه: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، وذم الله المفسدين في الأرض: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

إن إصلاح الإنسان حسب فقهنا لكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ يتم بأمرين:

الأول: إصلاح الفرد، وذلك بإصلاح عقيدته، وتصوراته، وأفكاره، وقيمه، وأخلاقه، وموازينه، وأعماله.

الثاني: إصلاح المجتمع الإنساني بإصلاح علاقاته، ونظمه، وقوانينه.

وإذا أنت تأمّلت سيرة المصطفى ﷺ، رأيت عنايته كانت مُنْصَبَّةً في المرحلة المكية على تحقيق الأمر الأول وهو إصلاح الفرد، بينما كانت عنايته متجهة في المرحلة المدنية إلى تحقيق الأمر الثاني، وما أسلم صلوات الله وسلامه عليه الروح لبارئها، إلا بعد أن قام المجتمع المسلم الصالح الذي يقوم على أفراد صالحين.

لقد نجح الإسلام في إقامة مجتمع صالح، استنارت بصائر أفراده، وصلحت عقائدهم، واستقامت أخلاقهم، وأحكمت العلاقات فيما بينهم، وكانت الدينونة فيه لله وحده، وكان حاكم المسلمين فيه واحدا منهم، يخضع لسلطات الشريعة كما يخضعون، ويحاسب كما

يحاسبون، ونسج الإسلام من ذلك المجتمع وِحْدَةً، كانت آصِرَتُهَا الدِّين، ولُحْمَتُها التقى، وهَدَفُهَا تحقيقَ العدل في ربوع الأرض بمنهج الحق.

وساح المسلمون في المشارق والمغارب ينشرون دين الله، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وتحطَّمت القوي الجاهلية الجبارة أمام المدِّ الإسلامي المتماسك، وأصبحت الدولة الإسلامية هي الدولة العظمي إلى أمد ليس بالقصير، وَصَدَّق الله في هذه الأمة قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١].

لقد كان العرب في جزيرة العرب حياري تائهين ضَالِّين يسلب قويُّهم ضعيفَهم، ويقتل بعضُهم بعضًا، لا دينَ يجمعهم، ولا ملكَ يوحدهم، فغيَّروا ما بهم من أمراض، وأصلحوا نفوسهم وأُمَّتهم بالدين، فارتقوا إلى مرتبة لم يسبقهم فيها سابق، ولم يلحقهم فيها لاحق، وكانوا كما قال الحقُّ - تبارك وتعالى -: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

لقد أنجز الله لهم ما وعدهم، فاستخلفهم في الأرض، ومكَّن لهم دينهم الذي هو سبب عِزَّتِهم وذكرهم، عندما أنجزوا ما شرطه الله عليهم ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور: ٥٥].

ولا نَزَالُ إلى اليوم ننعم ببقيةِ صلاح الأجيال الأولي التي حملت الإسلام، فعلى الرغم من البلايا والرزايا التي تَعَرَّض لها الإسلام من أعدائه وحكامه عبر تاريخ المسلمين الطويل، إلا أنَّ الإسلام لا يزال له وجود ظاهر، وحملته من المسلمين منتشرون في كلِّ مكان.

الفصل الثاني

تأخر الأمة وانحطاطها

إن المتفكر في حال الأمة الإسلاميَّة عندما يقارن بين حاضرها المشهود، وماضيها الغابر يهوله الأمر، فالبون شاسع، والفرق بعيد، وعندما يُرْجِعُ الباحث النظر مرة أخرى مقارنا بين الواقع المشهود، والموقع الذي رسمه القرآن لها، فإنه يجدها لاتتبوأ المقعد الذي حَدَّدَه القرآن لها.

والدارس لخط سير تاريخ الأمة الإسلامية يجد أنَّ استمرار الأمة الإسلامية على خصائصها التي جعلتها خير أمة أخرجت للناس، لم يستمرَّ على وتيرة واحدة، فالخطُّ البياني كان ولا يزال مذبذبا بين هبوط وصعود.

وقد أشار الرسول ﷺ إلى هذا التذبذب في خط سير الأمة الإسلامية، فقد سأل حذيفة بن اليمان الرسول ﷺ قائلا: " يا رسول الله إنَّا كنَّا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال: نعم.

قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال: نعم، وفيه دخن.

قلت: وما دخنه ؟ قال: قوم يستنون بغير سنتي، ويهتدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر.

قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فيها.

قلت: يا رسول الله، صفهم لنا، قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا.

قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك ؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم.

قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام. قال: فاعتزل تلك الفرق كلّها، ولو أن تعضّ على أصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك. " رواه البخاري.

فالأمة الإسلامية كما يشير الحديث يصيبها الشر فَتَهْزَلْ، ثم تعود إلى أصالتها، وقد تكون العودة، عودة مشوبة فيها دخنٌ على حد قول الرسول ﷺ: " وفيه دخن ". وقد يكون الانحراف هائلا، وذلك عندما يتسلط على رقاب هذه الأمة دعاة على على أبواب جهنم، يدعون الناس إلى مذاهب كافرة، فمن استجاب لهم كان مصيره النار، وبئس القرار.

لقد ألمحنا من قبل إلى أن الرُّقي العظيم الذي رَفَعَ هذه الأمة هو أخْذُها بالدين الذي أنزله ـ تبارك وتعالى ـ، ثم التفافها حول هذا الدين، فأصبحت أمة واحدة، فتشكلت من هذه الأمة قوةٌ هائلة لا تغلب.

المبحث الأول

العوامل التي أدَّت إلى تأخر الأمة وانحطاطها

ويمكن أن نعيد تأخر المسلمين وانحطاطهم إلى قضية واحدة، هي الفرقة التي فرقت وحدتها، فجعلتها أمما وشيعا وطوائف وتجمعات.

إن السمة العظيمة التي تعطي الأمة الإسلامة مكانة قوية هائلة هي اجتماعها على أساس من دينها، وهذه حقيقة أثبتها القرآن ونبَّه إليها وأمر بها، فقد أمرنا القرآن بالوحدة ونهانا عن الاختلاف والتفرق، قال

تعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ثم ذكَّرنا بالحال التي كنا عليها قبل الإسلام، فقد كنا قبائل متفرقة، يقتل بعضُها بعضًا، ويسبي بعضُها بعضًا، فجاءنا الله بالإسلام، فأصبحنا في ظلِّه إخوة أحبة ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ثم نهانا الحق - تبارك وتعالى - عن مسلك الأمم السابقة، وهو التنازع والاختلاف بعد أن جاءتنا البينات ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقد أخبر جلَّ وعلا أنَّ التنازع والاختلاف يسبب الفشل وذهاب القوة، ذلك أنَّ الوحدة تجعل الأمة قوية متماسكة في وجه الرياح والأعاصير، وعندما توجه هذه القوة مجتمعة نحو أعدائها، فإنَّها تفتت بَأسَهم، وتقضي على كيدهم، فإذا اختلفت الأمة أصبح بأسُها بينها، وهذا هو الفشل، لأنَّها تدمِّر نفسها بنفسها، وعند ذلك ينال أعداؤها منها ما يريدون.

وقد حذرت النصوص من هذا المصير، وأخبرت أنَّ الفرقة تعني ذهاب القوة وغلبة الأعداء ﴿ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وفي صحيح مسلم عن ثوبان - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: " إن الله زوي لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوي أنفسهم، فيستبيح بيضتهم.

وإن ربي قال: " يا محمد، إذا قضيتُ قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أنْ لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدوا فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضا، ويسبي بعضهم بعضا ".

إن الوعد الإلهي في غاية الوضوح، لقد وعد الله هذه الأمة بالنصر والتأييد والغلبة ما دامت متَّحدة على كلمة سواء، فإذا تفرقت واختلفت واقتتلت، فهناك تكون الهزائم وتَسَلُّط الأعداء، وحلول النِّقَم والبلايا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد وقعت الأمة الإسلامية في المحذور، فتفرَّقت، وتنازعت واختلفت، وتعدَّدت أشكال الفُرقة، ويمكن إرجاعها إلى ثلاثة أنواع:

١ ـ الفرقة العقائدية.

٢ ـ الفرقة التشريعية.

٣ ـ الفرقة السياسية.

وسنعرض لكل واحدة من هذه الأنواع الثلاثة بقدر ما يسمح به المقام.

المطلب الأول

الفرقة في الدين والاعتقاد

أخطر أنواع الفُرْقة: الفُرْقة العقائدية، لأنَّ الإنسان أسير فكره ومعتقده، وما عَمَلُ الإنسان وسلوكه وتصرفاته في واقع الحياة إلا صَدَيً لفكره وعقيدته، ومن هنا كان تَبَنِّي الفكرَ المنحرف، وَغَرْسُ العقائد الضالّة في قلوب المسلمين موجبا لاختلاف المسلمين في واقع الأمر.

إن ّالله أراد لهـذه الأمة أن تنضـوي على اخـتلاف أجناسـها وألوانهـا ولغاتـها تحت اسم واحد هو الإسـلام، ولكنَّ الدعوات الضـالّة لم تزل تُطِلُّ برؤوسـها عـبـر التـاريخ الإسـلامـي لِتُجَزِّئَ المسلمين إلى فـرق وجماعات، تخالف الإسلام مخالفة كليّةً أو جزئية.

إنَّ بعض الدعوات والانحرافات التي نشأت في المسلمين تنادي بتوجه المسلمين إلى عبـادة غير الله، واتباع منهج غـير منهجه، فـعادت في ديار المسلمين كـثـيـر من مظاهر الشـرك المتـمـثـلة بعـبـادة الأولـيـاء والأمـوات والأشـجـار والأحـجـار، فـتـرى بعض الجـهلة من المسلمـين يدعـونهـا، ويستغيثون بها، وينذرون لها ويحجـون لها، ويخافون منها كخوفهم من ربِّ العباد.

هذه طائفة لهـا أتباع وأنصار يُعَدُّون بعشرات الملايين، يـزعمون أنهم مسلمـون، ومؤسس الجماعـة يطالب أتباعه إذا مـا وقع الواحد منهم في الكرب أن يناديه هو، لا أن يلجأ إلى الله، يقول من قصيدة له:

إذا كُنْتَ فِي هَـمّ وَغَـمّ وَكُرْبَةٍ فَنَادِني أيَا مِـــرْغَنِي أُنْجِيكَ مِنْ كُلِّ كُرْبَةِ

وهذا البُوصـيري يمدح الرسـول ﷺ، فيأتي بـقصيـدة مُدْهِشَةٍ، ولكنه أذهب جمـالها وبهاءها وطمس ضيـاءها بما قَذَّرها به من شرك، وبِغُلُوِّهِ في الرسول ﷺ، ودعائه له من دون الله، وفي ذلك يقول:

يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مَالي مَـــنْ أَلُوذُ به سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الْحَادِثِ الْعَمَمِ
وَلَنْ يَضِيقَ رَسُولَ الله جَاهُكَ بِي إِذَا الْكَــــرِيمُ تَحلّى بِاسْمِ مُنْتَقِمِ
فَإِنَّ مِـــنْ جُودِكَ الدُّنْيا وَضَرّتَهَا ومِـن عُلومِكَ عِلْمُ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ

إن البلاء الأعظم الذي أصاب البـشر كما يعلمنا القرآن هو اخـتلافهم في الدين، وذلك باتخاذهم من دون الله أندادا، وعـدم استقامـتهم على دين الله ومنهـجه، وفـي ذلك يقول رب العـزة ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً

وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ، فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٢، ٥٣].

ويقول في موضع آخر: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ، وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٢، ٩٣].

وقد فَسَّر ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعبد الرحمن بن أسلم الأمة الواحدة التي وردت في النّصَّيْنِ السابقين بالدين الواحد [(١)].

والتَقَطُّع الذي أشارت إليه الآيتان هو التفرق والاختلاف، وعبادة غير الله واتباع غير منهجه، وقد لا يصل الأمر إلى عبادة غير الله، ولا إلى الخروج عن دين الله خروجا تاما، ولكنّ الأمة تختلف في الأصول، وكلُّ هذا يفرِّق الأمة، وقد أخبرنا الرسول ﷺ أنَّ هذا البلاءَ قد أصاب الأمم من قبلنا، وأنه سيصيب هذه الأمة، كما أصاب غيرها من قبلها.

ففي سنن أبي داود ومسند أحمد بإسنادٍ صحيح عن معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه - قال: قام فينا رسول الله ﷺ فقال: " ألا إنّ مَنْ كان قبلكم أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملّة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين، اثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة وهي الجماعة. زاد في رواية: وإنه سيخرج في أمَّتي أقوام تتجارى بهم الأهواء، كما يتجارى الكَلَبُ بصاحبه، لا يبقي منه عرق ولا مفصل إلا دخله».

وفي سنن أبي داود وسنن الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: " تفرّقت اليهود على إحدى وسبعين فِرْقة، أو اثنتين وسبعين فِرْقة، والنصارى مثل ذلك، وستفترق هذه الأمة على

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/٥٩٠ .

ثلاث وسبعين فرقة ".

لقد انقسمت الأمة إلى خوارج ومعتزلة وشيعة وأشاعرة وكَلَّابِيَّةٍ وماتُرِيدِيَّةٍ ومُرْجِئةٍ وَقدَرِيَّةٍ، واختلفت هذه الفرق في الإيمان وحدوده، كما اختلفت في صفات الله وقدر الله، ونشأ عن ذلك كله اختلافات في واقع الأمر. وقد تبنَّت كثير من هذه الفرق مناهج مضادة للمنهج الإسلامي، ومن ذلك تبني المنهج الفلسفي الكلامي في إرساء العقيدة والإيمان. وهذا المنهج مزاحم للمنهج الإيماني القرآني القائم على الوحي، وعمدة المنهج الفلسفي الكلامي نظريات عقلية وأصول فلسفية، ومصطلحات منطقية، وهذا المنهج يختلف مع المنهج الإيماني القرآني في طريقة الاستدلال، وفي المصدر والهدف.

فالاستدلال القرآني الإيماني أساسه الوحي والإيمان بالرسالة، ومن علوم الوحي نعرف ربَّنا، وقد أرشدنا القرآن إلى الدلائل العقلية، ووجَّه أنظارنا إلى التفكير في الكون، وهذه الدلائل دلائلُ فطريةٌ قريبةُ المأخذ مأمونة العاقبة، والغاية التي يدعو المنهج القرآني إليها هي عبادة الله وحده لا شريك له، وعبادته متضمنه لمعرفته وتوحيده.

أمّا عمدة المنهج الكلامي الفلسفي فهو تلك النظريات والأقيسة العقلية التي جعلوها أصولا للعقائد والتشريعات، وهذه الأدلة فيها حقٌ وباطل، وهي سبيل وَعِرٌ لا يسهل الارتقاء إليه، وقد ينقطع السالك قبل الوصول إلى مراده.

وقد اقتضت الأقيسة الباطلة رَدَّ كثير من الحقِّ الذي في الكتاب والسنة، فردُّوا كثيرا من الأسماء والصفات بهذه الأقيسة الباطلة.

والغاية التي يريدونها من وراء بحوثهم هي المعرفة الباردة، وهذا لا يكفي، فدعوة الرسل عبادة الله وحده.

وهذا يفسِّر لنا ذلك البرود الذي نجده لدى العلماء الذين يتخرجون

من كثير من الجامعات الإسلامية اليوم.

ومن المناهج المخالفة للمنهج الإسلامي المنهج الصوفي الذي يُغْرِقُ في التَّعبد، ويَسْتَحِدثُ أنماطا من العبادات لم يشرعها الله ـ تبارك وتعالى.

وقد نهي رسول الله ﷺ عن هذا المنهج، ففي سنن أبي داود عن أنس بن مالك أنَّ رسول الله ﷺ قال: لا تُشَدِّدُوا على أنفسكم، فيشدِّدُ الله عليكم، فإنَّ قوما شَدَّدُوا على أنفسهم، فشدد الله عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديار، رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم.

وقد قوَّم الرسول ﷺ توجه كثير من أصحابه الذين أرادوا قيام الليل كله، وصيام الدهر أبدا، أو أرادوا الانقطاع إلى العبادة واعتزال النساء، أو تحريم اللحم، وبين لهم أنَّ ذلك كلَّه مخالف لسنة الرسول ﷺ، وأن مَنْ رَغَب عن سنته فليس منه.

وجاءت الطامة الكبرى في العصر الحديث حيث قامت في ديار المسلمين دعوات أخذت تنادي بالكفر الصُّرَاح، ونبذ الإسلام والانضواء تحت رايات تعلن الحرب على الإسلام، ومن هذه الدَّعوات تلك التي تنادي بالعلمانية والشيوعية والبعثية، والدعوات التي تنادي بالاعتزاز بالحضارات الكافرة البائدة كالفرعونية والآشورية والبابلية، وقامت دعوات تضع مبادئ ضالة على أساس القومية والوطنية، وتحت ستار هاتين الدّعوتين توضع مناهج مخالفة للإسلام تدعو الناس إلى تجمعات ضيقة تضاد الإسلام وتحادُّه.

وقام في أيامنا فريق ينادي بتقليد العالم الغربيِّ، والسير في الطريق الذي سار فيه، غير مُفَرِّقين بين ما يَحْسُنُ أخذه، و بين مالا يجوز أخذه، فهم يرون أننا لن ننهض حتى ننبذ ديننا، ونسير في مسار العالم الغربي، ولو اقتضي هذا أن ننسلخ من جلودنا، ونلبس جلودهم، وما هذا الانبهار بالحضارة الغربية إلا ثمرة لجهل الأمة بدينها ومركزها،

وهذا جعلها تنظر إلى الأمم التي غلبتها نظرةً فيها كثير من التعظيم والتبجيل، وأخذت تقلت الأمم الغالبة في عوائدها، وتلك سنَّة من سنن الله في خلقه عقد لها ابن خلدون في مقدمته فصلاً فقال: «فصل: المغلوب مولع بتقليد الغالب» .

وفي الحديث في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: « لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى ولو دخلوا حُجّر ضَبّ لتبعتموهم. قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟ » .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: « لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي مأخذ القرون من قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع. قيل له: يا رسول الله كفارس والروم؟ قال: من الناس إلا أولئك » .

وقد تسلم الذين صُبغُوا بالثقافة الغربية مراكز التوجيه في ديار الإسلام، وصَبَغُوا الحياة فيها بالصبغة الغربية، وتأثر بهم الناشئة كثيراً .

المطلب الثاني
الفرقة التشريعية

لا نَعْنِي بالفُرْقَة هنا الاختلاف الذي وقع بين السَّلَف في فقه النصوص بسب تفاوت العلماء في الفهم والإدراك، كما لا نعني به الاختلاف الناشئ عن عدم وجود نقص، فهذا النوع من الاختلاف لا يسبب فجوة بين المسلمين، وقد وقع هذا النوع من الاختلاف بين الصحابة في حياة الرسول ﷺ، ولم ينكره المصطفى على أصحابه، فإنه اختلاف طبيعي تأبى طبيعة البشر أن لا يختلف فيه.

والاختلاف المذموم هو الاختلاف الناشئ عن الإعراض عن نصوص الكتاب والسنة تقليدا لآراء الرجال، أو الإعراض عن النصوص اتباعا للهوى.

وقد نشأت في المسلمين دعوات كثيرة تهدف بقصد أو بغير قصد، إلى زَحْزَحَةِ نصوص الكتاب والسنة عن مرتبة الصدارة، وردّ الأمر إلى عقول الرجال، والقواعد التي أفرزتها تلك العقول.

وقام في المسلين من يَدَّعِي أنَّ أكثر نصوص الكتاب والسنة لا تصلح للاستدلال، لأنَّها ظَوَاهِرُ وعُمومَاتٌ لا تفيد اليقين، وأخذ هؤلاء ينادون بالرجوع إلى القواعد العقلية، لأنَّها وحدها التي تفيد اليقين.

وقام في المسلمين من نادى بالاقتصار على القرآن وحده، ونبذ السنة النبوية، وسمى هؤلاء أنفسهم زورا وبهتاناً بالقرآنيين، وكَذَبوا، فلو كانوا قرآنيين لأخذوا بالسنة التي يُلْزِمُهُمُ القرآن بالأخذ بها، وبعض الفرق الضالَّةِ رفضت السنة رفضا كليا، وجوز أصحاب هذا المذهب على الرسول ﷺ الخطأ في غير القرآن، ومعنى ذلك أن كلامه ليس بحجة، وقد خالف الخوارج والمعتزلة أهل السنة في كثير مما أجمعوا عليه، ولذلك جوَّزت الخوارج الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها، وذهبوا إلى أن الحكم الواجب في حقِّ الزاني هو جلد مائة، لا يفرِّقون بين المحصن وغير المحصن، مستدلِّين بالقرآن الكريم، ورادين الحديث.

وذهبت المعتزلة إلي ردِّ أحاديث الآحاد مطلقا، فهم يقبلون المتواتر دون الآحاد، وإن كان في أصحّ كتب الحديث، زاعمين أن الآحاد ظني الثبوت، والدين لا يقوم على الظن.

وذهب آخرون إلى أنَّ المرفوض هو أحاديث الآحاد في العقيدة، وقد زعموا أن أحاديث الآحاد ظنية، والعقيدة لا تقوم على الظن.

وأعاد بعض المغرضين في هذا العصر القضيَّة جَذَعَةً، فطعنوا في سنَّة

الرسول ﷺ ورواتها، وأقاموا عقولهم حَكَمًا فيما يأخذون ويدَعُون من سنة رسول الله ﷺ.

وفريق آخر احتج بما ليس بحجة في الدين، ومن هؤلاء الذين يعتدُّون في إثبات العقائد والأحكام بالأحاديث الضعيفة والموضوعة، وبذلك يُقَرِّرُون عقائد وأحكاما ليست من الدين، وينسبون إلى رسول الله ﷺ ما لم يقله، وقد حَذَّرنا رسولنا من مثل هذا أشدَّ التحذير، ففي الحديث الصحيح: « من حدَثَّ عني بحديث يُرى أنه كذبٌ، فهو أحد الكذَّابين »[1] والكذابان هما: منشئ الكذب وناقله. وتوعَّد الرسول ﷺ الكاذب عليه بالنار، فقد صح عنه ﷺ أنه قال: « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ».

ومِن الفرقةِ التشريعية الافتراق بسبب التقليد، فكثير من المقلدِّة يرفضون الأخذ بنصوص الكتاب والسنّة التي تخالف قول الإمام الذي يقلِّدونه، بدعوى أن إمام المذهب أعلم منهم بالنصوص، وقد بلغ الأمر ببعض المقلِّدين إلى القول بأنَّ كل نص يخالف المذهب فإنّه إمّا منسوخ أو مُؤَوَّلٌ.

وقد أنشأت العصبية المذهبية فُرْقة بين الأمة، فانقسمت الأمة إلى مذاهب، كل فريق يناصر مذهبه، ويغلو في تقديس إمام المذهب، ويغضُّ من المذاهب الأخرى وأئمتها وفقهها، ونشأ من هذا الخلاف مناظرات وصراعات، وقتال في بعض الأحيان.

وكان الواجب أن يبقى الخلاف في دائرة فقه النصّ، وأن يكون رائدُ الجميع هو الوصول إلى الحقِّ من خلال النظر في النصوص، وأن يكون فِقْه العلماء السابقين ثروة تساعدنا على الوصول إلى هذا الهدف.

لقد رأينا بعض التجمعات الحديثة في هذا العصر يلزم أصحابها

(١) الكذّابان: منشئ الكذب و ناقله .

أتباعهم بكلٍّ ما تبناه الجماعة.

وفيما تبنته تلك الجماعة أمور مخالفة للكتاب والسنة، فإذا استمسك أحد أتباعها بما علمه من نصوص الكتاب والسنة المخالفة لرأي تلك الجماعة طردته الجماعة من صفوفها.

وقد زاد بلاء الفرقة التشريعية في هذا العصر، عندما أقصيت الشريعة الإسلامية عن الحكم في ديار الإسلام، واستُبدِلَتْ بها القوانين الوضعية، وحَكَّم المسلمون في رقابهم حكم الطاغوت،ولا حول ولا قوة إلا بالله.

المطلب الثالث
الفرقة السياسة

الأمةُ الإسلامية أمّة واحدة، يجمعها إطار سياسي واحد، ويحكمها حاكم واحد، هكذا علمنا الإسلام.

وافترقت الأمّة الإسلامية في نهاية حكم الخلفاء الراشدين، ولكنَّها استردت وحدتها، وأول فُرْقَةٍ سياسية وقعت واستمَّرت كانت بعد انهيار الدولة الأموية، حيث حكم العباسيون في الشرق، وحكم الأمويون في الأندلس، ولكنْ لم تمض بضع مئات من السنين حتى تفرَّقت كلتا الدولتين إلى دول كثيرة، وقام على كلٍّ دولة حاكم وزعيم، إلا أنَّ الخليفة بقي في عاصمة الخلافة رمزا للكيان السياسي الذي يحكم الأمة الإسلامية، ولكنَّه لم يكن يملك من الأمر الكثير، وكان يُحْكَمُ باسمه في كثير من الأحيان، بل كان يُعْزَلُ ويولَّي بإرادة الذين لا يريدون بالأمة خيرا.

ثمَّ إنَّ الرمز الذي كان يلوح في عاصمة الخلافة زال وتلاشى، غير أن الاسم الذي يمثل الكيان السياسي للمسلمين استمر، ولم يُقْضَ عليه

إلاَّ منذ عهد قريب عندما اجتمعت على تركيا المسلمة جيوش الأعداء ومكر المنافقين، ولم يَرْضَوا منها إلا أن تتنازل عن الشريعة التي كانت تحكم بقاياها تلك الدولة، واشترطوا عليها إلغاء الخلافة الإسلامية، ومنصب شيخ الإسلام، وما تركوها حتى غَيَّروا الحروف العربية إلى الحروف اللاتينية، ووضعوا القُبَّعة فوق رؤوسهم بدل العمامة، وسلخوا الولايات الإسلامية التي كانت تابعة لدولة الخلافة، وتجزَّأ العالم الإسلامي إلى دول كثيرة ضعيفة هزيلة، ونالت هذه الدول استقلالها، ولكنَّها لم تنهض من كبوتها، ولم تملك زمام الأمور في بلادها.

وهذه الطريقة التي سلكها أعداؤنا معنا طريقة قديمة معروفة، استخدمها المستعمرون منذ ألوف السنين، فقد ذكر ابن كثير في "البداية والنهاية " «أنَّ الإسكندر المقدوني اليوناني عندما غلب على مَلِكِ الفرس دَارا بن دَارا، وأذَّل مملكته، وخرَّب بلاده، واستباح بيضة قومه، ونهب حواصله، وفرق شمل الفُرسِ شَذَرَ مَذَرَ، وضع خطة تُبقي الفرس ضعفاء لا تقوم لهم قائمة، كي يبقى له السيطرة َعليهم، ويأمن من انتفاضتهم عليه، ومحاربتهم له ».

يقول ابن كثير موضِّحا ما فعله هذا الرجل الداهية بالفرس: «عزم أن لا يجتمع لهم بعد ذلك شمل، ولا يلتئم لهم أمر، فجعل يقرُّ كلَّ ملك على طائفة من النَّاس في إقليم من أقاليم الأرض ما بين عربها وعجمها، فاستمرَّ كلُّ ملك منهم على طائفة منهم يحمي حَوْزَته، ويحفظ حِصَّته، ويستغِّل محلَّته، فإذا هلك قام ولده من بعده، أو أحد قومه، فاستمرَّ الأمر كذلك قريبا من خمسمائة سنة، حتى كان أزدَشِير بن بَابِك من بني سَاسَان بن بَهْمَن، فأعاد ملكهم إلى ما كان عليه، ورجعت الممالك بِرُمَّتِها إليه، وأزال ممالك ملوك الطوائف، ولم يَبْقَ منهم تالد ولا طارف. . . » [1]

---

(١) البدايه والنهايه ٢/١٨٣ .

قارن ما فعله الإسكندر في الماضي البعيد بما فعله الكفار بدولتنا الإسلامية تجد التخطيط واحدا، والنتائج واحدة، بل إنَّ الحال معنا أشدُّ وأقسى، فإنَّنا لم نعط الاستقلال إلا بعد أن أُخذت علينا العهود والمواثيق بأن لا نعود إلى تحكيم الشريعة الإسلامية، ولا نقيم الكيان السياسيّ الإسلاميّ، كتب اللورد كرومر في الفصل الأخير من كتابه " مصر الحديثة " الصادر في سنة (١٩٠٨م) «إنَّ إنجلترا كانت مستعدَّة لتمنح الحرّية السياسيَّة النهائية لكلّ ممتلكاتها المستعمَرة حالما يكون جيل من المفكّرين والسياسين المشْحُونين بِمُثُلِ الثقافة الإنجليزية عن طريق التربية الإنجليزية مستعدّا للاضطلاع بالأمور، ولكنَّ الحكومة الإنجليزية لن تسمح بحال من الأحوال بقيام دولة إسلامية مستقلّة، ولو للحظة واحدة».

المبحث الثاني

أثر إثارة النعرات والعصبيات في الفُرْقة السياسية

لا يفوتني قبل أن أنهي الحديث عن الفرقة والاختلاف أن أتعرض إلى مرض خطير كان ولا يزال يعمل على تفتيت وحدة المسلمين السياسية، ألا وهو العصبيات التي تثور بين الفينة والفينة في المجتمعات الإسلامية.

إنَّ الإسلام جعل الرابطة التي تجمع المسلمين وتوحِّدهم هي الإسلام. وقد قامت دولة الإسلام على أساس الجامعة الإسلامية، وانصهرت في بوتقة هذه الجامعة العصبيَّة للجنس واللون والوطن والنسب، وأصبح التنادي بين المسلمين للتَّجمع على أساس غير أساس الرابطة الإسلامية يُعَدُّ دعوة جاهلية مَقِيتة، فقد قال الرسول ﷺ لأبي ذر عندما عَيَّر رجلا بسواد أمّه « إنك امرؤ فيك جاهلية » وقد حذَّر الرسول ﷺ من هذه العصبيات المقيتة، ففي حديث جندب بن عبد الله

قال: قال رسول الله ﷺ، « من قُتِل تحت راية عِمِّيَّةٍ يدعو لعصبيَّة، أو ينصر عصبيَّة، فقتلته جاهلية » أخرجه مسلم والنسائي.

وفي سنن أبي داود عن جبير بن مطعم رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: « ليس منَّا من دعا إلى عصبيَّة، وليس منّا من قاتل على عصبيَّة، وليس منّا من مات على عصبيَّة ».

وعندما اختلف رجلان من المهاجرين والأنصار فتناديا يا للمهاجرين، يا للأنصار، وهبَّ كلٌّ فريق لنصرة صاحبه، قال الرسول ﷺ: « ما هذا ؟ أدعوى أهل الجاهلية ؟ » رواه مسلم.

وفي رواية أخري عند مسلم «دعوها فإنها منتنة ».

إن ّالإسلام لا يُلْغِي الانتماءات للأوطان والقبائل والشعوب، ولكنَّه لا يسمح أن تُجْعَلَ لغير ما أرادها الله له، إنَّ حكمة الله اقتضت تقسيم البشر إلى شعوب وقبائل للتعارف، لا للتفاضل ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [**الحجرات**: ١٣].

إنَّ الآصرة التي تجمع المسلمين هي الإسلام، وفي ظلّ هذه الآصرة تتجمع القبائل والشعوب، وسَعْي المرء في شأن قومه وأهله من الفضائل التي يَحْمد الإسلام أصحابها، ولكنَّ الإسلام لا يَرْضى أنْ ينصر المرء قومه أو بني عشيرته، أو الذين يشاركونه في اللون محقِّين، أو ظالمين.

إنَّ الإسلام قَبِلَ مقولة أهل الجاهلية: « انصر أخاك ظالما أو مظلوما»، ولكنَّه رفض التفسير الجاهليَّ لهذه المقولة، وأعطى تفسيراً مضادّاً لتفسير الجاهلية. ففي صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله أنَّ رسول الله ﷺ قال: « لِيَنصرْ الرجل أخاه ظالما أو مظلوما، إن كان ظالما فَلْيَنْهَهُ، فإنه له نَصْرٌ. وإن كان مظلوما فلينصره ».

إنَّ نُصْرة المرء قومه عصبية لهم جريمة كبرى في المجتمع الإسلامي، ففي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: « من نصر قومه على غير الحق، فهو كالبعير الذي رُدِّي في مَهواة، فهو يَنْزِعُ بِذَنَبِه ». والمَهْوَاةُ: الحُفَرَة من الأرض، وكل مَهْلكة مهْواة، والتردِّي: الوقوع من عُلوٍ.

وقد ثارت العصبيات في القرن الأخير، وحطَّمت الرابطة الإسلامية والدولة الإسلامية، فدعا الأتراك إلى التركية، والأكراد تنادوا إلى الكردية، وفعل مثل ذلك البربر والعرب، ثم جاءت الدعوة إلى الأوطان، فكلُّ قوم يعيشون على بقعة من الأرض أقاموا عصبية منتمية إلى تلك البقعة، وقامت دعوات تدعو إلى الاعتزاز بالفرعونية والآشورية والفارسية، وقطع الترك كثيرا من الحبال التي كانت تربطهم بالإسلام، وأصبح العالم الإسلامي على الصورة الكئيبة التي نراها اليوم.

الفصل الثالث

طريق الارتقاء بالأمة الإسلامية والأصول التي تقوم عليها وحدتها

إذا كانت الفرقة هي طريق الانحطاط، فإنَّ الوحدة هي سبيل الارتقاء وتبوء المكانة الفاضلة من جديد.

والوحدة الإسلامية على أساس من الإسلام أمل القلوب المسلمة الصادقة في كلِّ مكان، ذلك أنّ الإسلام يغذي أتباعه دائما وأبدا بأنَّهم إخوة في دين الله (إنَّما المؤمنون إخوة)، ويجعل الأمَّة الإسلامية أمَّة مترابطة ترابط الجسد الواحد، ففي صحيح مسلم عن النعمان بن بشير عن رسول الله ﷺ قال: « مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكي منه عضو تداعي له سائر الجسد بالسهر والحمَّى ». وفي رواية أخري عند مسلم: « المسلمون كرجل واحد، إن اشتكى عينه، اشتكى كلُّه، وإن اشتكى رأسه، اشتكى كلُّه».

وشبَّههم في حديث آخر بالبنيان المرصوص، ففي صحيح مسلم عن أبي موسى عن رسول الله ﷺ قال: « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضا ».

فالأحاديث تصوِّر المجتمع الإسلامي بالجسد الواحد، الذي يخفق فيه قلب واحد، وتسري فيه روح واحد، ويتأثَّر كلُّ عضو فيه بما يصيب بقية الأعضاء، أو هو كالجدار الذي تجتمع لبناته لتشكَّل فيما بينها وِحْدة واحدة متماسكة متراصّة.

ونحن إذ نادي بالوحدة الإسلامية لا نريدها وحدة على غير أصول، لا نريدها وحدة تجمع شتاتا مختلفا متناقضا، إنّما نريدها وحدة صادقة، تقوم على أصول قوية ثابتة، ويلخّص الأصول قوله تعالى: (واعتصموا

بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا). [1]

وسنعقد في هذا الفصل خمسة مباحث نتناول فيها أهم الأصول التي تقوم عليها وحدة الأمة.

المبحث الأول

الانتماء للإسلام دون سواه

العالم اليوم بحر محيط يموج بالدعوات والأفكار، وتقوم هذه الدعوات على مناهج ونظريات أتعب أصحابها أنفسهم في تزيينها وتزويقها، ويجب أن يُجْهِدَ دعاة الإسلام أنفسهم في الدعوة إلى نبذ جميع المذاهب والمبادئ التي غزت ديار المسلمين وعقولهم، وعلى الدعاة أن يُحَصِّنوا المسلمين ضدَّ هذه السموم التي تبثُّها مختلف وسائل الإعلام صباح مساء.

لقد فقد كثير من أبناء المسلمين اليوم هويتهم، ومُسِخَت شخصيتهم بفعل التضليل المستمرّ الذي يمارسه شياطين الجنِّ والإنس بمختلف الوسائل، وسبيلنا للوحدة الصادقة هو الدعوة إلى الالتزام بالإسلام عقيدة وشريعة ومنهج حياة، والاعتزاز بالانتساب إلى هذا الدين، ونبذ كلّ ما يخالفه ويضادّه، وهذا النهج هو نهج أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، الذي حرص على إقراره في بنيه وذريته، وهو المنهج الحقُّ الذي أمرنا الله بالتزامه، وَحَكَمَ على من أعرض عنه بالسَّفه والضلال، وفي ذلك يقول الحقُّ ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَمَن يرغَبُ عَن مِّلَّة إبْرَاهيمَ إلاَّ من سَفِه نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الـدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الـصَّالِحين، إذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٣.

أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ، أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٣].

هذه هي ملة إبراهيم، وهي توحيد الخالق جَلّ وعلا بعبادته وحده لا شريك له، وإقامة الحياة وفق منهج الله، والاعتزاز بهذا المنهج وإقراره في واقع الحياة، ورفض المبادئ المنحرفة الضالّة التي اخترعها البشر، وجعلوها أديانا يقيمون حياتهم وفقها، ويعتزون بالانتماء إليها.

إن الإسلام منهجُ حياة، والعبودية لله معلم كبير في حياة المسلم، والمسلمون وفق هذا المنهج والفهم يشكّلون أمة واحدة في مقابل التجمعات البشرية.

والمسلم الصادق يعتزُّ بالانتساب إلى الإسلام ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، فقد نصَّ على أنَّ أفضل الناس هم الذين يعلنون انتسابهم إلى الإسلام.

وكثير من المسلمين اليوم فقدوا انتماءهم، فأخذوا يبحثون عن عقائد ومذاهب وأقوام ينتسبون إليهم، وآن لنا أن نرفع الراية التي كان أسلافنا ينتسبون إليها وهي الإسلام، لا راية الأوطان، أو الأقوام أو الأحزاب أو التجمعات الضالّة.

التوحيد والانتساب إلي الإسلام ملة إبراهيم، وقد أمر الله رسوله باتباع ملة إبراهيم ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [النحل: ١٢٣]. ونحن أولى الناس بإبراهيم بعد أتْباعِه ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

المبحث الثاني

توحيد مصدر الهداية

والأصل الثاني توحيد مصدر الهداية، وهذا لازم للأصل الأول، فما دمنا قد آمنَّا بأنَّ هذا الدين من عند الله، أنزله لهداية البشر للتي هي أقوم، فيجب أن نحلَّ هذا الدين في المرتبة التي يستحقها .

إن جميع الدعوات والمذاهب والأديان التي يموج بها عالم اليوم يدَّعي أصحابها أنَّهم يملكون إكسير السعادة، وهداية البشر للتي هي أقوم، ونحن نقول كما علمنا الله أن نقول: ﴿إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٣]. إن مصدر الهداية الوحيد كتاب الله وسنة رسوله. واتِّباع أهل الكتاب، وأصحاب الدعوات الباطلة يقود إلي الردَّة والكفر. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ، وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠٠، ١٠١].

ومتى فقهنا هذه الحقيقة التي قرَرَّها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٣]، وَفَّرْنا على أنفسنا جهودا كثيرة في تلمُّس الهداية في الكتب السماوية المحرَّفة، وفي نظريات البشر وأفكارهم المتضاربة المتعارضة، وسرنا في الطريق المرسوم، ندعو البشر إلى طريقنا، ونحاكم أفكارهم وعقائدهم ومبادئهم إلى موازين الإسلام، وإذا ما جاؤوا يعرضون بضاعتهم علينا رفضناها، لأنَّنا نعلم أن في بضاعتهم دَخَنًا، وهم لا يرضون عنَّا حتى ننسلخ من ديننا، ونأخذ دينهم ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقد وقف الرسول ﷺ في وجه تلمس الهداية من الأديان المحرَّفة بقوة، وشدَّد النكير على من ذهب هذا المذهب، ففي مسند أحمد عن عبدالله بن جابر قال: «جاء عمر إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني مررت بأخ لي يهودي من بني قريظة، فكتب لي جوامع من التوراة، ألا أعرضها عليك ؟ قال: فتغير وجه رسول الله ﷺ.

قال عبدالله: قلت له: ألا ترى وجه رسول الله !! فقال عمر: رضيت بالله ربًا، وبالإسلام دينا، ومحمد رسولا».

قال: فسُرِّي عن النبي ﷺ وقال: «والذي نفسي بيده، لو أصبح فيكم موسى عليه السلام، ثُمَّ تبعتموه وتركتموني لضللتم، إنّكم حَظِّي من الأمم، وأنا حَظّكم من النبيين ».

ولذلك فإننا ننظر اليوم بكثير من الريبة والحذر إلى ما يسمَّى بمؤتمرات التقريب بين الأديان والتي تعقد في شتى أنحاء العالم، ويحضرها علماء مسلمون وغير مسلمين، يبحثون في الالتقاء والتقارب بين الإسلام والنصرانية، ويبحثون في إزالة سوء التفاهم بينهما.

إنّنا نرفض هذه المؤتمرات، لأنّها تضع الإسلام الدِّين الحقَّ والنصرانية الدِّين المحَرَّف الباطل في مرتبة سواء، ونرفضها لأنَّ الإسلام جاء مهيمنا على النصرانية وغيرها من الأديان، وليس هناك مجال للتقريب بين دين محرِّفٍ مغير مبدل والدِّين الحقِّ.

إنَّنا نقف في مجامع النصارى لا لنقرب بين دينهم الباطل وديننا الحقِّ وإنَّما لنقول لهم: دَعُوا هذا الدين، وَدَعُوا الشرك بالله والكفر به، وتعالوا إلى الدين الذي بّشر به موسى وعيسى، دينِ الله الخاتم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

إنَّنا نَعُدُّ قبولَ العلماءِ المسلمين بحضور هذه المؤتمرات انحرافا يضُرُّ بهم وبدينهم وعقيدتهم، ولا ينفع إلا الذين قالوا اتخذ الرحمن ولدا،

لأنَّهم بذلك يُجَرْجِرُونَنا إلى باطلهم، ويوقعوننا في شباكهم.

في عام واحد عُقِدتْ ثلاثة مؤتمرات للبحث في التقارب بين الإسلام والنصرانية، وقد أمّ هذه المؤتمرات مئات من العلماء المسلمين.

ففي شهر إبريل سنة ١٩٧٤م عُقِدَ مؤتمر من هذا النوع في باريس التقى فيه علماء مسلمون ورجال فكر أوربيون للبحث في التقارب بين الإسلام والمسيحية، وزار الوفد الإسلامي الفاتيكان، وقد ألقى هناك محاضرتين، وقد مهد لهذا المؤتمر منذ عام ١٩٧٢ وقد وصفت الصحف هذا المؤتمر بأنّه مهم.

وفي شهر سبتمبر من العام نفسه ١٩٧٤م انعقد المؤتمر الإسلامي المسيحي في مدينة « قرطبة »، وقد كانت مهمَّة المؤتمر تقريب وجهات النظر بين العالمين المسيحي والإسلامي، ودراسة تزايد موجة السعي من أجل إزالة الخلافات وسوء الفهم الذي قد يكون قائما بين الدينين بالنسبة للمعنيِّين بالأمر والرأي العام.

وفي شهر نوفمبر من ذلك العام كان المؤتمر المسيحي الثالث في مدينة «تونس».

وقد عُقِد مؤتمر إسلامي في مدينة لاهور في باكستان في ذلك العام في شهر فبراير (١٩٧٤) ومع كونه مؤتمرا إسلاميا في الظاهر إلا أنَّه قد حضره ممثلون عن نصارى لبنان، وقد أشاد المؤتمر بالتعاون الإسلامي المسيحي.

وهذه المؤتمرات لم تكن الأولى ولن تكون الأخيرة، فقد عقدت قبلها مؤتمرات، وبعدها مؤتمرات على النمط نفسه.

وقد تحدث عن شيء من بلايا هذه المؤتمرات الكاتب العلاّمة الباحث الدكتور محمد محمد حسين في كتابه « حصوننا مهدَّدة من داخلها »

ص: « ٣٢١ » عندما كشف عن زيف ودجل المؤتمر الإسلامي المسيحي الذي دعت إليه جامعة برنستون ومكتبة الكونغرس الأمريكي في صيف عام ١٩٥٣. ونشرت قسما من بحوثه مؤسسة فرانكلين الأمريكية، كما كشف الدكتور الأهداف الخبيثة لذلك المؤتمر.

إنَّ الذين يؤمُّون تلك المؤتمرات لا يدركون الدسيسة والمكيدة التي أوقعهم أعداؤهم فيها، وآخرون يعلمون ذلك، ولكنَّهم يريدون بالإسلام والمسلمين شرًّا، وعندما يوجه إليهم اللوم لا تكون إجابتهم إلا كإجابة إخوانهم من قبل ﴿ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٢] وذلك بالتقارب بين الإسلام والمبادئ البشرية.

وقد فضح القرآن هذا الصنف من الناس، وبين أنَّ هؤلاء أتباع الطواغيت همُّهم إفساد البلاد والعباد، وصدُّ الناس عن دين الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا، فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا ﴾ [النساء: ٦٠، ٦٣].

إنَّنا نعلن لبني قومنا أنَّ الهداية من الضلال لن تكون في غير الكتاب والسنة، وهذا ليس تقولا من أنفسنا، ولكنَّه صريحُ كلامِ الرسول ﷺ، ففي الموطأ عن أنس بن مالك وفي مستدرك الحاكم عن ابن عباس أنَّ رسول الله ﷺ قال: « تركت فيكم أمرين لن تضلُّوا ما إنْ تمسكتم بهما: كتابَ الله، وسنةَ رسوله ».

وفي ختام هذا الموضوع أحبّ أن أقرر ثلاث قضايا:

الأولى: لا يجوز طلب الهداية من الأديان المحرَّفة والمذاهب الباطلة، وقد أسلفنا القول في هذا الموضوع.

الثانية: وهذا لا يعني أنّه لا يجب علينا دراسة هذه المذاهب والأديان لبيان عوارها والردِّ عليها، ويدُلّنا على صحة هذا مناقشة القرآن لأهل هذه المذاهب والأديان، وقد ألفّ علماؤنا مؤلفات كثيرة في هذا المجال.

الثالثة: أنَّ العلوم الدنيوية في المجالات المختلفة كالطب والهندسة يجب علينا دراستها والاستفادة من جهود البشر فيها، ولا تدخل دراستها في المحذور.

المبحث الثالث

وحدة العقيدة

لا يمكن أن تقوم وحدة المسلمين ما لم تجمعهم عقيدة واحدة، والعقيدة تشكِّل في البناء الفردي والاجتماعي القاعدة التي تقوم عليها الأعمال والعلاقات والأخلاق، فإذا كانت العقيدة مشوَّهَة أو مزوَّرَة فإن البناء لا يستقيم، ولا يكاد البناء يواجه الأعاصير والفتن حتى ينهار، بل إنَّ البناء قد لا يقوم من أساسه، وقد شهد عالمنا العربيّ والإسلاميُّ مزيدا من الفرقة والانقسام، والعقائد الموروثة والحادثة كثيرة، وقد انتشرت في الأمه الإسلامية انتشارا كثيرا، وانقسمت الأمة بناء على ذلك في القديم والحديث إلى فرق وجماعات، وقام بينها العداء والخصام والحروب.

قد يقال: من أين تأتي بالعقيدة الإسلامية التي تصلح لِلَمِّ شتات المسلمين ؟

والجواب: أن العقيدة الإسلامية الصافية منصوص عليها في الكتاب والسنة. ويمكن التدليل على كلٍّ أصل من أصولها، أو جزئية من جزئياتها، ثمَّ إنَّ السلف الصالح الذين استقاموا على عقيدة الإسلام الحق دوَّنوا هذه العقيدة تدوينا يميزها عن عقائد أهل الفرق والضلال، ومن هؤلاء العلاَّمة الطحاويُّ دوّن عقيدة عرفت باسمه، شرحها محمد ابن محمد بن أبي العز الحنفيٍّ، ولم يقف الأمر عند هذا، فقد دوّن العقيدة الصحيحة كثير من العلماء من قبله وبعده، منهم الإمام أحمد وابن تيمية، والشوكاني، والسفاريني وغيرهم.

وأحب أن أنبِّه إلى أنَّ هذه العقائد تضم قواعد وضوابط تعصم من الخطأ في مجال الاعتقاد، وهناك لون آخر من العقيدة، يبعث العباد إلى العمل بما جاءهم من عند الله، مخلصين دينهم لله، وهذا اللون هو الذي يجعل المسلم قوَّة حيّة متحركة عاملة، وهذا اللون من العقيدة حتى يعطي ثماره لا بدّ من دراسته من خلال النصوص.

المبحث الرابع
جعل الكتاب والسنة محور الدراسة ومصدر التشريع

لابدَّ أن تعودَ المكانة الكبيرة للكتاب والسنة، فقد كانا محور الدراسة والتعليم والتشريع، ولا يجوز استبدالهما بآراء الرجال، ولا يجوز إلغاءهما بحجة أنَّ الفقه الذي دوَّنه الأئمة يكفي في هذا الجانب.

ليس معنى ذلك أنّنا نلغي فقه الأئمة فذلك وهَمَ، بل نرى أنَّ فقه الأئمة هو محاولة دائبة لفقه الكتاب والسنة، فنحن ندرس الكتاب والسنة وندرس كيف فقه علماؤنا النصوص، واستنبطوا منها الأحكام، أمّا الفقه المجرد الذي لا يصتبغ بالكتاب والسنة، فإنه يبعدنا عن النبع الأصيل.

ولا يجوز إقصاء الكتاب والسنة عن دائرة الدراسة والفقه، بحجّة أنّ ذلك مهمة المجتهد وحده، ولا شكَّ أنَّ هذا مُنزلقٌ خطِر، فإن الذي لا يدرس الكتاب والسنة لن يكون عالما بهما. ولكن ليس كل من درس بعض آيات وبضعة أحاديث أصبح عالما يحقُّ له الإفتاء.

إن مَثَلَ العَالم وطالب العلم مثل الطبيب ودارس الطب، فطالب الطب يعطي العلم الذي يؤهله لعلاج الناس وإجراء العمليات الجراحية لهم، ولكنه لا يُؤْذن له في العلاج وإجراء العمليات في السنة الأولى التي يدرس فيها الطب، غير أنه يترقى في ذلك، حتى يُحصِّل قدرا صالحا من العلوم الطبية، ثم يتدرب على أيدي المختصين من الأطباء الكبار، ثم يمارس مهنة الطب، وقد يواصل دراسته وتنمو خبرته بعد ذلك حتى يستقلَّ في بعض القضايا، وتصبح له نظرة اجتهادية يستقلّ بها عن غيره، ولو منَعْنَا طلاب الطب بعد تخرُّجهم عن العلاج والممارسة لما كان هناك أطباء.

وعالم الشريعة عليه أن يدرس الشريعة من مصادرها، وأن يتفقه في هذا الدين، ويدرس العلوم الخادمة لعلم الشريعة، ومن ذلك علم اللغة العربية، ثم لا يزال يترقى في هذا المجال حتى يبلغ مبلغ العلماء المؤهلين.

وهذا الطريق ليس بالطريق الصعب المستحيل، ولذلك لا يجوز صدُّ الناس عن السير في طريق العلم الشرعيِّ، كما لا يجوز لمن كان في البدايات أن يُنَصّبَ نفسه عالما ومفتيا.

المبحث الخامس

إقامة دولة الإسلام وإرجاع الخلافة الراشدة

لا يمكن أن تنتهي فُرقة المسلمين السياسيَّة إلا بإقامة دولة إسلامية راشدة تقيم فينا دين الله وشرعه، وتحكمنا بالإسلام، وتقيم فينا وفي العالم موازين الإسلام وقيمه، وتسمع العالم صوت الله، فتقيم بذلك الحجّة على العالمين، وتقوم بواجب البلاغ الذي كُلِّفنا به، وتحمي حمى الإسلام وتحرس هذا الدين، كما تحمي ديار الإسلام، وتحفظ حرمات المسلمين، وترد كيد الكائدين، وترفع الظلم عن المظلومين، وترد هذا البلاء الذي رمانا به أعداء الإسلام، هذا البلاء الذي جعلنا في ديار المسلمين أذلّه، نخشى إن قلنا كلمة الحقِّ أن تقطع منا الرؤوس، وتسلب منا الأموال، ويؤذي أهلنا وأحبابنا.

إن دولة الإسلام هي المؤهلة لردِّ هذا البلاء الذي جعل ديار الإسلام مرتعا لأعداء الإسلام، فصالوا وجالوا من غير رقيب ولا حسيب.

لقد قَسَّمُوا ديارنا، فجعلوها دولا، وجزأوا أمتنا فجعلوها أمما، بعد أن كنَّا دولة واحدة، وأمة واحدة، إنَّنا نريد دولة الإسلام كي نتوحَّد في ظلِّها، لنعود مرة أخرى دولة واحدة وأمة واحدة، تختفي في ظلِّها النعرات الجاهلية، والعصبيات المقيتة التي فَرَّقت شملنا، وأذهبت قوتنا، ومكَّنت منَّا الأعداء.

أنا أدرك أنَّ إقامة الدولة الإسلامية لا يتحقَّق بمجرد الأماني، وأنَّ الطريق إليه ليست مفروشةً بالورود والرياحين، وأن الطريق إلى تحقيق ذلك تعترضها عقبات جسام.

أنا أعلم أنَّ قيام الدولة الإسلامية يقتضي من المسلمين أن يبذلوا في سبيل تحقيقها أوقاتهم، وأموالهم، وأنفسهم، وأن يرضوا بالتشريد حينا من الدهر، كما يرضوا بالعذاب والسجون، فإنَّ لإقامة الدولة ضريبة

وأية ضريبة، ذلك أنَّ دولة الإسلام تبطل مخططات خصوم الإسلام، التي عملوا على تحقيقها دهرا طويلا، بحيث جعلت لهم السيطرة على بلادنا وشعوبنا ومُقَدَّراتنا، وتبطل امتيازات المسلّطِين في ديارنا، كما تبطل مصالح الطبقة التي تأخذ ما تأخذ بالباطل، فإذا جاء الإسلام وأعمل حكم الله أوقف نهب ثروات الشعوب وسوّى بين المسلمين وحكم بالعدل، وجعل العزَّة لله، ومن هنا يحرص أعداؤنا والظلمة المُسَلَّطون علينا على أن يخنقوا صوت الإسلام. الذي ينادي بالعودة إلى إقامة خلافة راشدة تُحَكِّم شرع الله، وتقيم دين الله.

أنا أعلم أنَّ الصعوبات هائلة والعقبات كثيرة، واقتحامها لا يكون بمؤتمر يعقد، ولا اجتماع يتبادل فيه الرأي، ولا بمحاضرة تلقى، ولكنَّنا مع ذلك كله ننادي بإقامة هذه الدولة، ونوقن أنَّ أبناء الإسلام الذين رَضُوا بالله ربًّا وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا، سيقدِّمون الثمن، ثمن إقامة الدولة الإسلامية.

وهذا الذي سيقدِّمونه ليس أمرا مندوبا إليه، يمكن أن يقوم به المسلمون كما يمكن أن يغضُّوا الطرف عنه، فالعقيدة الراسخة في أعماق قلوبنا، والتي تشكل فينا قاعدة الدِّين الذي رضينا به، كما تعتبر بحقٍّ أساس الإسلام والإيمان لا ترضى أن نعيش هكذا من غير راع يرعى المسلمين، ولا دولة تنتظم أمورهم، وتحرسهم، وترفع صوت الله لتسمعه العالم أجمع.

إنَّ عقيدتنا تقول لنا: إنَّ الله هو حاكم هذا الكون، الكون كلّه: أرضه وسمائه، برّه وبحره، حيوانه ونباته، نجومه وشمسه وقمره، وكذلك هو الحاكم للتجمعات البشرية فوق ظهر الكرة الأرضية.

والفرق بين البشر وغيرهم أنّ البشر يتحاكمون إلى شرع الله باختيارهم، أما بقية الكائنات فإنَّها لا تستطيع أن ترفض أمر الله.

فالله يريدنا أن نتخذه إلها وربّا وحاكما ونرضى بذلك، ونخضع

لعظمته ونرضى بشريعته، لأنَّه خالقنا ورازقنا ومحيينا ومميتنا، وإليه مآبنا، فهو المستحقُّ لأن يجعل حاكما، والله لا يرضى منَّا حتى نقيم دولة الإسلام التي تسلِّم مقاليد الحكم إلى الذين يجعلون التشريع لله تعالى، وتنبذ الطواغيت والظلمة الذين اعْتَدَوا على سلطان الله ونازعوه في حكمه وقضائه.

وقد قرَّر الإسلام بصورة واضحة هذه القضية ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [يوسف: ٤٠]، فالحكم لله والعبادة لله، ولا تجوز منازعة الله في حكمه، ولا يجوز صرف شيء من ذلك لغير الله، فالإيمان بالله يقتضي تحكيم شرع الله، ونبذ حكم الطواغيت والكفر بها ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

فكلُّ من ادعى الإيمان بالله فعليه أن يكفر بالطاغوت، فإن ادَّعى أنَّه مؤمن وهو يرضى بحكم الطاغوت فقد تناقض في دعواه، ووقف موقفا يتعجب منه، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠]

إنَّ المسلم لا يقف عند حدّ الكفر بالطاغوت، بل يتعدي ذلك إلى مصارعة الطاغوت ومغالبته وإقصائه عن مشاركة الله في حكمه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

والطواغيت هم الذين نصبهم النَّاس، أو نصبوا انفسهم آلهة ينازعون الله في حكمه، فالقول قولهم، والأمر أمرهم، وكلمتهم هي العليا، وشرعهم هو المتَّبع، وقد يصل الحال إلى السجود لهم وعبادتهم، والله

لا يرضى أن يشاركه أحد في حكمه ﴿ولا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]، أي لا يرضى أن يشاركه أحد في حكمه، وفي القراءة الأخرى: ﴿ولا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]، أي لا تشرك أيها المؤمن مع الله غيره في حكمه، والقراءتان معناهما متلازم.

وقد جعل الإسلام التحاكم إلى غير شرع الله تحاكما إلى الجاهلية ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].
وحكم على الذين لا يحكّمون شرعه المنزل ودينه العظيم بالكفر والظلم والفسق ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ، وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ، وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ، وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٤ - ٤٧].

هذه القضية (الحكم لله) عقيدة عند المسلمين، ولا يمكن تحقيق هذه العقيدة إذا بقيت مقاليد الحكم في عالم البشر بأيدي الطواغيت ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، إننا لا نستطيع تحقيق الإيمان إلا بإقامة دولة الإسلام التي تقيم شرع الله في كلِّ شئون الحياة.

وعقيدتنا تجعل الإيمان بالرسالات السماوية وخاتمها الإسلام دافعا

إلى إقامة الدولة الإسلامية، ذلك أنَّ طبيعة هذا الدين توجب إقامة الدولة الإسلامية، لأنَّ هذا الدين منزل من عند الله العليّ القدير، والله لا يرضى أن تسود مناهج البشر وشرائعهم عالم البشر، ويُقْصَي دينه وشريعته، لقد أنزل الله دينه من أول يوم ليكون هو الأعلى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣] . وقد قرَّر الحقُّ أنَّ طبيعة هذا الدين، تأبى أن يخفت صوته، وتطمس معالمه، وتعلوه كلمة البشر ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ [التوبة: ٤٠] ، وأوجب على المسلمين الجهاد والقتال حتى ترتفع كلمة الله، وتكون الدينونة لله الواحد الأحد ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣] .

ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا إذا قامت دولة الإسلام، فجعلت الهيمنة في عالم البشر لهذا الدين، وهذه هي المهمة الكبرى المناطة بالدولة الإسلامية.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: « جميع الولايات في الإسلام مقصودها أن يكون الدِّينُ كلُّه لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، فإنَّ الله تعالى إنَّما خلق الخلق لذلك، وبه أنزل الكتب، وبه أرسل الرسل، وعليه جاهد الرسول ﷺ والمؤمنون، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] .

وعقيدتنا تلزمنا بإقامة الدولة الإسلامية، لأنَّ إقامة الدولة أحد أحكام الشريعة الإسلامية، والشريعة الإسلامية هي التي تُحَقِّقُ العقيدة في واقع الحياة، فالدين ليس مجرد عقيدة تبقى حبيسة في صدور أصحابها، ولكنَّها حياة دافعة تتحرك في الصدور، وتنبعث بها النفوس، ثم تتشكل في إطار يحكم الواقع وحياة البشر، وبذلك فإن الشريعة التطبيق الواقعي للعقيدة، ولا تزال تُلحُّ العقيدة على صاحبها كيما يجاهد ويناضل لإيجاد الصورة العملية التي تقتضيها تلك العقيدة.

خاتمة البحث

مرحلة المخاض

تحدَّثنا فيما سَبَقَ عن المكانة الفُضْلى التي رفع الله إليها هذه الأمة بدينة المنزل، ورسوله المبعوث رحمة للعالمين، ثم بينا كيف انحطَّت هذه الأمة عن مكانتها بسبب فُرْقَتِها، وَعَقَّبْنا على ذلك بالحديث عن الوحدة التي يمكن أن تعيد للأمة الإسلامية عزتها من جديد. ولكن يبقي أمر في غاية الأهمية، هو الحديث عن الطريق التي يؤدي إلى بناء الأمة الإسلامية من جديد.

وأول ما يتبادر إلى الذهن في هذا هو الطريقة التي سلكها الرسول ﷺ في بناء الأمة الإسلامية، والْعالِمُ بسيرة الرسول ﷺ يجد أنَّه عليه السلام كان يُعْنَي بالدعوة إلى الله في وسط الكفار، فمن استجاب منهم لاحقه بالتربية والتقويم حتى يصبح لبنة صالحة، وكان هؤلاء يشكِّلون فيما بينهم وحدة مترابطة متعاونة، تعلم أنَّ مهمتها هي تغيير مجرى الحياة الإنسانية.

ولقد أوذيت هذه الفئة أذى شديدا، وعُذِّبت في دين الله، وهجرت الأوطان للبحث عن مكان آمن يقيهم الطغيان. وفي ذلك الوقت أخذ الرسول ﷺ يبحث عن مكان صالح لإقامة دولة الإسلام، فكان يعرض دعوته على القبائل مطالبا إياهم بنصرته وحمايته حتى يبلِّغ دعوة الله.

وكانت المهمّة شاقّة وصعبة، ولكنَّ الله هدى بعض أهل يثرب إلى الإيمان بدعوة الإسلام، وانتشر فيهم الإسلام، وهاجر الرسول ﷺ وصحبه إلى المدينة، وكانت هذه الهجرة إيذانا بميلاد الأمَّةِ الإسلامية، وقيام دولة الإسلام الأولى.

وهنا تحوَّل المضطهدون الصابرون على الظلم والأذى إلى مقاتلين،

يدفعون الشرك والمشركين بالكلمة كما يدفعونهم بالسيف والرمح، ولم يزل شأن الدولة الإسلامية يعلو حتى هيمن الإسلام على العالم كلّه، وأطاح بعرش كسرى، وأسقط تاج قيصر، وكان الدين لله.

واستمر الوجود السياسيُّ الممثل في الخلافة الإسلامية قائما، كلما سقطت رايته في جانب من جوانب العالم قامت رايته في جانب آخر، وكان العلماء والدُّعاة يسدّدون الحكام ويقوّمونهم، وكان الحكام يقتربون من الإسلام ويبتعدون عنه بِنِسَبٍ متفاوته، ولكنَّ الإسلام بقي باستمرار هو الدين الوحيد المهيمن على حياة المسلمين، والشريعة الإسلامة هي القانون الذي يتحاكم المسلمون إليه.

وانهار آخر كيان سياسي جامع للمسلمين وهو الدولة العثمانية التي انهارت على أيدي اليهود والصليبيين في الربع الأول من القرن العشرين، وكان انهيارها نتيجةً مُحَتَّمَةً في سنَّة الله، ذلك أنَّها أصيبت بأمراض وعلل كثيرة جعلتها ضعيفة في مواجهة أعدائها، ولو بقيت قوية قوة الجبال الرواسي لما عصفت بها الفتن، ودمَّرتها الرياح.

لا يكفي في تقويم الدولة العثمانية أن يدلِّل الباحثون على أنَّ حكَّامها كانوا صالحين، وأن آخرهم وهو السلطان عبد الحميد كان مخلصا للإسلام، فهناك علل في الأمة كلِّها وفي السلطان نفسه تجعل استمرار تلك الدولة في الوجود مخالفا لسنة الله التي سنَّها في عباده.

لقد كانت تلك الدولة تمثل الإسلام، ولكنَّ الإسلام الذي تمثِّله كان فيه دخن كثير في العقائد والسلوك والعلاقات، ودخل الترف حياة الحكام، وأغرقوا فيه، وتزلزلت أركان العدل في كثير من ولايات الدولة الإسلامية، وانتشرت الفرق الصوفية التي جعلت الإسلام عبارة عن أذكار ورقص وأكل وقعود عن الجهاد.

وكان القائمون على الدَّولة لا يجاهدون لإعادة الأمَّة الإسلامية إلى

المستوي الراقي الذي يحققه الالتزام بالإسلام، بل كان الحكام في كثير من الأحيان يعاقبون المصلحين الذين يحاولون إصلاح الفساد الذي غرقت فيه الأمة الإسلامية.

فكانت سنّة الله تقضي بأن تنهار هذه الدولة، وعلى الرغم من المأساة الكبرى التي حلّت بالمسلمين بسبب انهيارها، إلاّ أن ّهذا الانهيار كان ضروريا لا بدّ منه، واليوم وقد مرّ على انهيار الخلافة قرابة سبعين عاما ننظر إلى ما أصاب المسلمين في هذه االسنين من المآسي والبلايا فنألم، ولكنّنا نري من خلال الآلام والمآسي روحا بدأت تسري في الأمة الإسلامية تهدف إلى إعادة مجد الإسلام وعزه من جديد.

وشكّلت هذه الروح تيارا إسلاميا ناميا، وقد أصبح هذا التيار واضحا ظاهرا، وَسَرّ هذا التيار الإسلاميُّ نفوس الموحدين، وأقرّ أعينهم وساء هذا التيار أعداء الإسلام فارتفعت عقيرتهم محذرة من الخطر الداهم، والمارد الذي بدأ يتململ في قيوده، وهو يوشك أن يخرج من محبسه ويفك أغلاله.

إلا أنّ هذا التيار لم يبلغ مبلغا يعيد فيه عِزَّة الإسلام، وينهض بالأمة إلى المستوي الذي كانت تتبوؤه، ولا يزال العلماء والمفكرون المسلمون منذ سقوط الخلافة وإلى اليوم مختلفين في الطريقة التي تُعيدُ عزةً الإسلام ومجده.

عندما زالت الخلافة في تركيا، ظنّ بعض الأخيار أنّه يكفي أن يُنَصَّب حاكم من حكام المسلمين خليفة كي تعود المياه إلى مجاريها، ويأخذ القوس باريها والسهمَ نَابِله، و غفل هؤلاء عن أنّ الذين أسقطوا الخلافة كانوا لا يزالون يسيطرون على مقاليد الأمور، وهم لا يسمحون بإعادة الخلافة مرة أخرى بعد أن بذلوا جهودا هائله غير مشكورة في هذا السبيل.

وبعض دعاة الإسلام ظنَّ أنَّه يمكن أن يخدم الإسلام، ويقيم بناءه إذا انضوى تحت لواء القيادات التي تهيمن على مقاليد الحكم في دياره، وفي سبيل تحقيق هذا تنازل عن شيء من الإسلام، فَقَصَرَ دعوته على الصلاة والصوم والزكاة والحج وبعضا من أخلاق الإسلام، وأعرض عما لا يوافق أهواء أولى الأمر، وهذا ركون للظالمين، وتضييع للإسلام.

وقد حاول الكفار جاهدين أن يَحْرِفُوا الرسول ﷺ عن المنهج الذي دعا إليه، بحيث يتفقون معه على حلّ وسط، فجاء الوحي من السماء محذرا: ﴿وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً، إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥]، وفي هذا أنزل الله قوله: ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣].

وقام في الأمة علماء ومصلحون، وظنّ هؤلاء أنَّ نشر العلم والتفقه في الإسلام وبيان المشكلات التي تحيط بالأمة الإسلامية كاف في إعادة مجد الإسلام وعِزِّهِ، وغفل هؤلاء عن أنَّ الذين يفقهون ويتعلمون ويعرفون من المسلمين يبقون أوزاعا متفرقين لا يشكلون تيارا يصارع الباطل والطغيان.

وقام آخرون بإنشاء الصحف الإسلامية والمجلات الإسلامية، ويحاول آخرون إنشاء إذاعات إسلامية، ومهما انتفع الناس بما تكتبه الصحف والمجلات، وما تبثه الإذاعات، فإنَّ الفائدة محدودة، لأنَّ الذين لا يريدون للمسلمين أن يفقهوا هم أصحاب الكلمة في الدِّيار التي أنشئت فيها هذه الصحف والمجلات والإذاعات، وهؤلاء يحجبون كلمة الحقِّ، ويمسخونها، ثمّ إنَّ الذين يتأثرون بذلك كلِّه لا يُشَكِّلون وَحْدَة فيما بينهم، وبذلك تبقي قوتهم مشتتة، لا تستطيع أن تهدم بناء معارضا للإسلام، كما لا تستطيع إقامة بناء الإسلام.

وأفضل الرواد هم الذين تنبهوا إلى أنَّ الخطوة الأولى في إقامة صرح الأمة الإسلامية من جديد تتحقق بإقامة تَجَمُّعٍ يؤمن بهذه القضية، يسعى في سبيل تحقيقها باذلا في ذلك النفس والمال.

وفعلا قامت تجمعات كثيرة في العالم الإسلامي تنادي بالعودة إلى الإسلام وانضوى تحت لواء كلٍّ منها ألوف وعشرات الألوف، واستطاعت هذه التجمعات أن تؤثر في حياة المسلمين، لكنَّ واحدا منها لم ينجح - حتى اليوم - في إعادة الأمة إلى مكانتها من جديد.

ولا شك أنَّ بناء الجماعة التي تُأَهِّلُ إلى استلام الراية يحتاج إلى بنَّاء مبدع، لإنَّ الخلل في البناء يؤخر النجاح، بل قد يفشله.

هناك تجمعات لا تعنى بتربية أفرادها، وتظنُّ أنَّ كلَّ مهمتها هو إقامة الخلافة، فإذا قامت الخلافة، فإن الخليفة - عندما ينصب - سيقضي على الباطل - في رأيهم - بجرة قلم، وسيقيم صرح الحقِّ بمنشور أو بيان.

ونسي هؤلاء أن البيت لا يقوم إلا على ركائز وأركان، وركائز هذا العمل هم الذين ينذرون أنفسهم لتحقيقه، فإذا كان فهمهم للإسلام مغلوطا والتزامهم بالإسلام ناقصا، فأنَّي يقيمون صرح الإسلام ؟.

ونادى آخرون بإصلاح الفرد المسلم، والأسرة المسلمة، ثُمَّ تكوين الأمة الإسلامية، واعتمدوا التربية طريقا وسبيلا، ووُفِّقوا في ذلك أيَّما توفيق، ولكنَّهم لم يستطيعوا تجاوز هذه المرحلة.

ودعا آخرون إلى العناية بالجانب الاعتقادي، وصرفوا جُلَّ إهتمامهم إلى العناية به، ولكنَّهم لم يستطيعوا أن يُحَوِّلوا هذا التوجيه إلى منهج متكامل، واحتارت بهم السبل، واستمرُّوا في طرح قضية واحدة هي العناية بالجانب الاعتقادي فحسب.

وقامت تجمعات تحاول تغيير الأمور بالقوة، ولكنَّها لم تستطع ـ حتى اليوم ـ أن تفعل شيئاً، وكان حالها كحال الذي يريد أن يجرَّ شاحنة كبيرة وحده.

وقد طلب الصحابة من الرسول ﷺ وهم ضعفاء في مكَّة أن يأذن لهم بالحرب والقتال، فقال لهم: «كفوا أيديكم». وقال له الأنصار بعد بيعة العقبة: إن شئت ملنا على أهل منى بسيوفنا، فقال: «إنا لم نؤمر بذلك»، وعندما كانوا يطالبونه بأن يدعو الله لهم بالنصر، كان يبشرهم بأنَّ النصر آت، ويقول: «ولكنكم تستعجلون»

وعدم الإذن لهم بذلك لم يكن تعسفاً، بل كان الحكمةَ بعينها، فالقلة المستضعفة لا تستطيع أن تواجه الكثرة الكافرة، والقلة المستضعفة لا تملك الأرض، والاستقلال، والسلاح والمال الكافي، فاللجوء إلى القوة تدمير للقوة الإسلامية قبل أن تقف على رجليها.

وعندما تكوَّنت القاعدة القويَّة التي تستطيع أن تتحمل أعباء القتال أُذن لهم بالقتال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، ثم أمروا بذلك أمرا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقيل لهم: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ [البقرة: ٢١٦].

من الخطأ الكبير تجاوز مراحل الطريق، والقفز من مرحلة إلى مرحلة متقدمة قبل أوانها.

نستطيع أن نقول: إننا لا زلنا في مرحلة مخاض، فالعالم الإسلامي عالم ضعيف موزَّع مشتت، وهو يعاني من مشكلات كثيرة وعويصة، وقد بلغ الدَّرْكَ الأسفل من التأخر والانحدار.

والمسلمون الصادقون العاملون يحاولون دائبين أن يصححوا المسار، ولكنَّهم لم يوفقوا، فالمسألة كبيرة تحتاج إلى مزيد من التفكير والتخطيط

والعمل، وكلما تكاثفت جهود العاملين للإسلام كلّما كان الأمر أدعى للنجاح والفلاح.

إنَّ نسبة كبيرة من جهود العاملين بالإسلام تذهب هدرا، لأنها توجَّه توجيها خاطئا، فهناك، مشكلات في صفوف العاملين بالإسلام، هذه المشكلات أمراض وادواء، وهي تحتاج إلى علاج، أضف إلى هذا الاختلاف بين التجمعات الإسلامية الذي يهدر الكثير من الجهود والطاقات.

إن الأمة الإسلامية بحاجة إلى مَنْ يُجَدِّد لها أمر دينها، بحاجة إلى رجال يحسنون البناء، بناء النفوس وبناء الأمم، أحاطوا علما بالإسلام وعرفوا سنن الله في الحياة والأحياء، وأحسنوا التوجيه والإصلاح، فهؤلاء هم الذين يُقِيلون الأمة من عثرتها، ويعيدون لها عزتها، ويواجهون كيد الأعداء، ويَجبُرون ضعف المسلمين، وعندما يأذن الله يشرق على المسلمين فجر جديد، يمنُّ الله فيه على المستضعفين، فيجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين، وذلك إن شاء الله آت آت...

والحمد لله رب العالمين.

المحاضرة العاشرة

معالم الشخصية الإسلامية

مقدمة

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، وبعد:

فهذه الصفحات التي بين يديك أخي الكريم أصلها محاضرة ألقيت في بلد ناء بعيد في جمع حاشد من الطلبة المسلمين الذين ضربوا في أرض الله الواسعة يطلبون علماً سبقنا إليه أقوام، بعد أن طال رقادنا وكثرت حاجتنا إليه.

ولم يمنع شباب الإسلام أن نأت بهم الدِّيار وغربة الديّار، من أن يستمسكوا بدينهم ويلتقوا عليه، يستمعون إلى الكلمة الطيبة، ويتواصون بالحقّ والصبر.

وهذه الصفحات تأتي اليوم لتمثل جهداً متواضعاً ينضمَّ إلى جهود كثيرة ترمي إلى مقاومة التيار المدمّر الذي يستهدف الفرد المسلم والأسرة المسلمة والمجتمع المسلم، بل يستهدف تقويض صرح الإسلام وقلعه من جذوره.

ونحن موقنون بأنَّ العاقبة للمتقين، وأنَّ النصر عقبى الصابرين، وأنَّ ليل الباطل لن يدوم، وأنَّ شمس الإسلام ستشرق من جديد، وإنني على يقين بأنَّ أسود الإسلام سيدقّون قلاع الكفر يقوّضونها بعزائم لا تلين بنفوس مشبعة بالإيمان، تمضي في الحياة تريد الخير لبني الإنسان.

إلى هؤلاء الذين يتراءون دائماً في الأفق القريب يستجيشون

مشاعـري، ويداعبون آمالي كتـبت هذه الصفحات، لتكون قبـساً يهدي - إن شـاء الله تعالى - للتي هي أقـوم، ذلك أن صـفحـاتها رصـعت بآي الكتـاب، وأحــاديث المصطفى، فكيـف لا تكون كـذلك، اللهمَّ ألـهـمنا رشدنا وقنا شرَّ أنفسنا.

نافذة على عالم البشر

لو قُدِّر لبعضنا أن يطلّ من نافذة تشرف على عالم البشر في كلّ الأزمنة والأمكنة، فإنّه سيرى أخلاطاً متباينة، واتجاهات مختلفة، وأنماطاً متفاوتة، وسيرى الناس يسيرون في دروب كثيرة متعرجة حيناً، ومتشابكة حيناً آخر، وسيرى كأنَّ البشرية قد غشيها في عصورها المتطاولة ظلام متكاثف، فهي تضرب في دروب الحياة في ليل بهيم، تسير وتسير ويضنيها المسير، ثمَّ لا تصل إلى الشاطىء الآمن، ونراها تحدّد أهدافاً، وتقصد غايات، وعندما تشارف الهدف المنشود ينكشف عن سراب خادع، إلا أنَّ الناظر من تلك النافذة سيرى في وسط تلك الطرق المتعرجة المتشابكة طريقاً واحداً مستقيماً، لا ينحرف يميناً ولا شمالاً، طريقاً واحداً، تهب عليه الأعاصير، وكلّما قاربت معالمه على الاندثار، ورسومه على البلى شاهدنا أقواماً يقومون بكشف الرمال عنه من جديد، ويوضحون معالمه، ويجددون رسومه.

ونطلُّ من تلك النافذة فنرى السائرين في هذا الدرب الواحد القويم يكثرون أو يقلّون، ولكنّ الطريق لا يخلو من السائرين، ونرى هذا الدرب منيراً في وسط الظلام الذي يلفُّ الكون، وأصحابه يشرق النور من قلوبهم، ووجوههم، ويحملون مشاعل النور في أيديهم، ويدعون غيرهم إلى الطريق الموصل إلى الأمن والأمان، ويدعونهم إلى النور الذي يضيء ظلمات الحياة كما يضيء القلوب والنفوس.

ليس هذا الذي أقوله خيال شاعر، ولا أوهام حالم منعزل عن الحياة، يجري به الفكر في دنيا البشر ذات اليمين وذات الشمال بلا ضابط، حقاً إننا لم نؤت تلك النافذة التي نطلُّ منها على عالم البشر

في الحاضر والماضي، ولكننا أوتينا كتاباً من العليم الخبير، الذي خلق الكون وأنشأ الإنسان، وعندما يحدثنا العلم الخبير فإنه العلم الصادق الذي لا شك فيه، فهو سبحانه الأول الذي لا شيء قبله، وهو خالق الزمان والمكان، والعالم بكل ما كان.

فالقارىء لهذا الكتاب بقلب مفتوح، وعقل متدبر، يطلّ على عالم البشر، ويرى الضلال الذي عاشه الناس في مختلف العصور، والظلمة التي كانت تتغشاهم، فقد ضلُّوا عن إلههم الحق، وعبدوا من دونه الجماد والنبات والحيوان والإنسان، ويرى الطرق المتباينة التي توصل جميعها إلى الهاوية، والبشر فيها يسعون، وما تلك الفلسفات والعقائد والتصورات والمذاهب في القديم والحديث التي تخالف ما أنزله الله إلا طرق غواية، قد تختلف فيما بينها إلا أنّها تشترك جميعاً في أنَّها ضلال وبعد عن الحق والحقيقة.

وفي وسط هذا الضلال يوضح لنا القرآن ذلك الطريق الطويل المستقيم الذي استمر على مرّ الزمان، ذلك الدرب الذي سار فيه أبو البشر آدم، وتعاقب على السير فيه الصالحون من بني آدم: من النبيين، والمرسلين، والصدّيقين، والصالحين، والشهداء. والقرآن يحكي لنا مسيرتهم في هذا الدرب لا يحيدون عنه يميناً ولا شمالاً: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وهم يسألون الله دائماً التوفيق إلى هذا الصراط والثبات عليه ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، وهم في هذا الدرب يستنيرون بنور الله المتمثل في وحيه إلى رسله ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا

﴿كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وهم يدعون غيرهم إلى الصراط المستقيم والنور الهادي ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، ويهدي الله من يشاء من عباده، ويبقى في الظلمة الأشقياء.

السائرون على الدرب

الذين سلكوا الدرب القويم والصراط المستقيم، واستضاءوا بنور الحقّ الإلهي يمثلون الإنسانية الحقّة السويّة التي حققت الغرض من وجودها، وقامت بدورها في الحياة ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وهؤلاء عبدوا الله كما شاء الله، فكانوا هم الفئة الخيرة المصطفاة، والذين تاهوا في دروب الحياة، وهلكوا في أوديتها، هم أضلّ من الأنعام، ﴿أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، لأنّهم أعرضوا عن الأدلاء النجباء والدعاة، واستكبروا عن متابعة الحق مغترين بعقولهم وأفهامهم.

أولئك السائرون في الدرب القويم هم المسلمون، فالإسلام دين الله الذي أنزله على جميع رسله، وسار عليه كلُّ الصالحين الذين يُعدُّون كذلك بحقّ، ولم ينزل الله ديناً سواه ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، والرسل كلُّهم مسلمون أعلنوا ذلك للملأ، ووصّوا أبناءهم وأتباعهم بالدينونة بالإسلام، فإبراهيم وإسماعيل يرفعان القواعد من البيت ويدعوان قائلين: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]. ويوصي كل من إبراهيم ويعقوب أبناءَه ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، ويوسف بن يعقوب يحفظ وصية الآباء ويدعو الله أن يتوفاه على الإسلام ﴿تَوَفَّنِي

مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١].

هؤلاء السائرون على الدرب النير الواضح عبر العصور هم المسلمون الذين لم يركنوا إلى حولهم وقوتهم، ولا اعتمدوا على عقولهم وعلومهم، وإنّما شعّ نور الهداية على عقولهم وقلوبهم، فاستضاءوا به كما يستضيء المبصرون بنور الشمس.

لقد سار هؤلاء ونور الله يشع عليهم، وعنايته تكلؤهم، بينما الناس من حولهم يرفضون أن يستضيئوا بنور السماء، ويأبون إلا أن يعتمدوا على أنوار خافتة باهتة لا يستطيعون أن يكشفوا بها غياهب الظلام، فكانوا كمن يمسك بيده ذبالة في ليل بهيم عاصف، بينما الأولون يمسكون بالشمس المشرقة الساطعة.

خصائص واضحة:

هؤلاء الذين نصف حالهم ينفردون عمَّن سواهم بخصائص واضحة وصفات بينة، تجعلهم يمثلون في عالم البشر نمطاً فريداً، وبمعنى آخر، فإنَّ لهم شخصية محددة المعالم نراها في المسلمين الأوائل كالرسل والأنبياء، وأتباعهم، كما نجدها في الذين يتمثلون الإسلام بصدق في هذه الأمة.

الشخصية السويّة:

والشخصية الإسلامية هي الشخصية الإنسانية الوحيدة التي تُوسم بأنَّها سويّة، سويّة في صفاتها وخصائصها، في آمالها وطبائعها، في مقاييسها وموازينها.

وهي الشخصية السوية لأنها لم تمسخ فطرتها، ولم تشوّه جبلتها.

ولأنها تسعى في هذا الكون لتكون الإنسان الذي شاءه خالق الكون، ومبدع الحياة، وفاطر الإنسان.

وغيره يجري في الحياة منكّس القلب، مشوش الفكر، لا يعرف طريقه وسبيله.

الشخصية الإسلامية الممسوخة:

وهذا لا يعني أنَّ هؤلاء وأولئك الذين تسمّوا بالإسلام، ولم يكن لهم من الدّين إلا اسمه، ولا عرفوا من القرآن إلا رسمه يمثلون الشخصية الإسلامية، ذلك أن الشخصية الإسلامية هي التي تمثل الخصائص التي ينشئها الإسلام في نفس الإنسان، أما الذين ينسبون إلى الإسلام، ويقوّمون النفوس والعقول بمناهج البشر وعاداتهم فهؤلاء مسخ الشخصية الإسلامية، وإن تَزَيَّوا بزي العلماء، وتسموا بأسماء الزهاد والعباد، وزعموا أنَّهم الأولياء والأوتاد.

لقد مسخ أقوام زعموا التصوف، وآخرون هاموا بالتفلسف، الشخصية الإسلامية، فأصبحنا نرى أقواماً يزعمون الإسلام، ولا نرى عليهم من الإسلام إلا طبقة رقيقة سرعان ما تذوب وتتهاوى عندما تبلى بالشدة واللأواء.

الشخصية الإسلامية عبر القرون:

تعرضت الشخصية الإسلامية عبر القرون إلى حملات آثمة غادرة، استهدفت إزالتها وتدميرها، كما استهدفت ـ إذا عجزت عن الإزالة والمحو ـ تشويهها ومسخها، وقاد هذه الحملة أعداء الإسلام بما ألقوه من شبهات، وبما جاءوا به من فلسفات وثقافات، أرادوا أن يزاحموا

بها الإسلام في نفوس المسلمين، وبذلك لا يستقل الإسلام ببناء الإنسان، ولا يكون هو المسلم الحق الذي يريده الله، ولقد شوِّهت عقائد الإسلام وتصوراته، وخالط العقيدة علمُ الكلام والفلسفة.

وزعم أقوام أنهم يستمدون علمهم من تجليات قلبية، وإلهامات وسبحات، أنزلوها منزلة الوحي، واختلطت على المسلمين السبل، واحتار كثير من السالكين، وكثر الزاعمون بأنّهم وحدهم على الحقّ المبين، وأنَّ غيرهم على الضلال، وماجت الحياة الإسلامية بفرق كثيرة جعلت بأسها بينها، ورمى بعضها بعضاً بالمروق من الدين، والكفر بالله ربِّ العالمين.

الشخصية الإسلامية اليوم:

والشخصية الإسلامية اليوم تمثل في ذاتها ذلك التراث الذي ورثته عن الآباء والأجداد عبر قرون طويلة، وهو تراث ضخم شارك في إيجاده اتجاهات مختلفة بعضها لا يريد بالإسلام وأهله خيراً، أضف إلى هذا أنَّ الصراع اليوم متجه إلى امتلاك فكر الإنسان والتأثير على تصوراته وعقائده، وللدول الكبرى والمذاهب المختلفة في هذا الباب غرام شديد، ومن أجله سَخَّرت إذاعاتها وصحفها وبرامجها، وإليه وجَّهت الكتاب وأصحاب الفكر والممثلين، وأنفقت في سبيل ذلك أموالاً تكفي لإثراء الفقراء، وإزالة أسباب التعاسة، ومحاربة المرض والجهل، ولكنَّ الإنسان يحرص على بثِّ فكره وحمل النّاس عليه ودعوتهم إليه حرصاً يصغر أمامه ـ أحيانا ـ بذل نفسه فضلاً عن ماله، وصدق الله إذ يقول: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُم﴾ [الأنعام: ١٠٨].

بناء الشخصية الإسلامية من جديد:

إذا كان الأمر كذلك، وكانت الشخصية الإسلامية لا تمثل اليوم الشخصية الإسلامية الحقّة ـ إلا من رحم الله ـ كان لزاماً أن نعود من جديد لبناء شخصية إسلامية واضحة المعالم، بينة الخصائص، كتلك الشخصية التي تمثلت في الرسل والأنبياء، وفي الصحابة الكرام، وفي الأئمة الأعلام.

ويجب أن نعتمد في هذا على المصادر التي اعتمدها سلفنا وأئمتنا في تكوين الشخصية الإسلامية، وتلك المصادر هي الكتاب والسنّة ففيهما الغناء، إلا أنّ الذي أعان على تكوين الشخصية الإسلامية من الكتاب والسنّة رؤية الإسلام متمثلاً في شخصية إنسان تمثلاً عملياً هو الرسول ﷺ، ثمّ تمثل في جيل بأكمله هو جيل الأصحاب ثمّ أصبح واقعاً ومجتمعاً، وبذلك سهل بناء الشخصية الإسلامية حيث ترى المثل الإسلامية واقعاً مشاهداً، وحيث الجو الإسلامي الذي ينشر عطره ونوره وهديه، وبذلك يتنفس المسلم في جوٍّ الإسلام.

لماذا نبحث عن مُكَوِّنَاتِ شخصيّتنا المسلمَة؟

ونستطيع أن نقرر بعد هذا البيان أن الأسباب التي تدعونا إلى التعرف على الشخصية الإسلامية كثيرة منها:

الأول: أنَّ المسلم الذي يريدنا الله أن نكونه كي يرضى عنّا ويتقبل منّا له أوصاف خاصة بينها الله وأوضحها، فإذا جهلنا هذه الشخصية التي يريدنا الله أن نكونها فإننا لن نحصل على مطلوبنا، وسنكتشف بعد مسيرة طويلة أنّنا كنا نسعى وراء سراب، وأنّنا كوّنا أنفسنا تكويناً خاطئاً، وبذلك نكون ـ والعياذ بالله ـ من الذين قال فيهم ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ

يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [**الكهف**: ١٠٣، ١٠٤].

الثاني: أنَّ المسلم الذي نريده كي يتسلَّم الأمانة، ويحمل ميراث الرسالة، ويوجه الحياة الوجهة التي يريدها الله، ويسخّر الدنيا بالإسلام هو المسلم الذي يتصف بمواصفات خاصة، فإن لم يتصف بها فإنه لا يستطيع أن يتحمل المهمة المناطة به في الحياة، والمسلمون اليوم ليس لهم تأثير في الحياة، فالقوى الكافرة هي التي تسلمت زمام الأمور حتى في ديار الإسلام فضلاً عن ديار الكفر، وما ذلك لقلة المسلمين، ولكن لأنَّهم كما وصفوا (غثاء كغثاء السيل).

فإذا شئنا أن نعيد للإسلام ما كان له، فلا بدَّ من إعادة الشخصية الإسلامية التي رأيناها في الرعيل الأول، وبمثل أولئك الرجال أعلى الله كلمته، وأعزَّ دينه، وأذلَّ الشرك وأهله.

الثالث: إنَّ الشخصية الإسلامية تعرضت عبر القرون للتشويه والمسخ، إمّا بفعل عوامل الضعف التي طرأت على الأمَّة الإسلامية، وإمّا بفعل تأثير الثقافات الواردة إلينا والتي غزت العقول والقلوب، وإمّا بفعل أعدائنا الذين حرصوا على تحطيم شخصية المسلم، لأنَّ المسلم إذا لم يتصف بالسمات التي حدّدتها الشريعة الإسلامية فما أسهل أن يُغتال فكره وروحه، يُسخَّر ويسيّر ليخدم الكفار، ويحقق مخططات أعداء الله، وبذلك يكون (كمن يسعى إلى حتفه بظلفه).

مَعالم الشخصيَّة الإسلاميَّة

أولاً: صبغَة إلهيَة

يقول أحدُ شعراء همدان[1]:

وكل أنــاس لهـــم صِبْـغَـةٌ　　　وصبغة همــدان خير الصبَغْ

صبــغنا علـــى ذاك أبــناءنــا　　　فأكرم بصبــغــتنا في الصِّبغ

لقد أصاب الشاعر عندما قرر أنَّ كلَّ قوم لهم صبغة، وأصاب عندما أخبرنا أنَّ هذه القبيلة صبغت أبناءَها بصبغة خاصة، فالأبناء خامة طيبة صافية، ولكنَّها صالحة لأن تشكَّل بتشكيلات مختلفة، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «كلُّ مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو يمجّسانه أو ينصرانه».

لقد أصاب الشاعر في ذلك كلِّه، ولكنّه أخطأ خطأً كبيراً عندما قرر مفتخراً على طريقة أهل الجاهلية بأنّ (صبغة همدان خير الصبغ)، والحقّ هو الذي قرره الله جلّ وعلاه في قوله: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨].

وصبغة الله هي الإسلام؛ ذلك أن الإسلام يصبغ الإنسان بصبغة خاصة في عقيدته وفكره ومشاعره وتصوراته وآماله وأهدافه وسلوكه وأعماله، فالدّين الإسلامي هو صبغة الله التي تصبغ المسلم بصبغة خاصة تظهر عليه في كلِّ شيء كما يظهر أثر الصبغ في الثوب، يقول القرطبي عند تفسير هذه الآية: (فسمّي الدّين صبغة استعارة ومجازاً حيث تظهر أعماله وسمته على المتديّن، كما يظهر أثر الصبغ في الثوب)[2].

---

(١) تفسير القرطبي (٢/ ١٤٤).

(٢) المصدر السابق.

فالمسلم يمتاز بأنه صبغة إلهية، وهذا يوجب علينا أن نتوجه إلى الإسلام نستمد منه عقائدنا وتصوراتنا، ونرسم أهدافنا وغاياتنا في ضوء تعاليمه، ونقيم سولكنا وأعمالنا وعلاقاتنا مهتدين بهديه.

وهذا يقتضي أن نطرح أهواءنا جانباً ونحن نعمل بالإسلام ونُربِّي عليه، نحن لا نريد أن نربي نفوسنا ونفوس الآخرين بأهوائنا وبمناهجنا نحن، وإنّما نريد أن نُصبَغَ بالصبغة الإلهية الربانية، وأنَّى نكون كذلك ما لم نتوجه إلى الإسلام بكليتنا نستمدُّ منه ونستقي منه، ملقين عنّا الهوى، كما نلقي تصوراتنا ومقرراتنا، التي تلقيناها من غير الإسلام بعيداً! ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨].

إنَّ الذين ينتمون اليوم إلى الأديان المحرفة: اليهودية والنصرانية، والذين ينتمون إلى المبادىء التي أنتجتها عقول البشر: كالاشتراكية، والشيوعية، والبوذية، والماسونية، والقاديانية، وغير ذلك ـ مصبوغون بصبغة بشرية إنسانية، فالفرق بينهم وبين المسلم كالفرق بين صنعة الخالق وصنعة الإنسان، يقول قتادة ـ أحد مفسري السلف الصالح ـ : (إنَّ اليهود تصبغ أبناءَهم، وإنَّ النصارى تصبغ أبناءَهم، وإن صبغة الله الإسلام)[1].

ولقد كان حرص الرسل شديداً على هذه الصبغة الطيبة الكريمة، يأخذون أنفسهم بها، ويوصون أبناءهم بالتمسك بها والثبات عليها، وهذه القضية هي خلاصة دعوة الرسل، وهي المِلَّة التي لا يزيغ عنها إلا هالك، ولا يرغب عنها إلا سفيه: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠] وقد سارع الخليل صلوات الله عليه للاستجابة إلى الإسلام والأخذ به عندما دعاه الله، ولم يتوان ولم يتباطأ ولذلك اختاره الله واجتباه ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ، إِذْ قَالَ لَهُ

(١) تفسير القرطبي: ٢/ ١٤٤.

رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ [البقرة: ١٣٠ – ١٣١].

ولقد دعا إبراهيم أبناءه إلى هذه الدعوة، وتتابع عليها الأفذاذ من ذريته يوصي السابق منهم اللاحق: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ، أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ، تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢ – ١٣٦].

الصبغة الإلهية هي العبودية بمعناها الواسع:

وهذا الذي أجاب به بنو إسرائيل أباهم ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٢٩ – ١٣٧] هو الطريق الذي يحقق الصبغة الإلهية، وتحقيق ما قالوه يكون بتحقيق العبودية لله وحده، ولا نعني بالعبادة ذلك المفهوم الضيق الذي حصرها فيه الفقهاء، وهو الشعائر التعبدية، وإنّما نريد بها معناها العام الذي يشمل الدّين كلّه، والدّين يتضمن معنى الخضوع والذل، يقال: دنْته فدان، أي أذللته فذلّ، ويقال: يدين الله، ويدين لله: أي يعبده، ويطيعه، ويخضع له.

والعبادة بمعناها العام: اسم جامع لكلّ ما يحبّه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج، وصدق الحديث وأداء الأمانة وبرّ الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل، والبهائم، والدعاء والذكر، والقراءَة وأمثال ذلك من العبادة.

وتشمل كذلك حبَّ الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك.

كما تشمل ما زاد على الفرائض من ألوان التعبد التطوعي من ذكر وتلاوة ودعاء واستغفار، وتسبيح وتهليل.

تشمل أيضاً حسن المعاملة، والوفاء بحقوق العباد، كبرّ الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان لليتيم، والمسكين وابن السبيل، والرحمة بالضعفاء، والرفق بالحيوان.

وهي تشمل الأخلاق والفضائل الإنسانية كلّها من صدق الحديث وأداء الأمانة، والوفاء بالعهد، وغير ذلك من مكارم الأخلاق. إلا أنَّ السبيل الذي نحقق به الصبغة الإلهية يحتاج إلى مزيد بحث وبيان، وهذا ما سنبيّنه في المسألة التالية:

السبيل إلى صبغة إلهية

والسبيل الذي يمكننا به أن نصبغ أنفسنا وأبناءَنا وأهلنا ومن نربيهم بهذه الصبغة الإلهية لا يتحقق إلا بأمور:

الأول: معرفة الإسلام معرفة حقّة من كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، أمّا كتاب الله فواضح لا يختلط بغيره، وأمّا سنّة الرسول ﷺ فإنَّ أمرها

يخفى على كثير من الناس، لأنَّه قد نسب إلى الرسول ﷺ كثير من الأقوال والأفعال كذباً وزوراً بحسن نية أو بسوء نية، ولذلك ينبغي التحري في ذلك حتى لا يقع المسلم في خطأ كبير، إذ يظنّ أنَّ هذا من الإسلام وهو ليس منه.

وقد قام الجهابذة من العلماء ببيان الصحيح من الضعيف، وألّفت في كلٍّ ذلك مؤلفات، ورتّبت الأحاديث وبوبت ليسهل الرجوع إليها.

وقد حذرنا الرسول ﷺ من التساهل في نسبة القول إليه، ففي الحديث: (من حدَّث عني بحديث يُرى أنَّه كذب فهو أحد الكذّابين) أي واضع الكذب أو ناقله.

ويقول (اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم)، ويقول: (من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار).

الثاني: توحيد مصدر الهداية والتلقي: ينصُّ القرآن على أنَّ الهداية الصحيحة لا تكون إلا في الهداية الإلهية المتمثلة في الوحي المنزل من عند الله ﴿ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ﴾ [البقرة: ١٢٠]، والسبيل لنيل الهداية هي فقه هذا الدين والالتزام بتعاليمه.

وقد حرص الرسول ﷺ على توجيه أصحابه إلى هذا الوحي كي يتلقوا منه وحده، ونهاهم عن التلقي من غيره، فقد غضب الرسول ﷺ من عمر بن الخطاب عندما جاء بصحيفة من التوراة يستجيد ما فيها ويستحسنه، وقال له: (والله لقد جئتكم بها بيضاء نقيّة، والله لو كان أخي موسى حيّاً، واتبعتموه وتركتموني لضللتم) **وهو يشير هنا إلى قضيتين:**

الأولى: عدم صلاحية المناهج الأخرى للتلقي منها واتباعها لتحريفها وتغييرها، والدّين الخالص النقي هو الإسلام.

الثانية: وجوب متابعة الرسول ﷺ دون سواه، وإلا فالضلال محتم.

وفي قصر الهداية على هذا الوحي الذي أنزله على عبد الله ورسوله محمد ﷺ بناء لشخصية الإنسان المسلم على نمط إلهي فريد لا يشارك فيه البشر إلا بالفهم والتوجيه والعون، أمّا إذا تعددت المناهج، فإنَّ دين الله لا يعمل وحده في النفوس، بل يشاركه غيره، وهنا تبنى النفوس بناء غير سويّ.

ولقد غزت العالم الإسلامي عقائد وتصورات ومناهج وفلسفات حاول بعض الذين ينسبون إلى الإسلام توجيه المسلمين إليها، كما حاولوا خلطها بالإسلام كي يتقبلها المسلمون، ونشأت عن هذا محن وفتن، وما محنة القول بخلق القرآن ببعيدة عن أذهاننا، ولقد نشأ عن هذا الخلط بين منهج الله ومناهج البشر مفاسد كثيرة، وتفرق المسلمون إلى نحل وفرق: معتزلة وأشاعرة، وخوارج ومرجئة، وكان منهم الذين سمّوا بفلاسفة الإسلام، واختلطت بعض العلوم بصبغة أخرى كعلم الكلام وأصول الفقه.

والعلماء الأعلام أمثال الإمام أحمد والشافعي وابن تيمية وأحزابهم رفضوا هذا الاتجاه، وطالبوا بالاقتصار على الوحي وحده دون سواه، وفق قواعد وأصول مأخوذة من الإسلام نفسه، ومما كان عليه الرسول ﷺ، ومن اللغة التي نزل بها القرآن، وآخرون مخلصون لكنهم خاضوا فيما نهى عنه أولئك الأفذاذ، فضيعوا العمر ولما يصلوا إلى الشاطىء الآمن، ويقفوا على الأرض الصلبة.

من هؤلاء محمد بن عمر الرازي صاحب التفسير، يقول في كتابه أقسام اللذات.

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وغاية دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا		سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
وكم من جبال قد علا شرفاتها		رجال فزالوا والجبال جبال

ثم يقول: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تروي غليلاً، ولا تشفي عليلاً، ورأيت أفضل الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠].

وأقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] ثم قال (ومن جرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي).

وهذا الشهرستاني يضرب على الوتر نفسه، ويقرر أنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين بعد طول بحث وتنقيب إلا الحيرة والندم حيث يقول:

لعمري لقد طفت المعاهد كلَّها		وسيَّرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كفَّ حائر		على ذقن أو قارعاً سنَّ نادم

وهذا الجويني وهو من الجهابذة الذين اشتغلوا بعلم الكلام يقول محذراً من الاشتغال به: (يا أصحابنا، لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أنَّ الكلام يبلغ بي ما بلغ ما اشتغلت به).

وقال عند موته متندماً متحسراً: (لقد خضت البحر الخضم وخلَّيت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني الله برحمته فالويل لابن الجويني، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي، أو قال: على عقيدة العجائز).

وأبو حامد الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ من هؤلاء الذين أطالوا البحث والتنقيب والتنقل من فرقة إلى فرقة، وقد انتهى في آخر عمره

إلى الوقف والحيرة في المسائل الكلامية، وألّف كتابه (إلجام العوام عن علم الكلام)، بل حرَّم الاشتغال بعلم الكلام إلا في حالات خاصة.

وقد أعرض في آخر عمره عن الاشتغال بعلم الكلام والطرق الكلامية، وأقبل على أحاديث الرسول ﷺ فمات وصحيح البخاري على صدره.

وأبو الحسن الأشعري نشأ معتزلياً، وبقي كذلك أربعين عاماً، ثم رجع عن ذلك، وصرَّح بتضليل المعتزلة، وبالغ في الرد عليهم(١).

تلك خطيئة طوائف من المسلمين في الماضي طلبوا الهداية في غير دين الله، واليوم يظنُّ بعض الكتاب وأصحاب الفكر أنه يتوجب على المسلمين أن ينظروا في قوانين الغرب ونظمه وتعاليمه، وما أنتجه مفكروه في القانون والأخلاق والمناهج، ويوجبون نقل ذلك كلّه إلى أبناء المسلمين، بل يقومون هم بتنفيذ ذلك، ولقد والله جاءنا سيل من هذه الثقافة غزا قلوبنا وعقولنا ومعاهدنا ووزاراتنا واختلط الحق بالباطل في التصورات والمناهج، بحيث غدا الإسلام غير معروفة معالمه وحدوده عند كثير من أهله، والله يريد أن يتبينَّ الإسلامُ من الكفر، والحقُّ من الضلال دائماً وأبداً ﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

إننا نرفض هذا الخلط، وعلينا أن نعود للمصدر الوحيد الذي نتلقى منه الهداية، أمّا في العلوم الدنيوية التي تبني المصنع، وتعمِّر المدينة، وتنتج الزراعة، وتعالج الإنسان، فالإسلام يراها علوماً دنيوية تؤخذ من كلّ من أفلح فيها، فهي غير قاصرة على قوم دون قوم، وفئة دون فئة، وهي تجارب بشرية وخبرات إنسانية، ترك الله للبشر تنميتها والترقي فيها وفق ضوابط وحدود، بخلاف الهداية الإلهية في العقيدة والشريعة والأخلاق والحكم فهي من الإسلام وحده لا غير.

---

(١) انظر كتابنا (العقيدة في الله)، ورسالتنا (أصل الاعتقاد).

التقليد:

ولا يفوتني هنا أن أنبه إلى منهج ساد في العالم الإسلامي لفترة طويلة، وهو التقليد الذي هو متابعة الآخرين من غير دليل، وهو طريق خطير أضرَّ بالمنهج السليم، منهج الرجوع إلى الكتاب والسنّة في كلٍّ الأمور، وهو المنهج الذي كان عليه الرعيل الأول، فقد ساد فيهم فقه الكتاب والسنّة علماً وعملاً، فترك ذلك إلى كتب الرجال التي تدون أقوالهم من غير نظر في الدليل، وهو منهج رفضه الفقهاء الكبار أمثال الأئمة الأربعة أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد رضي الله عنهم.

وما زلنا حتى اليوم أقواماً يواجهون بالأدلة من الكتاب والسنة التي لا تحتمل تأويلاً، فيقول قائلهم أنا مذهبي كذا، وصاحب المذهب يقول بخلاف هذا القول، فيقدِّم قول صاحب المذهب على قول الله ورسوله، والله يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١].

وفي يوم القيامة سيتبرأ الأئمة من هؤلاء الذين يتركون الدليل ويزعمون متابعة الأئمة، فقد حذروا أتباعهم من أخذ أقوالهم وترك قول الرسول ﷺ.

الثالث ـ العمل: والسبيل الثالث الذي يلزمنا كي نصبغ أنفسنا بصبغة الله هو العمل بالإسلام، فلا يكفي العلم من غير عمل، إذ العلم وسيلة إلى العمل، والعمل ثمرة العلم. والعلم الذي لا يعمل به صاحبه حجّة عليه لا له، وقد ضرب الله للذين يعلمون ولا يعملون مثلاً بالحمار الذي يحمل الأسفار فوق ظهره، تثقله وتتعبه، ولكنّه لا يستفيد منها إذ لا يعمل بما فيها، ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].

وقال الشاعر في مثل هؤلاء:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

الرابع ـ الدعوة: ولا يكتمل ذلك كلّه إلا بأن يدعو الذين استنارت قلوبهم بهدي الله، وثبتت على طاعته غيرهم إلى الحقّ الذي عرفوه بالحجة والبرهان، وعليهم أن يبذلوا في سبيل ذلك جهوداً جادّة ومكثفة، لأنَّ بلاغ هذا الحق أمانة في الأعناق، وقد طلب الله منّا أن نقيم الحجة على العالمين بإبلاغ الرسالة والدين.

الخامس ـ التربية والتقويم: ولا يكفي الدعوة إلى الحق بل لا بدَّ من تربية الذين استجابوا للحقِّ ورضوا به، لا بدَّ من تربيتهم على هذا الحقّ وتزكية نفوسهم به، وقد أمر الله علماء أهل الكتاب بأن يكونوا ربانيين ﴿ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩] والرباني هو الذي يربي الناس بمنهج الله، ويتدرج بهم حتى يصل بهم إلى المستوى الرفيع الذي يريده الله، ولذلك قال ابن عباس في تفسيرها: «هم الذين يَربُّون الناس بصغار العلم قبل كباره».

والتربية والتقويم تحتاج إلى إيجاد البيئة السليمة التي يتربّى فيها الذين استجابوا للحق، والبيئة السليمة هي إيجاد المجتمع المسلم الذي يحكّم شريعة الله، ويأتمر بأمره، وتسود فيه التعاليم الإسلامية، وتنبذ منه الذنوب والمعاصي، وترتفع فيه كلمة الحق، وحتى يُوجد هذا المجتمع السليم الذي يستطيع أن يتربى فيه المسلم تربية سليمة، علينا أن نوجد المحاضن التي تُربّى فيها الناشئة من المدارس والمساجد ولا بدَّ أن يتكاتف العاملون للإسلام كي يكونوا نواة صالحة تنمو باطراد كلّما انضم إليها عضو جديد، ثم تشكّل جسماً سليماً يتسنَّم في النهاية الذروة، ليقيم الحقّ، ويحكِّم شرع الله.

ثانياً: البَصيرة

المسلم الذي اهتدى بهدي الله مسلم مستنير، أعطي البصيرة والفرقان، فالإسلام الذي يعتنقه المسلم حياة للقلوب يشفي أمراضها وأدواءها، ونور يكشف دياجير الظلمات التي تغشى النفوس، كما يكشف ظلمات الفكر التي تهب علينا من الغرب والشرق والمتمثلة في نظمه وتعاليمه وأخلاقه، والتي تحملها لنا الكتب والمجلات والإذاعات، وبهذا النور يشقُّ المؤمن طريقه في الحياة على بصيرة ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

فقد شبه النص الوحي بالروح يحيي القلوب الميتة، وبالنور يكشف الظلمات، والمراد بالظلمات هنا ظلمات الباطل المتمثلة في فلسفات البشر ومناهجهم وتعاليمهم، والتي يضعها القادة والزعماء والمفكرون الذين تجاوزوا حدودهم، ورفعوا أنفسهم إلى مرتبة الأرباب، يشرِّعون ويحلُّون ويحرِّمون بعيداً عن منهج الله، فتكون تعاليمهم ظلمات ترين على العقول والقلوب، ولا يخرج الناس من ظلمة إلا إلى ظلمة، ولا سبيل إلى الخلاص من ظلمات الأديان المحرفة والمذاهب الباطلة من يهودية ونصرانية، وشيوعية ورأسمالية، إلا بالاستضاءة بنور الله، ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

والنور الذي يعيش فيه المسلم إذا اعتمد على الكتاب والسنة نور خالص صاف لا يخالطه غبش ولا دخن، وقد ضرب الله مثلاً لهذا النور الذي يتلألأ في قلب العبد المؤمن في سورة النور فقال: ﴿اللَّهُ نُورُ

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

فهذا مثل ضربه العليم الحكيم لنوره في قلب عبده المؤمن.

فهو نور متوهج صاف، مصدره الإيمان والقرآن الذي في صدر العبد المؤمن، يقول الصحابي الجليل أبيُّ بن كعب في هذه الآية: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ﴾ [النور: ٣٥]. قال: «هو المؤمن الذي جعل الله الإيمان والقرآن في صدره، فضرب الله مثله فقال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] فبدأ بنور نفسه، ثم ذكر نور المؤمن، فقال: مثل نور من آمن به» وقد روى هذا القول أيضاً عن ترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنه(١).

ولذلك قال في الختام: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥] أي يرشد إلى هدايته من يختاره.

وهذا النور الإلهي الذي يحلُّ في قلب المسلم يكوِّن لديه البصيرة التي يعرف بها الحقائق، ويدرك بها الأمور، كما يصبح لديه الفرقان الذي يقيس به الأمور، ويفرّق به بين الحقِّ والباطل، والهدى والضلال، والأصدقاء والأعداء.

وهذه البصيرة وذلك الفرقان ضروريان للمسلم الذي يريده الله تعالى، كي يبصر طريقه في الحياة، ويسير على هدى، وإلا تخطفته الشياطين: شياطين الجنّ والإنس.

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/١٠٢.

واليوم نحن بحاجة شديدة إلى هذه البصيرة وذلك الفرقان، ونحن ننطلق في المسيرة لإعلاء كلمة الله، ومجابهة طواغيت الكفر، ومحاربة المبادىء الظالمة المسلطة فوق رقاب المستضعفين من البشر، إننا محتاجون إلى البصيرة والفرقان، كي نعرف الطريق ونرسمه، وكي نعرف الأصدقاء والأعداء، وكي نبني البناء السوي بإتقان، وحين غاب الفرقان وتلاشت البصيرة في نفوس المسلمين ضلّوا في متاهات الحياة، فتنكر كثير من أبناء الإسلام لدينهم، وذهبوا ينهلون من أهل الشرق والغرب.

ووضع كثير من المسلمين أيديهم في يد أعدائهم، وجاءوا بهم خبراء ومستشارين ورضوا بهم، واتخذوهم أولياء، وبلغ السيل الزُّبى عندما رضي من رضي باليهود أحبة وأصدقاء وصافحهم وعانقهم، وأعطاهم البلاد والمقدسات وصدق الله إذ يقول: ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩] ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] وما ذلك إلا بسبب العمى: عمى البصائر لا الأبصار ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

ثالثاً: العزّة

الهداية الإلهية التي يستشعرها المسلم، والحقُّ الخالص الذي يحمله، ووضوح السبيل والطريق، ومعرفته بالضلال الذي يعيش فيه الناس، كلّ ذلك يشعره بالعزّة، وهي عزّة حقيقية صادقة تقوم على أصول قويمة ثابتة، عزَّة الانتساب إلى الله، والانتماء إلى دينه الحق ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

أمّا اعتزاز البشر بأجناسهم وألوانهم ولغاتهم وأنسابهم وأموالهم فهي عزة جوفاء تقوم على شفا جرف هار، تقوم على تصورات خاطئة، وقيم زائلة.

وعزة المسلم تدعوه إلى الاعتزاز بالحقّ الذي يحمله، فلا يُسِرُّ إسلامه وصلاته وعبادته، بل يعلن ذلك على الملأ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

وهذه العزة تجعله داعية للعالمين، يدعوهم إلى الهدى والرشاد، وهو موقن من جودة بضاعته التي يدعو إليها، ومن صلاحيتها لانتشال الناس من الأوحال والأقذار التي تلطخ نفوسهم وقلوبهم ومجتمعاتهم.

وهذه العزة تجعله قائداً لركب الإنسانية، وإماماً يهتدى به ويقتدى به، تجعله في مرتبة متقدمة يحمل الراية، وينير الدرب للسائرين، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

هذه العزة تجعله لا يخجل من انتمائه إلى الإسلام وأمة الإسلام، ولا يخجل من عقيدته وشريعته، ولا من أن يتحدث بلغته لغة القرآن، ولا يخجل من لباسه الذي يخالف به الكفر وأهله.

هذه العزّة ضرورية للمسلم السائر على الدرب، وبدونها لا يستطيع أن يقدم منهجه ودينه للعالمين، وسيبقى منزوياً معزولاً عن الحياة، يخشى أن تسلّط عليه الأضواء، وأن تكشف للناس حياته.

والاعتزاز بالحقّ لا يعني الصلف ولا الكبرياء والتعالي، فهذا شيء وذاك شيء آخر.

رابعاً: التمسك بالحق

المسلم مستيقن من الحق الذي عنده لا يشك فيه، وهو معتز به أشدّ الاعتزاز، ويرى أنّ فقدان هذا الحق وانسلاخه عنه هو العذاب الذي لا عذاب فوقه، ولذلك كانت إحدى علامات المؤمن الصادق في إيمانه (أن

يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يلقى في النَّار) كما ثبت في الحديث، ولقد بلغ من تمسك المسلمين بدينهم أن جادوا بأرواحهم، وارتضوا أن يحرقوا بالنَّار، ويُنْشروا بالمناشير، ويقطّعوا بالسيوف على أن يتركوا دينهم.

إبراهيم ألقي في النار، وأصحاب الأخدود ألقوا في لهيب مستعر ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ، النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ، إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ، وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ، وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٤ - ٩]، وجاءت امرأة كما حدثنا الرسول ﷺ من المؤمنات ومعها رضيع، وأوقفت على الأخدود ذي النار المشتعلة، وخيّرت بين العودة إلى الكفر أو الإلقاء في النَّار، فكأنها تردَّدت، فأنطق الله رضيعها، وقال: (يا أماه اصبري فإنَّك على الحق)، وآسية امرأة فرعون عذّبها زوجها، فآثرت ما عند الله على ملك الدنيا ونعيمها ﴿وَامْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

والمعذبون في مكة آثروا الجوع والعذاب والخروج من البلد الحرام وفراق الأهل والعشيرة على ترك الإسلام.

وقوافل الشهداء المتمسكين بهذا الدّين لم تتوقف أبداً، ولا تزال سياط الطغاة تلهب ظهور الصالحين في فترات ضعف القوة الإسلامية التي تحميهم، وهم يؤثرون السجون والموت على ترك الإسلام، وما أخبار المسلمين في البلاد العربية والإسلامية والنصرانية والشيوعية بسرّ.

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣].

وهذا الاستمساك ليس تجاه البلاء والعذاب فحسب، بل وتجاه الشبهات والسموم التي يبثّها أعداء الإسلام، وتجاه التيارات التي تريد

أن تعصف بالإسلام في نفوس المسلمين ومجتمعاتهم، والاستمساك يحتاج إلى قوة كبيرة ووعي زائد وحذر شديد، وإلا فإنَّ الإنسان يهلك وهو لا يدري، لأنَّ سبل الضلال كثيرة، والقائمون عليها محنَّكون ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢].

خامساً: المجاهدة

والمسلم لا يقف دائماً في موقف الدِّفاع يتلقى الضربات وهجوم الأعداء وهو مستمسك بالحق، بل ومنذ اللحظة الأولى يقف في مواجهة الجاهلية موقف المهاجم، يواجه الناس، ويبين لهم الباطل الذي يعيشون فيه، ويبين الحقَّ الذي يحمله، وينذرهم ويخوفهم ويذكرهم، وهذه صفة المسلمين في كل جيل، فنوح أوّل رسول أمره الله أن ينذر قومه، فقام فيهم يدعوهم إلى عبادة الله، ويخوّفهم من عذاب الله، ويطالبهم بالأوبة والاستغفار، ويعدهم على ذلك بأن يرسل الله عليهم السماء مدراراً، ويمدّهم بأموال وبنين، ويجعل لهم جنّات ويجعل لهم أنهاراً، وأنبهم على عدم توقيرهم لله عز وجل، وهو الذي خلقهم أطواراً، ووجه أنظارهم إلى ملكوت السموات والأرض، وما فيها من آيات ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ،وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح: ١٥، ١٦]، وذكَّرهم بأصلهم ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ [نوح: ١٧، ١٨] وذكرهم بنعم الله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا ، لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا ﴾ [نوح: ١٩، ٢٠].

وإبراهيم واجه قومه في معتقداتهم وتصوراتهم، بل حطَّم تلك الآلهة المدَّعاة، وحاجَّهم وخاصمهم فخصمهم.

وموقف موسى أظهر وأبرز من أن يشرح ويوضح، وكذلك موقف

خاتم الرسل ﷺ، فقد جاهد الكفر، وواجه الباطل، وعاب آلهة المشركين ودحض المزاعم الباطلة، ولا يكتفي المسلم بالقول فحسب بل يوجب الإسلام أن يتجمع المسلمون في كيان واحد ودولة واحدة، عند ذلك يصبحون قوة، تدفع الباطل، وتردع الظالمين، وتحمي الحقَّ ودعاة الحق، وتسيّر جيوش الإسلام مشرقة ومغربة تجاهد في سبيل الله تنظر دين الله وتوصله إلى النّاس جميعاً.

سادساً: الثبات على الحق

ومع التمسك بالحق، والمجاهدة لإحقاقه وإبطال الباطل، يحتاج المسلم إلى الثبات، وهذه سمة واضحة في شخصية المسلم، فالإنسان كثير التقلب والتحول، (القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء) ولذلك كان من دعاء الرسول ﷺ : (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)، وقد امتن الله على رسوله بالتثبيت ﴿وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٤].

والتقلبات التي تصيب القلوب سببها الفتن التي تواجه المسلم أو توجه إليه، فقد يفتن المرء بأقرباء سوء، أو أصدقاء أشرار، فهم دائماً يشككونه في عقيدته ودينه، وقد يبتلى بزوجة فاتنة تأسر قلبه، وتلوي عنقه إلى الباطل، وقد يبتلى بأبناء يريدونه أن ينفذ مآربهم الخاطئة، وقد يبتلى بمجتمع فاجر ضال، تحكمه شريعة الشيطان، وتسيره الطواغيت، وقد تسيطر الجاهلية على وسائل الإعلام، وتملك توجيه الناس، كما هي الحال اليوم، والقلوب تتأثر بما حولها، والنفوس فيها الهوى والشهوة، وقد تؤثر الدنيا، وقد يغرُّها الغرور، وقد تغفل، ولذلك كان على المسلم أن يكون حذراً، **وعليه أن يأخذ بالأسباب التي تثبته، وتديم صلته بربه، ومن ذلك:**

١ ـ أن يلح على الله في أن يثبته ويحفظه من شياطين الجنّ والإنس كما كان يفعل الرسول ﷺ (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك).

٢ ـ أن يكثر من ذكر الله، فذكر الله حصن حصين، يشرح النفس ويطمئن القلب، ويصلنا بالله، ويطرح الشيطان. ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

وجاء في وصف أولي الألباب أنّهم (يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) يذكرون الله دائماً، وفي الحديث أن الرسول ﷺ كان يذكر الله على كلّ أحواله.

٣ ـ أن يديم قراءة القرآن، فإنه حبل الله المتين، والصراط المستقيم، والنور الهادي، والحياة الدافقة، من أخذ به عصم، ومن عمل به سعد، وهو يقوّم القلوب، ويصلح النفوس ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

٤ ـ أن يحافظ على الفرائض، ويكثر من النوافل، وفي الحديث القدسي: (وما تقرب إليَّ عبدي بأحبَّ إليّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه)، والعبادات لها أثر كبير في غسل أدران القلوب، وإصلاح النفوس، والتثبيت على الحقّ ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤].

وفي الحديث (الجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنَّة) والإنفاق يثبت الإيمان في القلب، ويدلّ على صدق إيمان المنفق ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

٥ ـ الصحبة الطيبة، والجيرة الطيبة، وحضور مجالس العلم، والسعي إلى لقاء الإخوة في الله، وسماع الندوات الخيرة (وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده).

٦ ـ البعد عن مواطن الفساد ما استطاع المسلم إلى ذلك سبيلاً، وعدم ملاينة أهل الباطل ومجاملتهم في أمور العقيدة والشريعة وتحسين ما هم عليه من ضلال وفساد.

سابعاً: الرضا النفسي والاطمئنان القلبي

ونتيجة لمعرفة الحق، والثبات عليه فإنّ المسلم يجد طمأنينة النفس ورضا القلب ، ولا يعاني من هذا القلق النفسي ، وتلك الحيرة والضياع التي تشكو منها المجتمعات الغربية، وهي ضريبة الشرود عن منهج الله ، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

إن النّاس بدون منهج الله يعيشون في حياة ضنكة، يحسُّون بالشقاء، ويطلبون الراحة، ولكنَّهم يتداوون بالتي كانت هي الداء، فأنَّى يجدون الشفاء! والمسلم بين هذه الجموع الجامحة الشقيّة يجد طمأنينة القلب، وهناء النفس، وسعادة الروح؛ ذلك أن أولئك الذين تولّوا عن الإسلام لم يعرفوا برد اليقين، ولم يعرفوا من ربهم وإلههم؟ ولماذا أوجدهم؟ ولم أوجد هذا الكون؟ وإلى أين سيصيرون؟ أسئلة تحيّرهم، ولا يجدون الجواب المستيقن، فإن هربوا من الإجابة فإن نفوسهم لا توافقهم، وإن نجحوا في الانغماس في المتع الزائلة والانشغال بالأعراض الفانية فإن جوعة الروح إلى الاتصال بربها ومعبودها وفاطرها والتوجه إليه والوقوف بين يديه، وما تقذف به الأعمالُ الفاسدةُ والأفكارُ المتعفنة

النفوس والقلوب، كلٌّ ذلك يسبب الشقاء والتعاسة. وصدق الله إذ يقول: ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] وصدق إذ يقول: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

ومما يسبب الحيرة والقلق أوجاع الحياة وهمومها. ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]، والمرء مخلوق فيها للابتلاء والاختبار ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: ٢] ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وما لم يعلم المرء أنه مخلوق لذلك فإنه لا يقرّ له قرار، ولا يهنأ له بال، النعمة تطغيه، والمصيبة تجزعه ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ، أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾[العلق: ٦، ٧]، ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا، إِلاَّ الْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ، وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ، لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٥]هؤلاء وحدهم الذين عرفوا أن النعم والمصائب ابتلاء واختبار، وهم الذين يثبتون على خط واحد يحفظ لهم طمأنينة النفس وهدوء القلب.

أما أولئك الهلعون فهم مخطئون في كلا الحالين: في حال منعهم وفي حال جزعهم.

المؤمن شاكر في السراء، صابر في الضراء، يأكل الأكلة فيحمد الله، ويشرب الشربة فيحمد الله، وتصيبه المصيبة، فيصبر ويلجأ إلى الله، وفي ذلك يقول المصطفى عليه الصلاة والسلام: (عجباً لأمر المؤمن أمره كلّه خير، إن أصابته سرَّاءُ شكر فكان ذلك خيراً له، وإن أصابته ضراءُ صبر، فكان ذلك خيراً له).

ولقد فقه هذه الحقيقة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حيث

يقول: «الفقر والغنى مطيتان لا أبالي أيهما ركبت».

وفقهها الصالحون فعاشوا في نعيم وأي نعيم، حتى لقد قال قائلهم: «لو يعلم أهل الدنيا ما نحن فيه من نعيم لجالدونا عليه بالسيوف».

ويقول أحد المجاهدين ـ وقد تكالب عليه أعداؤه وكادوا له ـ: «وما يفعلون بي، إن إخراجي من بلدي سياحة، وسجني عبادة، وقتلي شهادة».

المسلم إنسان:

روى مسلم في صحيحه عن أبي رِبْعيٍّ حنظلة بن الربيع الأسيْديِّ أحد كتاب رسول الله ﷺ، قال: « لقيني أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قلت نافق حنظلة، قال: سبحان الله، ما تقول: قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يذكِّرنا بالجنّة والنّار كأنّا رأى عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ، عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً.

قال أبو بكر رضي الله عنه: فوالله إنّا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر إلى الرسول ﷺ فقلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال ﷺ: وما ذاك؟ قلت: يا رسول الله نكون عندك تذكِّرنا بالنار والجنة كأنا رأى عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً.

فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عليه عندي وفي الذِّكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة، يا حنظلة ساعة وساعة، يا حنظلة ساعة وساعة».

هذا الذي قام في ذهن حنظلة قام في أذهان جمع من الصحابة في

أوقات مختلفة، وقام في أذهان العباد في الأمم السابقة، وفي هذه الأمة من بعد الصحابة، ولقد وجد الصحابة من يكشف لهم حقيقة المسألة، ويوجههم الوجهة السليمة، ولكنَّ هذا الإشكال أحدث ضلالاً كبيراً قبل الإسلام في الأمم السابقة، وفي هذه الأمة من بعد الصحابة، لأن كثيراً منهم لم يجدوا من يحلّ لهم هذا الإشكال.

لقد ظنّ جموع من البشر أن الله يريد من الإنسان أن يخرج من جلده، ويتخلص من إنسانيته، ويكون شيئاً آخر غير الإنسان، لقد ظنّوا أنّ الله يريد من الإنسان أن يصبح ملاكاً تنعدم فيه الرغبات الإنسانية، والدوافع الفطرية، وفي سبيل ذلك حاول بعض الصحابة التبتل والانقطاع عن الحياة وترك الأعمال والأزواج، وقيام الليل، وصيام النّهار، وترك الطيبات، بل استشار أحدهم الرسول ﷺ في أن يقيم بجانب عيينة ماء في مكان لا أنيس به يتعبد الله فرفض الرسول ﷺ ذلك، كما رفض كل المحاولات التي ابتدأها بعض الصحابة، وبين لهم أن الإسلام يريد أتباعه بشراً يحيون إنسانيتهم التي خلقهم الله عليها ولكن بتعاليم الله، يريدهم الإسلام بشراً يأكلون ويشربون ويتزوجون ويستعمرون الأرض، ولكن بمنهج الله وتعاليمه، ويريدهم أن يسخروا ذلك كلّه للوصول إلى مرضات الله سبحانه.

أما الهروب من الحياة وتعذيب الجسد وتجويعه وإهماله، وكبت هواتفه ودوافعه كبتاً كلّيّاً فليس الذي يريده الإسلام، ولقد ضلَّ النصارى في هذا ضلالاً كبيراً، كما ضلَّ طوائف من الزهاد والمتصوفة أيضاً.

وفي هذا يقول تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[الأعراف٣٢]ويقول: ﴿كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [البقرة:١٦٨].

فالمسلم يعيش على هذه الأرض يعبد الله ويذكره ويمجده ويقوم له، ثمّ هو يعافس الأزواج والأولاد، ويسعى في دروب الحياة بمقدار، وكما يقول الرسول ﷺ: (يا حنظلة ساعة وساعة).

ولا ينبغي أن يفزع الإنسان إذا فعل ذلك، فحدث له ما حدث لحنظلة، ولكن عليه أن يؤوب إلى الله دائماً، ويسعى إلى مجالس العلم والذكر، وإلى إخوة يذكرونه بالله، ويسددونه، ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

ثامناً: إدراك غاية الحياة

وهذا الذي قرَّرناه يدلنا على أن المسلم يدرك غاية الحياة إدراكاً واضحاً، فليس هو بالإنسان الذي تغرُّه الحياة وتخدعه، فيكون عمله لها واطمئنانه بها، وليس هو بالشارد عن الحياة الهارب إلى قمم الجبال والفلوات يتعبد الله في صومعة، وهو يدرك أن الدنيا معبر وطريق، وأن الدنيا فانية زائلة، ولذلك فلا يوجه همَّه لها، ولا يجعل منطلقه في العمل المنفعة الدنيوية المحضة، ولكنَّه لا يهملها ولا يتركها، بل يستعمرها بأمر الله، ويسيرها الوجهة التي يريدها الله تعالى، فيجعل الدنيا مزرعة للآخرة، ويكون في الدنيا بجسده، يعمل هنا وقلبه وغايته هناك، فإذا كان لا بدّ من الخيار، إما الدنيا وإما الآخرة، فإنَّه يبذل نفسه وماله في سبيل الحصول على الآخرة.

فالمسلم لا يكون كأولئك الذين يعبدون الدنيا بحيث تكون مبلغ علمهم، وغاية همهم.

وليس هو بذلك المعرض عن الدنيا يتركها لشياطين الإنس والجن ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ

الْمَآب ،قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَاد ﴾ [آل عمران: ١٤-١٥].

تاسعاً: الأوبة إلى الحق

المسلم قد يتمسك بالحق، ويجاهد في سبيله، ويأخذ بالأسباب التي تثبته على الحق، ومع ذلك كله فقد تتعثر قدماه فيكبو، وقد ينحرف عن الصراط المستقيم في جانب أو مسألة، فيقصر في فعل واجب، أو يرتكب محظوراً حرّمه الله تعالى، وهنا تتبدى صفة المسلم الحق فإنّ عثاره وانحرافه لا يستمرُّ، لأنه سريعاً ما يتذكر فيبصر، فيعترف بزلته، ويندم على خطيئته، ويرجع مهرولاً إلى ربِّه سائلاً إياه العفو والمغفرة، وهذه سمة واضحة تفرِّق بين المسلم وبين الشيطان وأتباع الشيطان.

عصى الشيطان ربه بعدم سجوده لآدم، وعندما سأله عن السبب في ذلك، لم يعترف بعجزه وتقصيره، بل ذهب يبرر خطأه ويناقش ربّه، وعصى آدم ربَّه، عندما زيَّن له عدوُّه الشيطان الأكل من الشجرة التي حرّم الله عليه الأكل منها، وعندما أفاق من غفلته، وسأله ربّه عن فعلته، اعترف بظلمه لنفسه، والتجأ إلى ربّه طالباً غفرانه ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ، قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ، قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١ - ١٣] .

هكذا عصى الشيطان وأصر على خطيئته، أما آدم عليه السلام فحدثنا الله عن موقفه بعد معصيته بقوله ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ

فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ، فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ، وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ، فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ، قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩ – ٢٣].

لقد أهبط الله آدم من الجنّة بسبب خطيئته، ولكنّه غفر له وتاب عليه ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٧].

وسلك الصالحون من بعد آدم هذا الدرب، كلّما فرّط أحدهم أو قصّر في جنب الله سارع إلى التوبة والأوبة إلى الله،نوح سأل ربه إنجاء ابنه الكافر ظانّاً أنه داخل في وعد الله له بإنجاء أهله، وأخطأ في ذلك فبادر إلى التوبة ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ، قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ، قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٥ – ٤٧].

ويونس اعترف بذنبه. ﴿ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فاستجاب الله، ونجاه من الغمّ وكذلك ينجي المؤمنين.

ومهما كثرت الذنوب وعظمت فلا مكان لليأس، فعفو الله أوسع وأعظم ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقد أخبرنا الرسول

ﷺ أن الله غفر لمن قتل مائة نفس، عندما تاب وهاجر.

فمهما كان الذنب عظيماً، ومهما كانت الذنوب كثيرة، إذا وقعت التوبة صادقة قبل حلول العذاب، ونزول الموت، فإن الله يقبلها ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧] فهؤلاء يقبل الله توبتهم، وكل من عمل سيئة فقد جهل، وكلّ من تاب قبل أن ينزل الموت به فقد تاب من قريب، وفي سنن الترمذي أن الرسول ﷺ قال: (إنّ الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر).

والتوبة تغفر الحوبة، وتطهر العبد، ولقد قال الرسول ﷺ في امرأة زنت، فاعترفت، فرجمت: (لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم) رواه مسلم.

وفي الختام أقول: إن ما أوردته عن بعض معالم الشخصية الإسلامية سطرت منها ما حضرني، وفي الكتاب والسنة مزيد للمتأمل المتبصر، أسأل الله تعالى أن ينفعنا بما سمعنا، وأن يفتح بصائرنا وأبصارنا كي نفقه عن ربنا وعن رسولنا ﷺ، اللهمَّ اهدنا صراطك المستقيم، وخذ بنواصينا إليك، إنّك نعم المولى، ونعم النصير، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

المحاضرة الحادية عشرة

المرأة بين
دعاة الإسلام وأدعياء التقدم

تقديم

الداعي لهذه المحاضرة:

إن الحمدلله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وبعد:

هذا البحث أصله محاضرة ألقيت في معهد التربية للمعلمات التابع لوزارة التربية الكويتية في جمع حاشد من السيدات، وقد كان للمحاضرة وقع حميد في نفوس الحاضرات، وقد أحببت أن تضمّن المحاضرة في كتاب لكي يكون الانتفاع بها أعمّ وأشمل.

إن هذا البحث يميط اللثام عن أدعياء التحرر، الذين يزعمون مناصرة المرأة زوراً وبهتاناً، ويكشف حقيقة مزاعم هؤلاء ويبيّن أنصار المرأة الحقيقين.

إن من الضروري أن تفقه النساء أن دعاة الإسلام هم الذين يريدون بها ولها الخير، وأن أولئك المستغربين لا يريدون بها خيراً، ولا يسعون في صالحها.

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب عباده، وأن يكتب لي الأجر والثواب إنه سميع قريب مجيب.

السفهاء الذين يدعون الإصلاح

نحن المسلمين ودعـاة الإسلام نرى أن سـعادتنا في مـجتـمعـاتنا وفي أسرنا وأفرادنا مرهونة بالتزامنا بالإسلام عقيدة وشريعة ومنهج حياة.

ونعتقـد أننا سنشقى بمقدار ابتـعادنا عن إسلامنا، تصديقـاً لكتاب ربنا القائل: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا، قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٧].

إلا أن أعـداء الإسـلام ينصــبـون أنفـسـهم هداة مـصلـحين في ديارنا زاعمين أنهم هم المؤمنون المصلحـون الذين سيخلِّصون البشـرية من آلامها وأوجاعها، يزعمون أنهم بمناهجهم سيقودون البشرية إلى السبيل الأقوم، وسيمدونها بمقومات البقاء، وقد أعلمنا الله بشأن هذا الصنف من الناس وبحـاله، وأكـذب هؤلاء في زعـمـهم ودعـواهـم، أكـذبهم في زعـمـهم الإيمـــان ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقـرة:٨]. وبين أن قـولهم هذا إنما هو خـداع، ولكنه لا يـنطلي على الله، ولا على المؤمنين من عباده، ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ٩].

وسبب هذا الاتجاه ليس هو الإصـلاح، إنما هو مرض القلوب، مرض الهوى والـشهوة، ومـرض الشبـهة والشك الذي يغـشى قلوبهم ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة:١٠].

وعندما يُطالبون بالاسـتقامة على نهج الله الذي يصلح البـلاد والعباد، ويُنهَون عن معارضة هذا الحق، ويُوضَّح لهم أن ما هم عليه هوالفساد ـ

يكابرون، ويزعمون أنهم مصلحون ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ، أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١، ١٢].

وعندما يُطالبون بأن يتابعوا الأخيار، ويسكلوا سبيلهم - يتعالون، ويصفون الرسل وأتباعهم بالسفه، وواقع الأمر أنهم هم السفهاء، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٣]، هؤلاء هم أتباع شياطين الكفر، أتباع اليهود والنصارى والشيوعيين والملحدين، الذين يستمدون فكرهم ومناهجهم من تصورات أولئك ومن فكر أولئك، ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة:١٤]. وقد حكم الله على هؤلاء بالضلالة والخسران، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[البقرة:١٦].

أدعياء التقدم

هذا الصنف كثير في ديارنا في هذه الأيام، يدّعون الإيمان والإسلام، ويزعُمون أنهم على الهدى والصلاح، ولكنهم لا يرضون بدين الله ديناً، ولا بمنهجه وشريعته منهجاً وسبيلاً، ويحاولون أن يصموا المسلمين ودعاة الإسلام الصادقين بالسفه والتحجر والجمود والتأخر، ويزعمون أنهم المصلحون التقدميون المتمدنون المتحضرون.

وإذا ما تكشفت خبيئة هؤلاء وجدنا نفوساً مريضة، أسرها الهوى، وغلبت عليها الشهوات، وأحاطت بها الشكوك والشبهات من كل حدب وصوب.

وإذا نظرنا إلى جذورهم الفكرية وجدناها تمتد في فكر أعداء الإسلام، تشرب منه، وتستمد من تعاليمه ومناهجه.

متاجرة هؤلاء بقضايانا

وهؤلاء يدلّسون على أبناء هذه الأمة، يلبسون لبوس المصلحين والمعلمين والمربين والمفكرين، ويزعمون أنهم أنصار المزارع والعامل والشباب والنساء، يتاجرون بقضايا هؤلاء، ويطالبونهم أن يتبنوا مناهجهم، ويزعمون أنهم سيحققون لهم الخير والرفاهية والحاجات والمطالب. .

سنحاول أن نميط اللثام عن هؤلاء في قضية واحدة هي قضية المرأة، ونبين للناس أن هؤلاء الذين يزعمون التقدم والتحضر ليسوا بتقدميين ولا متحضرين، بل رجعيون متأخرون، وسنحاول أن نكشف زيفهم وباطلهم، ونبيّن أن مناصرتهم للمرأة كذب وزور، فهم إنما يتاجرون بهذه القضية، إرضاءً لأمراض نفوسهم، وكي يصلوا إلى تحقيق شهواتهم وأهوائهم.

دعاة الإسلام هم أنصار المرأة

وسنحاول أن نعرِّف بأنصارالمرأة الحقيقيين، وهم دعاة الإسلام، الذين يطالبون بتحقيق شريعة الله وحكمه، وفي ذلك تحقيق لسعادة الناس جميعاً بمن فيهم المرأة.

ودعاة الإسلام يملكون المنهج الحق الكامل الشامل الذي يحقق ذلك.

بشائر النصر

تشهد ديار المسلمين في هذه الأيام بشائر النصر، النصر الذي سترتفع فيه راية الإسلام من جديد، تضيء دنيا البشر، وتعيد الحق إلى نصابه، وتعطي القوس باريها، والسهم نابله.

إن بشائر النصر في أيامنا تتمثل في هذا الشباب الطيب الذي آمن بالإسلام، وانساب في كل مكان ينادي بالعودة إلى الله، وتحكيم شرعه، متحملاً في سبيل ذلك العذاب والفتن، شباب في ريعان الصبا، وفتيات في عمر الورود.

لقد توجه الشباب في القاهرة ودمشق والكويت وكراتشي وغيرها إلى كتاب الله ينهلون من مائه العذب النمير، ووجهوا وجوههم شطر البيت العتيق، وولوا ظهورهم للقبلة التي أقامها أتباع شياطين الكفر، وولّوا ظهورهم لموسكو وواشنطن ولندن، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَه﴾ [البقرة: ١٥٠].

لقد عادت الفتاة المسلمة والمرأة إلى إسلامها، عادت معتزة بشخصيتها الإسلامية، عادت تهتدي وتقتدي باللواتي أنزل الله فيهن قرآناً بعد أن كانت توجه قلبها ووجهها إلى غانيات باريس وممثلات (هوليود).

عويل الذئاب وفحيح الأفاعي

رأى أعداء الإسلام الذين يتربصون به وبأهله الدوائر تباشير النصر، فأدمى ذلك قلوبهم وأطاش أحلامهم، فأخذوا يتنادون من كل حدب وصوب، في أمريكا وفي بريطانيا وفي فرنسا وفي موسكو وتل أبيب، أخذوا يتنادون بالويل والثبور وعظائم الأمور، محذرين من المارد الذي بدأ يتململ في قيوده، ويصحو من غفوته.

ففي السنوات الماضية شهدت عواصم الكفر ودوله في صحفها وإذاعاتها وتلفزيوناتها سيولاً من التداعي والتنادي؛ لكف خطر الإسلام الذي يتمثل في الصحوة الإسلامية في تركيا والباكستان ومصر والأردن وغيرها، نشروا، وبحثوا، وحللوا، ثم أجمعوا على وجوب محاربة

الخطر الداهم قبل أن يكتمل نموه، وتقوى عضلاته، ويشتعل أواره، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[الأنفال: ٣٠] وسيعلمون غداً أن جهودهم غير مباركة، وأنها ستعود عليهم بالحسرة والخسران ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال:٣٦]، ذلك أن الله ناصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

رجع الصدى وترديد الببغاوات

عندما نعق الأسياد في عواصم الكفر، تحرك أذنابهم في ديارنا، هؤلاء الذين قال رسول الله ﷺ فيهم: «دعاة على أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فيها»وقال معرفاً بهم: «هم من جلدتنا ويتكلمون بألستنا».

الصحافة والإذاعة والتلفاز والكتب تردد ما يقوله شياطين الكفر، هجوم خبيث على الفتيات المسلمات اللواتي استجبن لأمر الله وشرعه، اللواتي رضين بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً.

سيول من الشتائم والتهم والألقاب السفيهة، لقد هاجموا المتحجبات والحجاب، وقالوا الحجاب ظاهرة، وظاهرة عفنة، وقال قائلهم[١]: «الحجاب رمز مذلة المرأة، ومصادرة لما وهبتها إياه الطبيعة، وصورة انقطاعها القسري عن الحياة الحقيقية الوسيعة والخصيبة».

وقال حاكم من حكام ديار المسلمين[٢]: الحجاب تقليد من التقاليد البالية العتيقة.

---

(١) عفيف فراج في مجلة الأسبوع العربي عدد ٨٣١ بتاريخ ١٢/٥/١٩٧٥.

(٢) هو بورقيبة.

وقال بعض هؤلاء: «ما تحجبت من تحجبت إلا ستراً لعيوب الجسد، ورغبة في الزواج من شاب متدين إذ كسدت سوق الزواج».

وقالوا ما هذا التحجر والجمود، وقالوا: «العودة إلى الحجاب عودة إلى الجاهلية الأولى». وقالوا: «إن الحجاب لا يصلح إلا في مجتمع قبلي جاهلي» وفي مجال هجوم كاتبة مصرية على النساء المسلمات المحجبات قصَّت قصَّة شابّة محجبة اتخذت من الحجاب ستاراً لانحرافها وفجورها.

جذور هؤلاء

هؤلاء الذين يُرْغون ويزبدون، والذين أكل الغيظ قلوبهم، إنما يستمدون قيلهم وأفكارهم من هناك، من وراء البحار، يقول كاتب[1] غير متهم عند هؤلاء لأنه من أدعياء التحضر والتقدم في مجلة أسبوعية: «لا نبالغ إذا قلنا إن مدى جذور المطالب التحررية التي رفعها الرعيل الأول من الرواد كانت تحدد بمقدار ما نهلوه من الفكر والحضارة التي طالعتهم».

ويقول: «كان الرعيل الأول قناديل تغوص ذبالاتها بدرجة أو بأخرى في الفكر الغربي المتقدم».

والرعيل الأول عنده هم الذين طالبوا بتحرير المرأة أمثال رفاعة الطهطاوي، ومحمد عبده، والأفغاني، وقاسم أمين، وفرح أنطون، وشبلي الشميل، وأضرابهم[2].

---

(١) انظر مجلة صدى الأسبوع عدد ٣٢٠ في ١٩/ ١٠/ ٧٦.

(٢) بعض هؤلاء لم يكن يقصد ما يقصده أدعياء التحرر أمثال محمد عبده، وإن جاراهم في بعض ما ذهبوا إليه.

حقيقة هؤلاء

وإذا سبرنا غور الذين يقومون على هذه الدعوة اليوم نجد أن هؤلاء صنفان:

صنف جاهل بحقيقة الدعوة التي بيناها، قد ألبست الشياطين عليه أمره حتى ظن السمّ الزعاف داءً شافياً، والطعام العفن غذاءً طيباً، والماء القذر شراباً سلسبيلاً.

وقد وصل الحال ببعض هؤلاء أن أصبحوا كالخفافيش التي يعميها النهار بضوئه، أصبحوا لا يرون الحق، ولا يعيشون إلا في الظلام، ولا يستطيعون أن يصمدوا للحجة والبرهان.

ونحن دعاة الإسلام نريد أن نكشف لهؤلاء الباطل، ونظهر لهم الحقيقة، ونحن على ثقة أنهم لو أبصروا لما ارتضوا بالإسلام بديلاً، ولا راموا عنه تحويلاً؛ ذلك أن الإسلام شمس ساطعة، ونور وضياء، وأنى لمن عرف نور الشمس أن يستبدل به الظلام! وكيف لقلب أن يعرف الحق ثم يستبدل به الغثاء!!

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢].

والصنف الثاني هم الماكرون المخادعون الذين يعرفون الحقيقة ولكنهم يزيغون عنها، ويشوهونها في صدور الناس وفي عقولهم، كي يسوقوهم إلى حتفهم بظلفهم، كي يدمروا أنفسهم بأيديهم وبأيدي هؤلاء.

رويدكم يا أدعياء التقدم

ونقول لهؤلاء منذ البداية: رويدكم يا أدعياء التقدم والتحضر، رويدكم فقد طفّ الصّاع، وطفح الكيل، رويدكم فقد جاوزتم حدّكم،

وخرجتم عن طوركم.

من أنتم حتى تطاولوا السماء بأعناقكم، من أنتم حتى تنازعوا الله في حكمه؟ أنتم عبيد مقهورون مربوبون، أنتم بشر مخلوقون من ماء مهين، وأصلكم قبضة من طين، إن جهلكم أكثر من علمكم، وخطؤكم أكثر من صوابكم، أنتم تقولون قولاً والله يقول قولاً، وقولكم مخالف لقول الله، أفتريدون أن نصدّق كلامكم ونتبع أهواءكم، ونكذب بكلام ربّكم العليم الخبير الحكيم الذي أحاط بكل شيء علماً، الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء؟!

الله يقول إن التزام المرأة بدينها بجلب لها ولزوجها وأسرتها والمجتمع من حولها السعادة والهناء، ويقول: إن هذا هو التحضر والرقي، وأنتم تزعمون أن ذلك تأخر ورجعية وجمود، وتزعمون أن ما عليه المرأة في الغرب هو الحضارة والرقي، وتريدوننا أن نؤمن لكم، ونصدقكم فيما ذهبتم إليه؟ لقد خبنا وخسرنا إن فعلنا ذلك. ونحن نعلم أننا إن تابعناكم وسرنا وراءكم فإنكم ستفسدون علينا أمر دنيانا، وأمر آخرتنا، فلقد وعد الله من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى بأن يحييه حياة طيبة ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

إننا نرفض أن نتابعكم في الدنيا كما يُتابعكم من تسمونهم بالجماهير، لأننا نخشى في يوم القيامة أن تقودونا إلى النار، كما يقود زعماء السياسة والفكر المنحرف أتباعهم في ذلك اليوم، ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ

الـــلَّه مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا الـــلَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

وقال تعالى في فرعون وزبانيته: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١].

مكر وخديعة

إن هؤلاء الذين يرددون ما يقوله الأسياد في واشنطن ولندن وموسكو ماكرون مخادعون، لا يقولون للمرأة المسلمة تعالي إلى الشيوعية، وتمردي على حكم الله بصراحة ووضوح، ولكنهم يفعلون ما فعله إبليس بآدم وحواء، فقد أسكن الله آدم وحواء جنته، وأباح لهما نعيمها، وجعل استمرار وجودهما فيها مرهونا بطاعته في ترك الأكل من الشجرة المحرمة، وحذر الله آدم من إطاعة عدوه إبليس الذي يريد إهلاكه وتدميره، وجلب الشقاء له: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى، إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ، وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٧ - ١١٩].

ومع هذا التحذير فقد خدعه عدوه ومكر به، وكل ما فعله إبليس أن زيف الحقيقة، وألبس الحق لباس الباطل، والباطل لباس الحق، لم يأت الشيطان ليقول للإنسان: كل من الشجرة المحرمة، كي يغضب الله عليك، ويطردك من جنته، وينزلك إلى دار الشقاء، بل قال له: إن في الأكل من الشجرة سعادتك وهناءك وخيرك، قال له: إن أنت أكلت من الشجرة حصلت على الملك العظيم، والحياة الخالدة، وتحولت إلى ملك غير قابل للفناء، وزيادة في الاضلال، وإمعاناً في التغرير بآدم أقسم له ولزوجه أنه صادق فيما يقول، وأنه ناصح لهما، يقدم لهما

الخير، ويدلهما على الطريق الحق ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]، ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ، وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠، ٢١].

فماذا كانت النتيجة؟ عصيا ربهما فانكشف سترهما، وأهبطا إلى دار الشقاء بعد ذلك الملك العظيم والنعيم المقيم ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢] ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤].

نماذج من المكر والخداع

وأهل الضلال وقادته يسيرون على هدي إبليس في إضلالهم العباد، فهم يصورون الحق في صورة الباطل، والباطل في صورة الحق، وهم في ذلك يفلسفون الباطل، ويحاولون أن يدللوا عليه بما يوهم الذين لا علم عندهم بأن قولهم حقائق لا تقبل الجدل. ومن جملة ذلك ما يفعله أدعياء التقدم حين يطلبون من المرأة التمرد على دين ربها، والخروج على تعاليمه، باسم التحرر والتمدن...، فمن ذلك أنهم يقولون للمرأة: ما هذه الملابس التي تكبل حريتك، وتخفي جمالك ومحاسنك، وتحرمك من التمتع بالحياة؟! ويقولون لها: لماذا أنت في المجتمع عضو أشل، لا تساعدين في رفاهية المجتمع ولا تقومين بأعمال الرجال؟! أنت لست بأقل من الرجال شأنا، والرجل ليس أذكى منك.

ويقولون: لم لا تخالطين الرجال، ألست واثقة من نفسك؟!

ويقولون: إن علاج الكبت الجنسي الذي يعاني منه الرجال والنساء

لا سبيل للخلاص منه إلا بما قرره شياطين الغرب - أمثال فرويد - بالخلطة بين الجنسين، واجتماع القبيلين.

وقل جاء الحق وزهق الباطل

إن باطل هؤلاء لا يصبر أمام الحجة والبرهان، ذلك أن باطلهم ظلام، وحجتنا وبرهاننا نور، وأنى تصبر جيوش الظلام أمام جحافل الحق ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

إن هؤلاء لا يعيشون إلا في الظلام، وإذا نقلوا الناس إلى فكرهم ومنهجهم، من شيوعية إلى رأسمالية، أو العكس، فإنما ينقلونهم من باطل إلى باطل، أو من حق إلى باطل. ويتفرد منهج الله بنقل الناس من هذه المناهج المظلمة السوداء إلى الحق الوهاج، ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

إن الرد على هؤلاء قريب، وأفضل ردّ هو تخلي المرأة المسلمة عن هؤلاء، فقد انخدعت نساء المسلمين بهؤلاء زمناً طويلاً، وخلعن الحجاب، وخالطن الرجال، وجرين في الدروب التي أرادوها طويلاً، فما وجدن عندهم إلا الشقاء، فعاد كثير من هؤلاء مستغفرات تائبات. وقد أغاظ أدعياء التحرر عودتهن، فقد كتبت جريدة الأهرام تقول: «أمس مرّ (٧١) عاماً على وفاة قاسم أمين محرر المرأة الذي دعا إلى تحرير المرأة ورفع الحجاب» ثم يقول الكاتب مغتاظاً متحسراً متأسفاً «الغريب أنه بعد مرور (٧١) سنة على وفاته، وفي نفس الوقت الذي نحتفل فيه بذكراه تقوم الدعوة إلى رجوع المرأة إلى البيت وحجبها عن المشاركة في الحياة العامة».

وفي الظلمات المتكاثفة في ديار الكفر يُضيء حنادس الظلماء في بعض الأحيان بصيص من نور، يحاول أن يفتح العيون العمي، ويبصر القلوب الغارقة في الضلال، ويجلو الحقيقة.

لقد أغرق اليهود العالم الغربي بسيل جارف من النظريات والسموم والشهوات، حتى أصبح العلماء والعوام لا يدرون من أمرهم شيئاً. وذلك تنفذاً لتعاليم حكماء صهيون، جاء في البروتوكول الخامس من بروتوكولاتهم: (لكي نطمئن إلى الرأي العام يجب بادىء ذي بدىء أن نربكه تماماً، فنسمعه من كل جانب وبشتى الوسائل آراء متناقضة لدرجة يضل معها غير اليهود الطريق في تيههم، فيدركون حينئذ أن أقوم سبيل هو أن لا يكون لهم رأي في شؤون السياسة...، والسر الثاني الملازم لنجاح حكمتنا يقوم على مضاعفة الأخطاء التي ترتكب والعادات والعواطف والقوانين الوضعية في البلاد لدرجة يتعذر معها التفكير تفكيراً سليماً وسط تلك الفوضى).

وجاء في البروتوكول الأول: (إن الشعب لدى المسيحيين أضحى متبلداً تحت تأثير الخمر، كما أن الشباب قد انتابه العته، لانغماسه في الفسق المبكر الذي دفعه إليه أعواننا من المدرسين والخدم والمربين والمربيات اللاتي يعملن في بيوت الأثرياء، والموظفين والنساء اللاتي يعملن في أماكن اللهو، ونساء المجتمع المزعومات اللواتي يقلدنهنَّ في الفسق والترف). ومع هذا الطوفان الذي أغرق به اليهود عالم الغرب، فإنه لا يزال بعض المفكرين والعقلاء منهم يرون الخطر الداهم الذي يأخذ بخناقهم وخناق مجتمعاتهم، فإذا بهم يحاولون أن يرفعوا عقيرتهم في وسط السيل الهادر منبهين إلى الدمار الذي يكاد يحيط بهم، ولكنها أصوات تضيع في ذلك البركان، وأصداء تضيع في ذلك الطوفان.

ونحن وإن كنا في غنى عن هذه المقالات والتحقيقات اكتفاء بما نراه في واقع المجتمعات الغربية من فساد يراه كل ذي عينين، واكتفاء بما عرفناه من الحق، إلا أننا نورد هذه المقالات والرؤيا من علماء الغرب من باب قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [يوسف: ٢٦]، ومن باب قولهم: (والفضل ما شهدت به الأعداء)، ولأن المستغربين في ديارنا يرون أن كلام هؤلاء هو الحجة التي لا تقبل النقاش، وحالهم هو الحياة المثلى التي لا تعلو عليها حياة.

أنقذوا العائلة في الغرب من الموت[1]

«أنقذوا العائلة من الموت» هذا النداء (الدراماتيكي) أطلقه العالم الاجتماعي الفرنسي (برنار أوديل). وهو النداء الثالث الذي يطلقه خلال الثلاثين سنة الماضية.

كان الأول: «أنقذوا العائلة من الاستلاب».

وكان الثاني: «أنقذوا العائلة من التفتت».

وها هو يطلق النداء الثالث، لأن المعطيات التي توفرت لديه حول وضع العائلة في الغرب تثبت جميعها أنه قد حان الوقت لكي تقرع أجراس الإنذار في كل بيت من نصف الكرة الغربي.

وقد قام هذا الباحث الغربي (برنار أوديل) ـ على امتداد السنتين الماضيتين ـ بمسح ميداني للعائلة الغربية. تنقل بين مختلف البلاد الأوروبية وعبر الأطلسي إلى الولايات المتحدة وكندا..، ليعود بعدها بجعبته المليئة بالأصوات التي تحذر من اتجاه العائلة الغربية نحو الانقراض.

---

(١) راجع جريدة الرأي العام الكويتية بتاريخ ٢٠/٤/٧٩ ص١٤.

هذه الأصوات مع تحليل وافٍ لها جمعها (أوديل) في كتاب أطلق عليه عنوان (أنقذونا).

والأصوات تلك هي عبارة عن حوارات قصيرة أجراها المؤلف مع نساء وأطفال وآباء وأجداد حول طبيعة علاقة كل واحد منهم بأفراد عائلته الآخرين، والأصوات السعيدة كانت نادرة جداً، بل واستثنائية، ولنسمع إلى عدد من هذه الأصوات.

أطفالي ملوثون باليأس

(ميريام كورفي) سيدة هولندية وأم لثلاثة أطفال تقول: زوجي يعمل من الثامنة صباحاً وحتى السادسة مساءً، وأنا أعمل من الثامنة صباحاً حتى الواحدة ظهراً، أعتقد أننا في حالة مادية معقولة، ونسكن في شقة جيدة..، ويبدو أن هذا لا يكفي فثمة تشققات هائلة داخل العائلة، لكأننا من عالم مختلف تماماً عن عالم أطفالنا.. أنا وزوجي نجتر بعض الحنين السابق، وبعض التفاؤل السابق..، الأمر لأطفالنا مغاير جداً، قد أكون مخطئة لكنني أشعر بحدس الأم أن أطفالي ملوثون بيأس خاص، أعتقد أنه استوطن بقوة في اللاوعي، إنني لا أفهم الدافع لذلك، فهم يتابعون دورسهم في مدرسة متفهمة، كما أنهم يشاهدون التلفزيون كل مساء.

لقد سألت أحد الأصدقاء وهو أستاذ في علم النفس عن هذه الحالة، فأجاب إن ملاحظتي هذه مجرد خيال، وإن الأطفال في صحة حضارية جيدة، كلمة «حضارية» هذه هي التي أفزعتني، فأنا أعتقد أن أولادي ككل الأولاد الآخرين يعانون حصاراً ما...، إنني لا أفهم..، كل ما أستطيع أن أقوله هو أن الحنان الذي أقدمه لأطفالي لا يكفيهم على ما يبدو، لا يمكنني أن أقدم أكثر من ذلك، وأعتقد أننا نبني جيلاً سيكرهنا بالضرورة.

طفلة تفكر في الهروب من عالم الغرب

(سوزان ليليث) طفلة أمريكية في الثانية عشرة من العمر، تقول: إنني لا أرى والدي كثيراً، وهو مرهق باستمرار، وكذلك أمي، عندما أبلغ الثامنة عشرة أريد أن أهاجر وحيدة إلى الهند..، المدرسة قالت لي إن البيوت هناك كثيرة، وإن الناس يجلسون في الطرقات ويتحادثون، المدرسة قالت لي أيضاً: إن الهنود يقدسون البقرة، وأنا لم أر بقرة في حياتي إلا على شاشة التلفزيون أو في الكتب.. لا أريد أن أبقى هنا.. لا أريد أن يتجعد وجهي مثل أمي، إنني أنوي السفر إلى الشرق.

الناس هناك يسيرون في جنازة هم الأموات فيها

(بيتو لا هايت) عجوز في الخامسة والسبعين، من أصل أيرلندي وتعيش منذ خمسين عاماً في مدينة (أوتاوا الكندية)، تقول: إنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً سوى أن أرى هؤلاء الشبان الذين يرتطمون بهذا الواقع الجاف، أخشى أن يكرهنا أبناؤنا، ترى لماذا يكرهوننا؟ لقد أرغمناهم كي يأتوا إلى هذا العالم عندما فقد هذا العالم كل سطوع وحرارة.

إنني أعيش وحيدة.. أولادي وأحفادي يعيشون في (مونتريال)، أتلقى منهم الرسائل بانتظام، وأشعر أن عملية تناول الرسائل باتت (ميكانيكية)، لأنها خالية من الود الحقيقي..، هذا ليس ذنبهم..، أعود ستين عاماً إلى الوراء، عندما كانت حياتنا أشبه بالمهرجان الدائم، الآن تبدّل كل شيء، ويبدو أن الناس كلهم يسيرون «في جنازة هم الأموات فيها».

(الكسندر هيبرت) أب لولـدين، يعمل رئيسـاً لـلدائرة الفنية في أحـد مصانع الأدوية، يقول: إن عملي هو ذو طبيـعة (فيزيائية)، يمكنني القول بأنني أساهم بشكل أو بآخـر في تقليص آلام ملايين البشـر. . .، أعمل بانتظام وصل إلى حد الاليـة التامة. .، زوجـتي تصفني بأنني رجل آلي من لحم ودم، وأنا لا أجـيب بحدّة لأنـني مقـتنع ضـمنـاً بوجهـة نظرها، فعنـدما يفقـد الإنسان تطـلعاته نحـو حلم ما، يفـقد نفسه[1]. . .، هذا الشعور يتابني بقوة تجعلني أعجز عن التفاعل مع أطفالي بحنان.

في الماضي كـان الأطفال هم الامـتداد للأهل. .، الآن يخـيل لي أن الأطفال هم هروبنا. .، هم شخصيتنا المنفصلة.

أعـتـقـد أنني لو تدخـلت أكـثـر في حـيـاة أطفـالي لـزدت في ألمهم اللاشعوري، إنـني أبتعد عنهم، وهـم يبتـعدون عني، ليس لديّ من حل إطلاقاً لهذه المشكلة، ولا يمكنني أن أستشير أحداً، لأن معظم زملائي - إن لم يكونوا كلهم - يعـانون من هذه التعـقيـدات، لست على استـعداد لكي استـشير طبيبـاً نفسـياً في الأمر، فـالمشكلة كمـا يبدو لي حـضارية وليست نفسية.

هذه نماذج مـحدودة من لائحـة طويلة من النماذج الحـيّة التي انتقـاها (برنار أوديل) عشوائياً، وكلها تشير إلى خطر انقراض العائلة الغربية.

وهذه النمـاذج توضح ذلـك الشـقـاء الذي بدأ يغـشى الأسـرة هناك، وتلك الكراهية والفـرقة بين الآباء والأبناء، وتلك الأمـراض الاجتماعـية التي تجعل فـرقاً كبيـراً بين نظرة الآباء والأبناء، مما ينتج عنه فصام كـبير

---

(١) لقد فـقد الناس هناك الهدف الذي لا تصلح الحياة بدون السعي لتـحصيله، ومن نعـمة الله على المسلم أنه يعرف الهدف الحق الذي ينبـغي أن يسعى إلى تحقيقه، إنـه تحصيل رضوان الله، والفوز بدار الخلد.

بين الجيل اللاحق والجيل السابق.

وقد أهدى مؤلف الكتاب رؤساء وملوك الغرب نسخاً من كتابه علّ الإنذار الذي أطلقه يصل إلى أولئك الذين يمسكون بأطراف الخيط.

تفشي الجريمة بين النساء في المجتمعات الغربية المتحررة:

أصدر مكتب التحقيقات الفدرالي في أمريكا تقارير مذهلة في هذا الأمر، وقد تحدثت صحيفة (النيويورك تايمز) عن هذا الموضوع معتمدة على تقارير مكتب التحقيق الفدرالي، وترجمت مجلة المجتمع الكويتية هذا التحقيق، تقول (النيويورك تايمز) في هذا الموضوع:

«خرج أخيراً تقرير من مكتب التحقيقات الفدرالية يشير إلى أن معدل الجريمة بين السيدات أو الجريمة النسائية ارتفع ارتفاعاً مذهلاً مع نمو حركات التحرر النسائية».

وقال التقرير: إن الاعتقالات بين النساء زادت بنسبة ٩٥٪ منذ عام ١٩٦٩، بينما زادت الجرائم الخطيرة بينهنّ بنسبة ٥٢٪».

ويقول التقرير: «إن أخطر عشرة مجرمين مطلوب القبض عليهم كلهم من السيدات، ومن بينهنَّ شخصيات ثورية اشتركت في حركة التحرر النسائية مثل (جين ألبرت، وبرنادين دون)».

وتقول الصحيفة: «وراء ربط ارتفاع نسبة الجريمة بين النساء بحركات التحرر النسائية وجهة نظر تقول: إن منح المرأة حقوقاً متساوية مع الرجل يشجعها على ارتكاب نفس الجرائم التي يرتكبها الرجل، بل إن المرأة التي تتحرر تصبح أكثر ميلاً لارتكاب الجريمة».

وتحدثت (بريجيت أوف هاهر)[1] القاضية السويدية التي كلفتها الأمم المتحدة بزيارة البلاد العربية للتعرف على المرأة العربية ودراسة أوضاعها الاجتماعية والقانونية ـ تحدثت في بداية تقريرها الذي رفعته إلى الأمم المتحدة عن المأساة التي خلفتها أوضاع الحرية المزعومة في السويد أرقى بلاد الحضارة الغربية، فهي بعد أن تقدم إحصائية في ازدياد نسبة الانتحار سنة بعد سنة في السويد تقول: «إن المرأة السويدية فجأة اكتشفت أنها اشترت وهماً هائلاً ـ وتقصد الحرية التي أعطيت لها ـ بثمن مفزع هو سعادتها الحقيقية».

وتقول القاضية السويدية عن استقبال المرأة السويدية لعام المرأة: «ولهذا فإنها تستقبل العام العالمي لحقوق المرأة بفتور مهذب، وتحنُّ إلى حياة الاستقرار العائلية المتوازنة جنسياً وعاطفياً ونفسياً، فهي تريد أن تتنازل عن معظم حريتها في سبيل كل سعادتها».

وتقول الدكتورة الباحثة في تقريرها «والنتيجة على مستوى الأمة مذهلة حقاً، ففي تقرير رسمي خطير لوزارة الشؤون الاجتماعية السويدية أعلنت الدولة أن ٢٥٪ من السكان في السويد مصابون بأمراض عصبية ونفسية، وأن ٣٠٪ من مجموع المصروفات الطبية في السويد تنفق في علاج الأمراض العصبية والنفسية، وأن ٤٠٪ من مجموع الأشخاص الذين يحالون إلى التقاعد قبل سن المعاش بسبب العجز التام عن العمل هم من المرضى المصابين عقلياً»، وينبغي أن يعلم أن الأمراض الجنسية لا تدخل في هذه الإحصائيات.

أبعد ما وصل إليه حال المرأة وانحرافها في عالم الغرب يقوم

(١) من مقال نشر في مجلة الأمان البيروتية في العدد الثامن.

رجل[1] مخدوع موتور ينادي قائلاً: «هناك تيار (ميتافيزيقي) مغرق في رجعيته وتحجره يقاوم تحرر المرأة بالأفكار نفسها التي سادت عصور الظلمة» ومن الذين يعنيهم الكاتب الحاقد اسمعه يقول: (ويتمثل هذا التيار بالشيوخ والأساتذة العاملين في مؤسسات التعليم الديني أو الجامعي أمثال د. محمد البهي، وعلي وافي، وأحمد شلبي، ويقع ضمن هذا التيار مشاهير أمثال عباس محمود العقاد وسيد قطب وغيرهم)، ولو قرأ هذا الكاتب الذي ضل عن الحقيقة ما كتبته صحيفة (التايمز اللندنية) لعدّها في جملة هذا التيار المغرق في الرجعية.

قالت هذه الصحيفة في أثناء تعليقها على كتاب الأستاذ خورشيد أحمد (الحياة العائلية في الإسلام):

«إن القواعد التي تقوم عليها الحياة العائلية في الإسلام والتي وضعت الأسس في أمور كالإرث وحقوق اليتامى واختلاط الجنسين كل ذلك مرسوم لدعم تماسك الأسرة في صورة من الصور».

وتقول: «اعتقاد السيد خورشيد أحمد بأن المحافظة على الحياة الأسرية ضروري لخير ورفاهية الأمم، يشاركه فيه كثير من النصارى واليهود، بل كثير من محبي الإنسانية، ومن هنا فإن الشعوب والأمم الإسلامية تتمتع بمركز قوي في العالم اليوم، لا لمجرد أن العرب يمتلكون الثروة النفطية، وإنما لأنهم يملكون نظاماً عائلياً مستقراً، وهو نفس النظام الذي يسعى الغرب بجنون للتفلت منه».

مزيد من الحقائق عن المرأة في عالم الغرب[2]:

لقد انهارت سعادة المرأة البيتية في عالم الغرب، وضاعت أمومتها

(١) راجع مجلة الأمان البيروتية في عددها الثامن.

(٢) عفيف فراج، انظر مجلة الاسبوع العربي عدد(٨٣١).

الحانية، وفقدت إرادتها وشخصيتها، فغدت حامل الطفل اللقيط تبحث في شرق البلاد وغربها عن مستشفيات الوضع، ففي تقرير إحصائي أصدرته منظمة الصحة العالمية ذكرت منظمة الصحة أنه يجري في كل عام (١٥) مليون حادثة إجهاض أو قتل جنين، وهذا الرقم يمثل فقط العمليات السرية غير المشروعة قانوناً، أما الدول التي تسمح بهذا العمل كالدول (الإسكندنافية)، ومعظم دول أوروبا التي تبيح الاجهاض فهي غير داخلة في الإحصاء.

المرأة اليوم في عالم الغرب تمزقها مأساة مؤلمة، إن كثيراً من النساء هناك يحملن على أكتافهن ظلم الرجال، وصعوبة الحياة، يحملن على أكتافهن أطفالاً قد حرموا من حنان الأبوة، والمرأة هناك يقلقها ظلمات الحيرة والندم كلما صرخ الطفل: ماما.. لماذا ليس لي أب كسائر الرجال؟!

المرأة في عالم الغرب لم تخسر الحياة فقط؛ بل إن الحياة قد خسرتها، خسرت فيها المربية الكبيرة للأجيال الضائعة، والأم الحنون في مجتمع سادت فيه المادية، والزوجة الكريمة والشريكة الفاضلة، فقد شغلت المرأة بالعمل وتحصيل المتاع الرخيص، ولقد خسر العالم الغربي إذ خسرها الأسرة السليمة المتزنة. ولقد شعرت لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة بهذا الانحراف الخطير، حيث أنها نشرت مشروعاً لقانون جديد على الدول الأعضاء لازالة التميز ضد النساء بمناسبة عام المرأة العالمي خلطت فيه الحق بالباطل.

ومن الحق الذي جاء فيه ـ والذي يعتبر انعطافاً خطيراً في الفكر العالمي الحديث ـ أن أي مشروع لوضع القوانين في بلاد العالم كي ينظم حياة المرأة ويحدد علاقتها بالرجل يجب أن يراعي الواجب الأساسي للمرأة في الحياة الاجتماعية، وهو الأمومة وتربية الأطفال، وتهيئة الجو السعيد لإنشاء البيت السعيد.

جاء ذلك بعد أن دلت الإحصائيات الكثيرة في العالم على خطورة وضع المرأة في ظل تحطم الأسرة والأمومة، بعد تلك الحرية الجنسية الواسعة التي عصفت بالأخضر واليابس، وبعد ذلك الانجراف وراء الشهوات البهيمية التي شجعها وخطط لها شياطين الرجال منذ القرن التاسع عشر.

لقد كانت المرأة في الغرب ذليلة مهانة مستعبدة، فالدين النصراني الذي يدين به العالم الغربي يرى أن المرأة ينبوع المعاصي وأصل السيئة والفجور، ويرى أن المرأة للرجل باب من أبواب جهنّم من حيث هي مصدر تحركه وتحمله على الآثام، ومنها انبجست عيون المصائب الإنسانية جمعاء.

وترى النصرانية أن العلاقة بالمرأة رجس في ذاتها وترى أن السمو لا يتحقق إلا بالبعد عن الزواج.

مجتمع يدين بهذه النظرة المقيتة لا يمكن أن ينصف المرأة ويضعها في موضعها اللائق بها، ولا يمكن أن ينظر إليها نظرة تكريم.

في بريطانيا في القرن الثامن عشر كان الرجال يبيعون زوجاتهم إلى أن صدر قانون يحرم ذلك في عام ١٩٣٠.

فلما جاءت النهضة الحديثة في أوروبا، قامت الطفرة الصناعية التي غيرت شكل الحياة الاجتماعية، أدار المجتمع ظهره للكنيسة، وأخذ المتحررون ينادون بالحرية في عالم ظالم ـ انتقلت المرأة فيه من استعباد إلى استعباد.

فباسم حرية المرأة وتحررها استخدم الرجال المرأة مصيدة لجمع المال، ومطية لتحصيل المتعة واللذة.

وقد ثارت المرأة في السويد وأخذت تطالب بمنع استغلال المرأة في الدعاية التجارية، ونحن اليوم نرى كيف تستغل المرأة في الدعاية للمنتوجات والسلع المختلفة، ولقد استعان منتجو السيارات العالميون في

معرض أقيم لعرض أحدث ما توصلوا إليه في صناعة السيارات بفتيات وهن شبه عاريات، وذلك بقصد تنشيط حركة الإقبال.

ولقد بدأت حتى أفجر الممثلات في الغرب يشعرن بسقوط المرأة أمام قدمي الرجل ونفسيته الجشعة، فقد نشرت جرائد العالم في العام الماضي أن ممثلة فرنسية بينما كانت تمثل مشهداً عارياً أمام الكاميرا، ثارت ثورة عارمة وصاحت في وجه الممثل والمخرج قائلة: أيها الكلاب، أنتم الرجال، لا تريدون منا النساء إلا أجسادنا، حتى تصبحوا من أصحاب الملايين على حسابنا، ثم انفجرت باكية.

لقد استيقظت فطرة هذه المرأة في لحظة واحدة، على الرغم من الحياة الفاسدة التي تغرق فيها. استيقظت لتقدم الدليل القاطع على المأساة الكبرى التي تعيش فيها المرأة التي قالوا: إنها متقدمة ومتحضرة ومتمدنة، في البلاد التي نقول إنها متقدمة ومتحضرة وراقية.

الكبت الجنسي

ولا أحب أن أنتقل عن هذا الموضوع حتى أبين الأكذوبة القائلة بأن الكبت الجنسي ليس له علاج إلا بالخلطة بين الجنسين. ويزعمون أن الخلطة توصل المتخالطين من الرجال والنساء إلى حالة ينعدم فيها هذا الكبت.

والجواب أن ما يشاهده المارون في ديار الغرب فضلاً عن المقيمين فيه، أن المخالطة هناك لم تزد الأمر إلا اشتعالاً. الاختلاط لم يحل مشكلة الكبت الجنسي، وإنما فتح باب السعار الجنسي.

وأنا أقول إن هذا لا يحتاج إلى دليل، فقد أصبح هذا أشهر من أن يستدلّ عليه، فقد تواتر بالمشاهدة، وبما ينقله القادمون، وبما تكتبه الصحف والمجلات، ولقد بلغ السعار الجنسي حداً، أصبحت المرأة في

مدن الغرب لا تأمن أن تسير على قدميها في ساعات الليل، بل قد تخطف في وضح النهار، ومع ذلك فالزنا مباح، ونوادي الفجور ونوادي العراة تملأ المدن والضواحي.

ثمَّ هَبْ أن بعض الذين يعيشون هناك أصبحوا لا يتأثرون برؤية الجنس الآخر، ولا تثور عاطفتهم وإن رأوا الأجساد العارية، والجمال الفتان، ترى أهذا الوضع صحيحاً؟!

ألا يصبح هذا مرضاً يحتاج إلى علاج، وهو المرض الذي يسمى بالبرود الجنسي.

والأفراد الذين يصابون بالبرود الجنسي، والمجتمعات التي تصاب به ـ تبتكر من أفانين الشذوذ ما تستثير به العاطفة الباردة، فينتشر هناك اللواط والسحاق، وأنماط لا تعرف، كل ذلك بحثاً عن طريقة جديدة تثير العواطف الخامدة، والشهوة النائمة.

إن الطريق التي عالج بها الإسلام ما أودعه الله في فطرة الرجل والمرأة من ميل كل منهما إلى الطرف الآخر يتمثل في قول الرسول ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء».

إن علاج ما أسموه بالكبت لا يكون بالانطلاقة الحيوانية بلا معيار ولا ضابط. العلاج يكون بمنهج سليم في هذا الأمر يشبع العاطفة المشبوبة، ويصون كرامة الرجل والمرأة، ويقوي الأواصر والروابط الكريمة، وينمي الفضيلة، ويحفظ الحياة، وهو الزواج، فإن لم يستطع فيوجه طاقته إلى العبادة والطاعة، حتى يغنيه الله من فضله.

المرأة ودعاة الإسلام

لقد وضحنا فيما سبق موقف أدعياء التقدم، بينّا أن هؤلاء يدّعون شيئاً لا حقيقة له، ويدَّعون التقدم وهم في الحقيقة متأخرون، يدعون إلى الظلم والفسق والفجور باسم الحرية والتقدم.

فماذا عن دعاة الإسلام؟

إن دعاة الإسلام لا يحكمون آراءهم في هذه القضية، ولا في أي قضية قال الله فيها قولاً، وحكم فيها حكماً، شعارهم الذي يرفعونه دائماً قوله جلَّ وعلا ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وشعارهم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]، وشعارهم قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١]. ولذلك فهم لا يحكمون أهواءَهم بل كلام العليم الخبير الحكيم، ولا يحكمون لمصلحة الرجل ضد مصلحة المرأة، ولا لمصلحة المرأة ضد مصلحة الرجل، ذلك أن الله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الرجل والمرأة في ميزان الإسلام

الرجل والمرأة في ميزان الإسلام جناحان لا تقوم الحياة الإنسانية ولا ترقى إلا في ظل عملية تنسيق ومواءَمة بينهما، فالله خلق المرأة للمهمة ذاتها التي خلق من أجلها الرجل ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وأناط السعادة بتحقيق كل من الرجل والمرأة لهذه

المهمة، والتعاسة والشقاء بالإعراض عنها، ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

حرية الرجل والمرأة

إن الإسلام ألزم الرجل والمرأة بالعبودية لله الواحد الأحد في صورة الخضوع لمنهجه ودينه، وهذه العبودية هي أعظم مراتب الحرية، فالإنسان من خلال توجهه لله وعبادته له، يتحرر من كل سلطان، فلا يوجه قلبه ولا يطأطىء رأسه إلا لخالق السموات والأرض، فالشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب كلها مخلوقات معبّدة مربوبة خلقها الله لمنفعتنا لا لنعبدها.

والإنسان في الإسلام يتحرر حتى من سيطرة الهوى وسلطان الشهوة، فالذي يسيطر على ضميره ودخيلته إنما هو سلطان الشرع، وهو يطرد سلطان الهوى إذا عارض سلطان الشرع ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

إذن هي حرية في صورة العبودية، ولا يمكن للبشرية أن تتحرر إلا بهذه العبودية، إن الحرية في غير الإسلام تصبح حرية جوفاء لا معنى لها، بل هي العبودية المذلة المهينة، وإن بدت في صورة الحرية، إن الخضوع للزعماء والرؤساء والمناهج والقوانين والنظم وما تحبه النفس بعيداً عن تشريع الخالق إنما هو عبودية وأي عبودية.

إن الحرية الغربية التي يريدنا دعاة التقدم أن نمضي إليها حرية جوفاء. الحرية كلمة رنانة ولكن لا مضمون لها، ولا محتوى، ويفسرها كل قوم بحسب ما يشتهون، وقد نادى بها اليهود لتحطيم المجتمعات

الإنسانيـة. والحرية بغير مضمون وبغـير ضوابط ولا حـدود تنقلب إلى سلاح فـتاك يعـصف بأمن الناس وحريتـهم الحقـة. جاء في البـروتوكول الأول من بروتوكـولات حكمـاء صهـيون: (لقـد كنا أول من صـاح في الشعب فيما مـضى «بالحرية والإخاء والمساواة»، تلك الكلمات التي راح الجهلة في أنحـاء المعمورة يرددونها بعـد ذلك دون تفكير أوْ وعي. . .، إن نداءَنا «بالحرية والمساواة والاخاء» اجتذب إلى صفوفنا من كافة أركان العالم، وبفـضل أعواننا ـ أفواجـاً بأكملها لم تلـبث أن حملت لواءَنا في حمـاسة وغـيرة، وكـانت هذه الكلمـات ـ في ذلك الوقت ـ تسيء إلى الرخـاء السائـد لدى المسيـحيين، وتحطم سلمـهم وعزيمتـهم ووحـدتهم، عاملة بذلك على تقويض دعائم الدولة، وأدى ذلك إلى انتصارنا).

إن هذه الحرية التي مـهد لها وأرادها شيـاطين اليهود حرية جـوفاء لا يمكن أن تحـقق للمنادين بهـا والسـاعين إليـهـا إلا مـزيداً من الحـيـرة والضيـاع. أما الحـرية التي جاء بهـا الإسلام، وهي التي جاءت مـعنونة باسم العبـودية لله فهي الحـرية الحقة التي ثبت صـلاحهـا، بل إن الحرية في الأديان المحرفة خير من هذه الفوضى التي جاء بها التقدميون، وهي أخـشى مـا يخـشاه اليـهـود. يقـول البـروتوكـول الرابع من بروتوكـولات حكماء صهـيون: (الحرية قد لا تنطوي على أي ضـرر، وقد توجد في الحكومـات وفي البـلاد دون أن تسـيء إلى رخـاء الشـعب، وذلك إذا قـامت على الدين والخوف من الله والإخـاء بين الناس المجـرد من فكرة المساواة التي تتـعارض تماما مع قـوانين الخليقة، تلـك القوانين التي نصت على الخضوع. والشعب باعتناقه هذه العقيدة سوف يخضع لوصاية رجال الدين ويعـيش في سلام، ويـسلّم للعناية الإلهـية السـائدة على الأرض، ومن ثم يتعين علينا أن ننزع من أذهان المسـيحيين فكرة الله والاستـعاضة عنها بالأرقام الحسابية والمطالب المادية).

لا ظلم ولا استبداد

في الإسلام ليس هناك مجال كي يظلم الرجل المرأة، لأن الرجل لا يحكم بهواه، بل هو محكوم بشريعة الله كما أن المرأة محكومة بشريعة الله.

وتحقيق الخير في المجتمع الإسلامي يتوقف على فقه الشريعة التي تحكم الرجل والمرأة، ثم تنفيذ هذه الشريعة في حال رضى الطرفين أو عدم رضاهما، وهذا ينطلق من تصور المسلم للقضية، وقد عبر الله عن هذا بقوله: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

مصدر الخطأ

ويحق لنا هنا أن نتساءل عن السبب الذي من أجله تأخرت المرأة المسلمة، وعن سبب الظلم الواقع عليها في ديار المسلمين.

السبب في ذلك أن كثيراً من الأوضاع في ديار المسلمين بعيدة عن الإسلام، في شئوون السياسة والاقتصاد والتعليم والاجتماع، وبسبب هذا البعد عن الإسلام نشأت أوضاع فاسدة.

إن الظلم الواقع على المرأة في ديارنا كالظلم الواقع على الرجل سواء بسواء ليس سببه الإسلام الذي ندين به، بل سببه البعد عن الإسلام ومحاولة فصل الدين عن الحياة.

لا نسوِّغ الأخطاء

إننا لا نتعامى عن الأخطاء، ولا نسوغها ونفلسفها، هناك ظلم حاق بالمرأة، وأوضاع فاسدة تحيط بها، هناك من العلماء والعوام في ديارنا

من يرى أن المرأة لا يجوز أن تتعلم، ولا يجوز أن تخرج من بيت والدها إلا إلى بيت زوجها، والخرجة الأخرى لا تكون إلا إلى القبر، هناك من يرى أن المرأة ليست جديرة بالتقدير والاحترام. . . .، هناك من يكلف المرأة فوق طاقتها ولا يرحم ضعفها، هناك الآباء القساة، والأزواج الجهلة، الذين يضربون بناتهم وزوجاتهم ضرب غرائب الإبل، نحن ندرك ذلك ولا نتعامى عنه، ولكننا نعلم أن هذا مرض من أمراض كثيرة تحيط بالأمة الإسلامية، في رجالها ونسائها وأطفالها، ونحن نحمد عمل كل من خاض غمار المجتمعات الإسلامية لتقويم المعوج وإصلاح الفاسد، وتسديد المتجه إلى الحق، ولكن لا نريد علاج الخطأ بخطأ آخر، ولا نريد أن ننتقل من إفراط إلى تفريط، ومن ضلال إلى ضلال، لا نريد أن نبقى هكذا مرة إلى اليمين ومرة إلى الشمال من غير ضابط ولا معيار، نحن نعلم أن في اتباع الإسلام الخير الذي أصلح الحياة من قبل، ورحم الله الإمام مالك حيث يقول: (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها).

المرأة في المجتمع الإسلامي

إن الذي يعايش المسلمين، ويعرف الإسلام يدرك أن المرأة المسلمة تتبوأ في المجتمع الإسلامي مكانة عالية، مكانة تحفظ لها كرامتها، وتحفظ إنسانيتها، وتصون عفافها.

الإسلام لا يعتبر المرأة جرثومة خبيثة كما اعتبرتها اليهودية والنصرانية. الإسلام يقرر الحقيقة الأزلية التي تزيل الهوان الذي وصمت به الأديان المحرفة المرأة. الإسلام يقول إن المرأة خلقت من الرجل، وأن خلق المرأة نعمة ينبغي أن يحمد الرجال ربهم على ايجادها ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الروم:٢١]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ

وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾[النساء: ١].

والمرأة في ميزان الإسلام كالرجل، فرض الله عليها القيام بالتكاليف الشرعية، وهي تحمد إذا استجابت لأمر الله، وتذم إن تنكبت الصراط السوي: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر: ٤٠].

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. واقرأ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾[الأحزاب: ٣٥].

والتناصر في المجتمع الإسلامي، والقيام بالأعباء الاجتماعية يشمل الرجال والنساء: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١].

وإيذاء المؤمنات في المجتمع الإسلامي كايذاء المؤمنين يمقت الله صاحبه، وهو عمل يستوجب العقوبة في الدنيا والآخرة: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٨].

وقال في الذين عذبوا المؤمنين والمؤمنات: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾[البروج: ١٠].

والمرأة في المجتمع المسلم لها أن تتعلم ما ينفعها من علوم الدنيا والآخرة، وما خبر تعليم الرسول ﷺ للنساء، وحضور النساء الجمعة واستماعهن لخطب الرسول ﷺ بسرّ، وقد ثبت أن الشفاء بنت عبد الله القرشيّة علّمت أم المؤمنين حفصة الكتابة، وكان ذلك بإقرار الرسول ﷺ إياها على ذلك[1].

وقد صحح الشيخ ناصر الدين الألباني بعض طرق حديث (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) أي بزيادة لفظ (مسلمة)[2].

وجعل الإسلام للمرأة أن ترث وتملك وتتصرف في مالها في الوقت الذي لا زالت بعض دول أوروبا لم تعطها هذا الحق بعد.

وجعل من حق المرأة أن تُستأذن في أمر زواجها، ولها الحق في أن ترفض، وليس لولي أمرها أن يلزمها بالزواج ممن لا ترضاه زوجاً.

فقد روى أحمد والنسائي وابن ماجة من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: جاءت فتاة إلى رسول الله ﷺ، فقالت إن أبي زوجني من ابن أخيه، ليرفع بي خسيسته.

قال: فجعل رسول الله ﷺ الأمر إليها، فقالت: «قد أجزت ما صنع أبي، ولكن أردت أن أعلم النساء أنه ليس إلى الآباء من شيء» تعني أنه ليس لهم إكراههن على التزوج بمن لا يرضينه.

وجعل الإسلام للمرأة حقوقاً على زوجها، كما جعل للزوج حقوقاً عليها، قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

والمراد بهذه الدرجة درجة القوامة التي نص الله عليها في قوله:

---

(١) راجع سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ ناصر الدين الألباني حديث رقم ١٧٨.

(٢) انظر تعليق الشيخ ناصر على كتاب حقوق النساء لمحمد رشيد رضا ص ١٩.

﴿الــرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى الــنِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ الــلَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنــفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

التفاضل بين الرجل والمرأة:

تعرضت هذه الآية من كتاب الله: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ لنقد شديد من خفافيش الظلام وأدعياء التقدم، وقالوا هذا ظلم للمرأة وإهانة لها، وقد ضل هؤلاء الذين ينسبون لله الظلم وخاب سعيهم، إن القرآن يقرر هنا حقيقة. وهي أن البيت كالمجتمع تماماً يحتاج إلى قيادة، يحتاج إلى أن يكون شخص ما فيه هو المسؤول الأول، كي يحسم الأمور إذا لم يحصل الاتفاق، **وقد جعل الله ذلك للرجل لأمرين:**

الأول: لأنه الذي يتولى الانفاق على البيت والمرأة.

والثاني: لأن الله فضله، وهذا التفضيل إنما كان بسبب تلك الخصائص التي ميزه الله بها كي يؤدي دوره ويقوم بواجباته.

والذين لا يثبتون فروقاً بين الرجل والمرأة يتعامون عن الحقيقة، والذين لا يرون أن الرجل أقدر على القيادة عماهم أكثر وأشدّ، «لقد أثبت علم الأحياء أن التكوين الجسمي في المرأة غيره في الرجل، فالتكوين الجسمي في المرأة، وما يكون فيها من غدد تعدّها لخصائص الأنوثة في دقة الخاصرة وبروز الثديين، ولين الجانب، ورقة العاطفة، ونعومة الملمس، وعذوبة الحديث، وغلبة الحياء وكثرة الخجل، وقلة الجلد، وضعف التحمل.

والمرأة يأتيها في كل شهر ما يأتي النساء من المحيض فيسوء الهضم، وتصاب بالآلام في البطن، وصداع في الرأس، وتبلد في الحس، وضعف في التفكير، وانفعال في النفس... وتحمل فتصاب في الشهور

الأولى بغثيان وتقيؤ، وصدود عن الطعام والشراب، وانحراف في المزاج وكسل وهبوط، وتظل الآم الحمل العادي معها تسعة أشهر، وتشتد وطأتها في الشهور الأخيرة، فلا تقوى على الكثير من الحركة، وتشكو آلاماً في البطن والصدر والرأس وتحس بضيق عام يأخذ بخناقها، ويفسد مزاجها، ويعكر صفو عيشها، وتضع فتأتي فترة الرضاعة، وتتعرض في الأسابيع الأولى لكثير من الأمراض، وتظل حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ضعيفة البنية، يتحول ما تأكله إلى لبن يروي وديعة الفطرة، ويغذي ولدها، وتصرف جل وقتها في حضانته ورعايته ونظافته»[١].

ولقد اكتشف العلم الحديث أن الخالق جل وعلا زود كلا من الرجل والمرأة بخصائص تتوافق والمهمة التي يقوم بها، ففي مقال نشرته مجلة (الديار)[٢] تقول (سميرة صايغ) كاتبة المقال: «هناك تباين بين انفعالات دماغ المرأة ودماغ الرجل، وإن الأقسام النشطة في دماغ المرأة تختلف عن الأقسام النشطة في دماغ الرجل، على الرغم من محاولات المرأة التشبه بالرجل» وتقول: «المرأة المعاصرة ترفض النظرية القائلة بأن هناك تبايناً بين الرجل والمرأة من جهة المقدرة (الفزيولوجية)، ومن جهة الكفاءات الذهنية، واليوم تبرز نظرية بل اكتشاف علمي يؤكد أن هناك فعلاً اختلاف بين دماغ الرجل، ودماغ المرأة من حيث الكفاءات الذهنية الناتجة عن ذلك الدماغ أي بكلمة أخرى هناك (دماغ ذكر) و (دماغ أنثى).

ويقسم العلماء الدماغ البشري إلى قسمين: قسم أيمن، وقسم أيسر، ويؤكدون أن القسم الأيمن لدى الرجل هو أقوى منه لدى المرأة، ماذا يعني هذا؟

(١) نظام الأسرة/ لمناع القطان ص ٢٠.

(٢) مجلة الديار عدد (١٠٦) بتاريخ ٥ - ١١/ ٥/ ١٩٧٥.

الدماغ هو عضو مؤلف من أنسجة رخوة تتشعب فيها الأوعية الدموية الرفيعة والأعصاب التي تحمل الإحساسات من الخارج إلى الداخل، وتحمل أوامر الدماغ إلى سائر الأعضاء في الجسم كي تقوم بوظيفتها.

هذا من الناحية التكوينية للدماغ، أما من ناحية العمل (الفزيولوجي) للدماغ فقد تبين للعلم الحديث أن الدماغ يقسم إلى مناطق، وكل منطقة تقوم بمهمة أو مهمات معينة».

وقد تأكدت هذه النظرية مؤخراً بعد أن تمكن العلماء من تصوير الدماغ وهو يقوم بوظائفه المختلفة.

وذكرت الكاتبة أن أبرز من عمل في هذا الحقل هو الدكتور (دافيد انغمار) السويدي الذي يعمل في جامعة (لوند) في السويد.

استعمل الدكتور (انغمار) غاز (كزينون) الذي يذوب في الدم ويولد اشعاعات (غاما)، وذلك لتصوير الدماغ، وهو يقوم بمهمات مختلفة.

فهو يحقن الإنسان ببعض (الكزينون) الذي يذوب، وينتقل عبر الأوعية الدموية إلى الدماغ، وتنتقل صورة ما يحدث في الدماغ عبر (٣٢) سماعة مثبتة في أنحاء مختلفة من الرأس إلى (كومبيوتر) يقوم بتحليل تلك الصورة، وتحديد نوعية العمل الذي يقوم به الدماغ في تلك اللحظة، والركن الذي يصدر عنه ذلك العمل.

ولاحظ الدكتور (انغمار) أن كل عمل يقوم به الدماغ يصدر من مكان مختلف من الدماغ. . .، وإذا ازدادت كثافة ذلك العمل، ازدادت الرقعة العاملة من الدماغ دون أن يتغير مكانها.

وأمكن الآن تحديد الأماكن التي تقوم بشتى أنواع النشاطات فهناك ركن خاص بالقوى النظرية والسمعية وتلك الناتجة عن اللمس. . .، بينما يتركز الاحساس الناتج عن طريق الشم في مكان آخر، إن للتفكير

زاوية، وللقدرة على النطق زاوية أخرى، وكذلك القدرة على القراءة والحساب، وضبط حركة الجسم العضلية، وتوجد زاوية للانفعال النفسي، أي للغضب والعنف، أو العطف والحنان.

وانطلاقاً من ذلك كله تبين للعلماء مؤخراً أن الشطر الأيمن من الدماغ يعمل بصورة أنشط لدى الذكر، بينما يعمل الشطر الأيسر لدى الأنثى بنشاط أكثر من الشطر نفسه لدى الذكر.

هذا وتجدر الإشارة إلى أنه في الشطر الأيمن تتركز المناطق الخاصة بالاحساس السمعي باللحن والأصوات، وتلك الخاصة بفهم الرسوم وشمول الرؤيا، وتقدير المسافات، والعلاقات بين الرموز.

وهذا ما يفسر إذن تفوق الرجل في الرياضيات والهندسة والموسيقى، أي في المجالات النظرية التي تتعامل بالرموز، وعلاقة بعض تلك الرموز ببعضها الآخر.

أما الشطر الأيسر فتتركز في القوى السمعية الخاصة بالتقاط الكلمات والألفاظ وحفظها وكذلك قراءة تلك الكلمات والأحرف، ومن هنا نشأ تفوق المرأة في المجالات الأدبية، وفي التعامل مع الأشياء الملموسة.

سنريهم آياتنا

ويحق لنا هنا أن نردد قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَق﴾ [فصلت: ٥٣]، فالله تعالى ذكر في كتابه قوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فجعل شهادة امرأتين بشهادة رجل فيما يتعلق بأمور المال، وها هي البحوث الحديثة التي تغلغلت إلى

أعماق عقل المرأة وعقل الرجل توضح لنا شيئاً من سر هذا التشريع الرباني.

إن هذا التشريع منسجم مع وظائف عقل كل من الرجل والمرأة، والله العليم الخبير يشرع لنا ما يحفظ الأموال، وفي حالة الحاجة إلى شهادة المرأة يلزمنا بشهادة امرأتين، ويذكر العلة ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى﴾ [البقرة: ٢٨٢]، مما يدل على أن استيعاب الرجل لأمور المال ورسوخها في فكره أكثر وأقوى منها عند المرأة.

لا ضير على المرأة

لا ضير على المرأة أن تكون على ما بيّنا، فإن حكمة العليم الخبير اقتضت أن تكون كذلك لتؤدي دورها المرسوم في الحياة، فإن المرأة تفضل الرجل في تدبير شؤون البيت وتربية الولد والقيام عليه، بما جبلت عليه من الحنان والرقة ومن التركيب العضوي الذي يعينها على وظيفتها مثل ضعف جهازها العصبي الذي يقلل من احساسها بآلام الحمل والوضع.

والمرأة تخشى كثيراً أن تفقد أنوثتها، التي هي أخص خصائصها وتفزع كثيراً إذا ما ضمر ثدياها، أو نبت لها شعر في وجهها، أو خشن صوتها، أو غير ذلك مما هو من خصائص الرجال، وخوض المرأة في المجالات التي هي من خصائص الرجل يفقدها كثيراً من خصائصها التي تبكي عليها كثيراً إذاً فقدتها.

ولقد ظهر في الغرب طبقة جديدة من النساء منذ أواخر القرن الماضي، أطلق عليهم أحد الكتاب الانجليز اسم (الجنس الثالث)[1]، هذه الطبقة تمثل المترجلات من النساء اللواتي يأبين إلا الخروج على

(١) راجع (حصوننا مهددة من داخلها) ص ١١٢.

فطرتهن، والزج بأنفسهن في ميادين الرجال.

لقد فقد هذا الصنف من النساء أنوثتهن فلم يعدن نساء، ولم يدخلن في عداد الرجال، ذلك أنهن يخالفن الرجال طبيعة وتركيبا، ويخالفن النساء، وظائف وأعمالاً، وقد درس الكاتب الانجليزي «أحوالهن درساً مدقفاً فوجد أنهن يتركن الزواج، وبانتزاعهن أنفسهن من وظائف الأمومة وما يتبعها قد تغيرت إحساساتهن عن إحساسات بنات جنسهن، وصرن في حالة من الكآبة تشبه أعراض الماليخوليا».

لم يبلغ السيل الزبى

لم يبلغ السيل الزبى بعد في البلاد العربية والإسلامية، ولا يزال هناك سبيل للعلاج، إذ لم تغرق المرأة في ديارنا كما غرقت المرأة في بلاد الغرب، حتى النساء اللواتي نسميهن متحررات في ديارنا لا يردن الحرية التي تتردى فيها نساء الغرب، فهذه طبيبة (متحررة) تقول في مقابلة لها مع جريدة السياسة الكويتية: «المرأة هي المرأة في نقطة واحدة ألا وهي رسالة الأمومة التي خلقها الله من أجلها»[1].

وفي مقابلة للسياسة مع سكرتيرة أردنية (متحررة) تقول هذه المرأة[2]: «لا أرغب في أن أخوض في فلسفة الخلق والخالق، فالمرأة غير الرجل، وإن كان كلاهما لا يمكن أن يستغني عن الآخر، فالرجل دائب السعي والبحث عن المرأة، والمرأة كذلك، وكلاهما مكمل للاخر، أي أن هناك ملك وملكة في كل بيت». وتقول: «فمن حق الملك أن يمارس صلاحيته، وعلى الملكة أن تقوم بواجبات بيتها وأسرتها وتصون أركان هذه المملكة».

(١) جريدة السياسة العدد ٣٨٨٢، ١٩/٤/٧٩.

(٢) جريدة السياسة العدد ٣٨٨١، ١٨/٤/٧٩.

وتقول: «وما المطالبة بالمساواة في نظري إلا بدعة وأنانية من المطالبات بها في تصوري، إنهن نساء فشلن في كل شيء، ولم يبق لهن شيء سوى شعارات جوفاء فارغة من كل مضمون».

وها هي امرأة بلغت قمة (التحرر) في عرف أهل هذا العصر، فقد انتخبت هذه المرأة لتكون ملكة جمال لبنان لعام ١٩٧٩ ومع ذلك فهي تقول[1]: «المرأة وجدت لصالح الرجل منذ البداية، وأي تطور حاصل لا يغير من دورها الأساسي، فهي ضلع آدم وجدت لأجله ولأجل سعادته» وتقول أيضاً: «تطورت المرأة وانتقلت من المطبخ إلى مجلس النواب، وحتى إلى الملكية ورئاسة الجمهورية. . .، هذا الانتقال برأيي هو الخطأ بعينه؛ لأن المرأة وجدت من أجل مهمة أساسية، وإذا اختلفت هذه المهمة، ولو نحو الأفضل فإنما تفقد معناها وتخفف قيمتها، أنا أفضل للمرأة أن تبقى امرأة، وأفضل لها سلاح الأنوثة على كل الأسلحة».

ومع أننا لا نوافق على كل ما ورد في كلام هؤلاء (المتحررات) عند أهل هذا العصر، إلا أننا أوردنا كلامهن كي ندلل على أن الفطرة لم تطمس عند النساء في ديار المسلمين، حتى عند اللواتي سرن في طريق المرأة الأوروبية، لا زالت فيهن بقية من خير.

ومما يدل على ذلك تلك العودة إلى الإسلام التي نراها في مختلف بلاد المسلمين، تلك العودة الخيرة المصحوبة بالتدين العميق.

---

(١) جريدة السياسة بتاريخ ١٧/٤/١٩٧٩.

كلمة أخيرة

كلمة أخيرة أتوجه بها إلى المرأة في ديارنا ديار المسلمين، إنني أقول للمرأة: حذار من التردي في المنحدر الذي تردت فيها المرأة في ديار الكفر، وإذا كانت للمرأة هناك بعض العذر، لأنها لا تجد الدين الذي يحفظ لها حقها، فما عذر المرأة في ديار الإسلام وقد أنزل الله لها الدين الذي يحفظ لها كل ما تصبو إليه المرأة العاقلة الواعية.

وأقول لها: إن هناك جماعات كثيرة ـ تتاجر بقضية المرأة، هناك جهات سياسية تستتر وراء حركة تحرير المرأة لتحقق أهدافاً سياسية، ومن قرأ كتاب (المعونات الأمريكية السوفيتية) يدرك التخطيط البعيد للاستعمار الثقافي والاجتماعي.

ومن يعلم سير الأحداث في مصر يعلم أن معركة قانون الأحوال الشخصية في مصر يؤججها دوما نصارى متعصبون ابتغاء إضعاف مركز الإسلام. والشيوعيون في ديارنا ينطلقون في هذا المجال من قناعة سياسية وهي أن السيطرة على المرأة تعني السيطرة السياسية على الجيل القادم. وأحب أن أنبه المرأة أنه ليس في صالحها ولا في صالح المجتمع الذي تعيش فيه أن تحيا مع الرجل حياة مواجهة وصراع، فقد قامت في أوروبا وأمريكا منظمات رجالية تدافع عن حقوق الرجال ضد تسلط المرأة، لقد نتج عن دعوة المرأة إلى التحرر والتسلط ردود فعل انطلقت بدون معايير وضوابط، وبذلك تصبح الحياة صراعاً ملتهباً بين الرجل والمرأة، وليس في هذا سعادة لأحد، لا للزوج ولا للزوجة ولا للأولاد.

وأريد أن أقول للمرأة جاهدي وناضلي في سبيل إعلاء كلمة الله، وسيادة الشريعة الإسلامية، فإن فعلت فقد ناضلت لإقرار الحق الذي سيعود خيره عليك وعلى بنات جنسك وبني جنسك أيضاً.

إنك إذا رفضت العودة إلى الإسلام والسير في الطريق الذي اختطها فلن تكسبي شيئاً، وستخسري كل شيء.

إنك إن دعوت إلى غير الإسلام فستجدين الذين يقومون على دعوتك ويقودون تجمعاتك هم من الذين يتاجرون بقضيتك، في العام العالمي للمرأة (١٩٧٥) أقيم في الكويت مؤتمر نسائي، فماذا حقق هذا المؤتمر، ومن الخبراء الذين أصدروا قراراته؟

تقول مجلة المجالس في عددها (٢٦) ٢٢/٣/١٩٧٥: (وقد لوحظ بشكل جلي وواضح أن المرأة الكويتية غابت عن المؤتمر غياباً كاملاً فلم يكن لها إلا وجود شكلي في الاحتفال).

وتقول: (أما أعمال المؤتمر فقد أوكلت إلى خبراء غير كويتيين، ولم نجد بينهم خبيرة كويتية واحدة في مشاكل المرأة).

وتذكر المجلة أن محتوى المؤتمر كان هزيلاً أغفل المرأة ذاتها.

وأقول للمرأة في ديارنا: ليست حقوق المرأة مجرد خطابة وكتابة ومقابلات وسفرات وحفلات، إن العمل الجاد البناء هو الميدان الذي تستطيع أن تثبت فيه المرأة كفاءتها، إننا نريد النساء اللواتي يبنين الأجيال فيصنعن بهم التاريخ، نريد المرأة التي تتحسس آلآلم المجتمع وأحزان اليتامى والثكالى والفقراء والمعوزين، المرأة التي تشعر بمأساة الأمة ومصائبها، التي تدفع من مالها، وتنفق مما أعطاها الله، لا نريد المرأة مجرد دمية، تقف في المجامع والمحافل متعطرة متزينة فيشد الحاضرين جمالها، ولا يفقهون مما تقوله شيئاً.

لا نريد المرأة في بلادنا مجرد ببغاء تردد ما يقال، وتلبس كل ما صنع لها، وتملأ فكرها بكل ما يكتب، وتنساق وراء كل نزوة، وتجري وراء كل بريق خادع.

نريد أن يكون للمرأة شخصيتها المتميزة في العقيدة والفكر والسلوك واللباس ونمط الحياة.

وخلاصة القول أننا: نريد المرأة المسلمة، التي تزن الأمور بميزان السماء، وتنظر إلى الحياة من خلال القرآن، وتنظر وهي في الدنيا إلى الدار الآخرة، وتتخذ من الإسلام منهجاً وطريقاً، ومن الرسول ﷺ أسوة وقدوة.

هذه المرأة التي نريد، وهي التي تستطيع أن تحقق في واقع الحياة الشيء الكثير لنفسها ولغيرها.

والنماذج التي نريدها سيكون لها شأن عظيم بحول الله وقوته والله المستعان.

المحاضرة الثانية عشرة

أثر العصبية في توهين بناء الأمة الإسلامية

المقدمة

الداعي لهذه المحاضرة:

الحمد لله الذي هدانا للإسلام وبالإسلام، فأصبح المؤمنون به إخوانا، والصلاة والسلام على من بعثه ربه منيراً للبصائر والأبصار، فأنقذنا به من الضلالة، وخلصنا به من الغواية، وأرشدنا به إلى الصراط المستقيم، فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله الكرام، وصحبه بناة الإسلام، الذين جاهدوا في الله حق جهاده فرضي الله عنهم، وعلى من سار على دربهم، وسلك سبيلهم إلى يوم الدين، وبعد:

فإن الأسباب التي أدت إلى توهين بناء الأمة الإسلامية كثيرة، والعصبية بشتى أشكالها وألوانها واحدة من تلك الأسباب التي أدت إلى ذلك التوهين، وهذه المحاضرة تلقي أضواء على مرض العصبية الذي عانى منه المسلمون طويلاً، ولا يزالون يعانون منه حتى اليوم، بل إن معاناتهم اليوم أشد مما وقع في عصور سابقة، وكما تلقي هذه المحاضرة الأضواء على ذلك المرض، فإنها تبين الطريق للخلاص منه.

وقد ألقيتُ أصل هذه المحاضرة وخلاصة عنها في المؤتمر الذي عقدته كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الكويت بالتعاون مع اللجنة الاستشارية العليا للعمل على استكمال تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية بدولة الكويت، وقد عقد المؤتمر في الفترة من (١٨) إلى (٢٠) من ذي الحجة ١٤١٦هـ الذي يوافقه من (٦) إلى (٨) مايو ١٩٩٦.

وموضوع المؤتمر وعنوانه «الأمة الإسلامية: أسباب الوهن وسبل

النهوض» وقد عالج المؤتمر هذا الموضوع من خلال ثلاثة محاور، المحور الأول: واقع الأمة الإسلامية. أما المحور الثاني فهو أسباب الوهن. والمحور الثالث أسباب النهوض.

والبحث الذي أسند إليّ الحديث فيه هو أحد موضوعات المحور الثاني، وقد حددت لي ورقة العمل عنوانا يحمل اسم «التعصب الإقليمي» وقد ارتأيت أن قصر التعصب على جانب واحد ليس بصواب، فالتعصب بشتى أشكاله وأنواعه كان ولا يزال يشكل مرضا خطيراً تسبب في توهين بناء الأمة الإسلامية، ولذا آثرت الحديث عن أثر العصبية في توهين بناء الأمة الإسلامية، وبذلك جعلت الحديث عاماً في العصبيات كلها، وليس خاصا بنوع واحد من أنواعها.

لم يتح لي أن أدون محاضرتي في الموضوع الذي تناولته قبل بداية المؤتمر، لأن خطاب الدعوة وصلني قبيل انعقاد المؤتمر، وجاءتني الدعوة في وقت تزاحمت فيه الأشغال، واعتلت فيه الصحة، ولولا الإلحاح الشديد من القائمين على المؤتمر على ضرورة حضوري له مع ما أحمل لهم من التقدير والود لما تيسرت لي المشاركة فيه.

ولما كانت عادتي أن أدون المشاركات التي أقوم بها في مثل هذه المؤتمرات، فقد بادرت إلى كتابة الموضوع الذي تناولته في المؤتمر في هذا البحث بعد عودتي إلى مقر إقامتي في مدينة عمان.

في بداية الحديث أود توجيه الشكر إلى الإخوة القائمين على المؤتمر لعقدهم هذا المؤتمر في هذه الأيام، فالأمة الإسلامية بحاجة لمن يشخص أدواءها، ويعرف كيف تُعالج هذه الأدواء.

وهذا العمل إن خلصت فيه النيات من أفضل القربات عند رب الأرض والسموات، فمن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، ومن لم يسؤه مصاب أهل الإسلام، ولم تفرحه مسراتهم، كيف يكون مسلما؟

إن المسلمين يشكلون مجتمعاً مترابطا متراحما فيما بينهم، رحمتهم فيه لإخوانهم، وشدتهم وقوتهم وبأسهم على أعدائهم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقد كان الصالحون قديما ولا يزالون يعافون الطعام، وتركبهم الهموم عندما يبلغهم ما يسوء إخوانهم في طرف من أطراف الأرض، وقد خشي الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ محاسبة الله له عن عثار بغلة بالعراق إذ لم يمهد الطريق لراكبها.

وأشكر القائمين على المؤتمر ثانيا، لحسن ظنهم بي بدعوتهم إياي للمشاركة في المؤتمر، واحتفائهم بي طيلة أيامه، كما أشكر الحضور الكرام الذين أكرموني بالاستماع إلى محاضرتي والتعقيب عليها.

تحديد مفهوم العصبية

العصبية منسوبة إلى العصبة، وعصبة الرجل أقاربه من جهة أبيه، سُمُّوا عصبةً لإحاطتهم به إحاطة العصابة بالرأس، قال ابن منظور: «وعصبة الرجل الأقارب من جهة الأب، لأنهم يعصبونه، ويعتصب بهم، أي يحيطون به، ويشتد بهم»[1].

وللعصبية التي حكمت الأمة العربية وحاربها الإسلام مفهوم واضح، يقول ابن منظور مبينا معنى العصبية: «التعصب من العصبية، والعصبية أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته، والتألب معهم على من يناويهم، ظالمين كانوا أو مظلومين، وفي الحديث: (العصبي من يعين قومه على الظلم)، فالعصبي هو الذي يغضب لعصبته، ويحامي عنهم»[2].

ولا يحصر الإسلام مفهوم العصبية المقيتة في نصرة المرء لقومه فحسب، بل يعديه إلى كل أنواع الولاءات التي يقوم التناصر فيها على أساس من ذلك الانتماء، وهو نصرة الرجل القوم الذين ينتمي إليهم سواء أكانوا محقين أم مبطلين، فالذي ينصر أهل مذهبه أو أهل قريته ومدينته وموطنه أو ينصر أهل لونه، كل ذلك هو من العصبية المذمومة.

أما الذي يناصر من ينتمي إليهم إذا كانوا محقين، ويردعهم عن ظلمهم إن كانوا ظالمين، فليس ذلك من العصبية في شيء، فقد حول الإسلام المفهوم الخاطىء لشعار أهل الجاهلية (انصر أخاك ظالماً أو مظلوما» إلى مفهوم صحيح ببيان أن نصرة الأخ الظالم تكون برده وكفه عن ظلمه، ذلك أنك بكفك إياه عن الظلم تنصره على نفسه وهواه وشيطانه، وتنجيه في الدنيا مما يمكن أن يحيق به من غضب ربه وفي الآخرة تمنعه من النار.

---

(١) لسان العرب ٢/ ٧٩٢ وراجع النهاية لابن الأثير: ٣/ ٢٤٥.

(٢) لسان العرب: ٢/ ٧٩٢.

مضار العصبيات وآفاتها:

الذي يتعصب لأهل وطنه أو قبيلته وجنسه يظن نفسه من طينة غير طينة البشر، ولذا فإنه يتعاظم في نفسه، ويعظم في عينيه من يتعصب لهم، ويرى غيرهم دونهم في الفضل والمكانة، ويرى أن من حقه أن يسود، وتسود أمته، وبذلك ينشأ الصراع بين بني البشر بناء على تصورات فاسدة موهومة، وقد حولت العصبية الجاهلية العرب إلى أعداء، وحولت الجزيرة العربية إلى ساحة صراع، وقد أخبرنا ربنا بالحال التي كان أهل الجاهلية عليها ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ، وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [آل عمران: ١٠٢ - ١٠٣].

وإذا أنت قرأت تاريخ العرب قبل الإسلام، لا تجد وصفاً للعلاقة التي كانت سائدة بينهم أدق من التعبير القرآني (أعداء).

وليس هذا الوصف قصرا على عرب الجاهلية في صحراء الجزيرة، بل إن هذا الوصف ينطبق على كل من تعصب تعصبهم، وسار مسيرتهم، لقد سادت النظريات القومية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين في أكثر دول العالم، وحاولت كل أمة أن تعلو على غيرها من الأمم، وكانت الحرب العالمية الأولى ثمرة هذه النظرة الضيقة المقيتة، وأفنت الحرب في سنوات ما لم تفنه الحروب في مئات السنين، وحاول الكبار تجاوز العصبيات، فأنشأوا عصبة الأمم، ولكنها كانت عبارة عن عصابات تجمعت للسيطرة على الشعوب الضعيفة، وتعبيدها للأمم القوية بوضعها تحت الانتداب أو تحت وصاية الدول الكبرى.

لقد كان هدف الدول الكبرى الغارقة في العصبية منع وقوع التصادم

فيما بينها، وذلك باقتسام الشعوب الضعيفة، لقد أعلنوا أنهم يريدون وحدة الأمم، ونزع روح العصبية القومية، ولكن النفوس المريضة بداء العصبية تعاملت مع الشعوب الضعيفة بروح العصبية المستعلية، فداسوا كرامة الشعوب،وركبوا ظهورها، واستنفدوا خيراتها، وانتهت تلك الفترة بالحرب العالمية الثانية، فكانت أشد ضراوة وفتكا من سابقتها، وها هي قرارات هيئة الأمم ومجلس الأمن تحكي أشد أنواع الظلم في كثير من دول العالم،ومنها فلسطين وكشمير ومسلمي يوغسلافيا وغيرهم.

أنواع العصبيات:

النوع الأول: عصبية القرابة والنسب :

قررنا من قبل أن كل من ناصر قوماً أو تجمعاً محقين كانوا أم مبطلين فإنه مبتلى بداء العصبية، ومناصرة المرء غيره على هذا النحو تتعدد أسبابه وتتنوع، وأول أنواعها وأقدمها وأقواها عصبية القرابة، وكلما كانت القرابة قريبة كانت أشد وأقوى، وكلما ابتعدت ضعف تأثيرها، وهناك عوامل أخرى غير القرب والبعد لها تأثير في قوتها وضعفها، ولا يزال لهذه العصبية وجود حتى اليوم، ولا زلنا نرى في أيامنا حروبا طاحنة في مختلف دول العالم، يتسبب في إثارتها اختلاف الأعراق والقبائل والأجناس.

يقول أوستن ربي: «كانت القرابة أقدم أساس قامت عليه الجماعة أو المنظمة البشرية، فروابط القربى والنسب تقوم على الجذور البيولوجية المشتركة للأسرة، أو على الزواج أو التبني في بعض الحالات.

وقد ظل أفراد الجنس آلافا عديدة من السنين في فجر تاريخ البشرية منقسمين إلى عشائر أو قبائل، وكانت العضوية في هذه الجماعات تتوقف على مجرد المشاركة في أواصر القربى مع الأفراد الآخرين،

يعيشون في الجماعة نفسها، وقد ظلت أواصر القربى في كثير من المجتمعات البدائية في أيامنا هذه القاعدة الأساسية لعضوية المجتمع والاندماج فيه»[1].

والنوع الثاني: **التعصب للمبادىء والمذاهب**:

وقد شكل أصحاب هذا النوع تيارا وتجمعاً في عالم البشر، فترى الفرد من هذه الجماعات يناصر جماعته، سواء أكانوا محقين أم مبطلين، وبعض هذه التجمعات لا تسمح للفرد بأن يخالف الجماعة بحال من الأحوال، وإلا فإن مصيره الطرد من إطارها، وقد تكون هذه التجمعات دينية، وقد تكون غير دينية، كالأحزاب والجماعات المختلفة، ولا شك في دخول أتباع الديانات المحرفة في دائرة العصبية، لأن هذه الديانات وإن كان فيها بقايا من الحق، إلا أن فيها باطلا ليس بقليل، والإصرار على الاستمساك بذلك الدين على الرغم مما فيه من باطل هو لون من التعصب، وقد ذم الله اليهود والنصارى الذين تابعوا علماءهم محقين كانوا أو مبطلين، بأنهم اتخذوهم أرباباً من دون الله ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] أما الأحزاب والتجمعات غير الإسلامية التي يلتزم الفرد بكل مقرراتها، فإن العصبية فيها أشد وأقسى.

قد يقال: فاتباع الإسلام ومناصرته هو أيضاً عصبية، والجواب: إن الإسلام دين الله، وهو حق كله، ومتابعة الحق ليس من العصبية في شيء، أما مناصرة المسلم للمسلم، ومناصرته لأمة الإسلام، فإن الواجب على المسلم حتى يتخلص من العصبية أن ينصرهم إذا كانوا مستمسكين بالحق قائمين عليه، فإن حادوا عنه وجب عليه نصحهم،

---

(١) سياسة الحكم لأوستن ربي: ص ٢١٩.

وردهم عن ظلمهم وخطئهم.

والتجمعات الإسلامية أحزاباً وجماعات، لا يكون أتباعها متعصبين لها إذا تابعوها في حال استقامتها على الإسلام، ونصحوا لها حينما تخالف أمراً من أموره، أو حكماً من أحكامه، فإن كان الحزب أو الجماعة لا تسمح لأفرادها بالمخالفة والمعارضة، وكان الأفراد ملزمين بالمتابعة في كل حال، فتلك عصبية يرفضها الإسلام.

والنوع الثالث : العصبية الإقليمية:

وهذه العصبية نشأت بعد تشكل الكيانات السياسية في العالم الإسلامي على أثر انهيار دولة الخلافة، وقد كانت تجزئة الدولة الإسلامية والأمة الإسلامية هدفاً من أهداف أعداء الإسلام، وقد نجح أعداء الإسلام في تحقيق هدفهم هذا، فضعفت الأمة الإسلامية، وسهل على أعدائنا السيطرة علينا والتلاعب بنا.

وهذه الخطة التي اتبعها المتربصون بنا الدوائر خطة استعمارية قديمة، استعملها الإسكندر المقدوني للسيطرة على الدولة الفارسية، ذكر ابن كثير في تاريخه «أن الإسكندر لما غلب ملك الفرس دارا بن دارا، وأذل مملكته، وخرب بلاده، واستباح بيضة قومه، ونهب حواصله، ومزق شمل الفرس شذر مذر، وعزم أن لا يجتمع لهم بعد ذلك شمل، ولا يلتئم لهم أمر، فجعل يقر كل ملك على طائفة من الناس في إقليم من أقاليم الأرض ما بين عربها وأعاجمها، فاستمر كل ملك منهم يحمي حوزته، ويحفظ حصته، ويستغل محلته، فإذا هلك، قام ولده من بعده، أو أحد قومه، فاستمر الأمر كذلك قريباً من خمسمائة سنة، حتى كان ازدشير بن بابك من بني ساسان، فأعاد ملكهم إلى ما كان عليه، ورجعت الممالك برمتها إليه، وأزال ممالك ملوك الطوائف، ولم

يبق منهم تالد ولا طارف»[1].

وقد كان سبب اندثار الأندلس، وزوال ملك المسلمين فيها هو انقسامها إلى دول وممالك، وقد سمى المؤرخون تلك الحقبة بحقبة ملوك الطوائف، وقد وقع الصراع والقتال فيما بينها حتى زال ملك المسلمين من تلك الديار.

وها هو التاريخ يعيد نفسه، فقد قسمت الأمة الإسلامية إلى دول نافت على الأربعين، وأخذ القائمون على الأمر في كل قطر ينفخون في المسلمين القاطنين في قطرهم، ويذكون فيهم روح العصبية، وبعد أن كانت الدعوة في أول الأمر موجهة للأجناس أخذت الدعوة تتجه إلى أصحاب كل قطر دون سواهم، فسمعنا من ينادي في مصر الأزهر: مصر للمصريين، وفي عاصمة الخلافة إستانبول تركيا للأتراك، وبدأت تتشكل لكل أهل كل قطر عصبية يعتزون بها، ويستعلون بها، فالفلسطيني يظن أنه يملك من الخصائص ما يميزه على غيره، وكذلك المصري والكويتي والتركي.

وبدأ هذا الداء يسري حتى إلى حملة الدعوة الإسلامية بشكل أو بآخر، وثارت الحروب بين هذه الكيانات في بعض الأحيان، أما النزاعات فيما بينها على الحدود المشتركة فأمر سارت بأخباره الركبان، أما تخصيص المكاسب والمغانم والوظائف بأهل ذلك القطر، وتقديمهم على غيرهم، ومنع غير أصحاب ذلك القطر من دخول البلد إلا بأذن، فأصبح كأنه أمر مقرر لا ينازع فيه.

وكلما امتد الزمان ترسخت العصبيات الإقليمية في ديار الإسلام، بل إن كل جنس أخذ أهله في المطالبة بإنشاء كيان سياسي خاص بهم، فالأكراد يحاربون حرباً مريرة للحصول على كيان سياسي خاص بهم، وفي سبيل ذلك يسفكون دماء غيرهم، وتسفك دماؤهم.

(١) البداية والنهاية: ٢/١٨٣.

والنوع الرابع: عصبية اللون:

وتأثير هذا النوع ضعيف في الأمة الإسلامية، فألوان البشر في عالمنا الإسلامي قلما تُوجِدُ مشكلة، ولكن هذا اللون من العصبية متعمقة جذوره في عالم الغرب، فالسود أصابهم بسبب لونهم في الدول التي تدعي التحضر كأمريكيا وبريطانيا ظلم كبير، فقد سفكت دماؤهم، وانتهكت حرماتهم، وحرموا من حقوقهم بسبب لونهم، وقد منع أبناؤهم من دخول مدارس البيض، وحرموا في بعض المدن من السكنى في مناطق البيض، وحرموا من فرص العمل المتاحة لأصحاب اللون الأبيض، ولا زالت ثورات السود تتوالى محطمة مدمرة بسبب الظلم الذي لا يزال يحيق بهم.

العصبيات لا تصلح إطاراً للتجمعات الإنسانية:

لا تصلح العصبيات على اختلاف أنواعها إطارا للتجمعات الإنسانية فضلاً عن أن تكون رابطا عالميا لبني الإنسان.

إن التعصب للأجناس والقبائل والأوطان مجرد انتماء من غير مضمون، فالعصبية للجنس لا تعطي منهجاً يوحد القلوب، ويقوم الأعمال، ولذا فإن الدعوة إلى الإنسانية من غير معتقد، وهي دعوة ذات صدى في هذه الأيام، لا تصلح رباطا، لأنها دعوة من غير مضمون، إن الدعوة التي توحد بني الإنسان في إطار واحد ينبغي أن توحد القلوب قبل الأجسام، وتوجد علاقة روحية تبنى عليها العلاقة بين البشر.

والدعوة إلى المبادئ المنحرفة أو الضالة لا تصلح إطاراً لتجمع بشري أو إنساني عالمي، لأن ما فيها من ضلال كفيل بإيجاد الفرقة والتعادي والخصام.

كيف تصلح اليهودية إطار عالميا، وهي دعوة عنصرية مغلقة!! أضف إلى ذلك ما فيها من تحريفات وكذب على الله وعلى رسله.

وكيف تصلح النصرانية إطاراً، وهي تؤله البشر، وتهرب من الدنيا، وتترك الحكم للقياصرة!!

وكيف تصلح البوذية إطارا ورباطا عالمياً، وهي تدعو إلى الهروب من الحياة بأشد مما في النصرانية.

وكيف تصلح الهندوكية رباطا عالميا يوحد بني الإنسان، وهي التي تقسم البشر إلى طبقات أدناها المنبوذون الذين لا يصلحون إلا للأعمال القذرة وعبادة السادة!!

وكيف تصلح حضارة الغرب رباطا عالميا، وهي التي دمرت دولنا، وأذلت شعوبنا، وسفكت دماءنا، وانتهكت حرماتنا، وسلبت مقدساتنا، ولا زالت تفعل ذلك بنا!!

إن كل ألوان العصبيات والروابط التي جمعت البشر قديماً وحديثاً روابط متخلفة رجعية، أتعبت الناس وفرقتهم، وملأت القلوب بالتشاحن والتباغض، وحولت بني الإنسان إلى وحوش غاب، يأكل القوي منها الضعيف، وإن غلف البشر دعواتهم الخبيثة، ومقاصدهم السيئة، بغلاف جميل براق، يدعون فيه أن مرادهم تحضير تلك الأمم ورفعة شأنها.

إن هذه الروابط التي تحكم عالم البشر روابط من صنع البشر، وصنع البشر لا يملك عوامل الثبات والدوام، يقول ابن خلدون: «اعلم أن العالم العنصري بما فيه كائن فاسد، لا من ذواته، ولا من أحواله. فالمكونات من المعدن والنبات وجميع الحيوانات: الإنسان وغيره، كائنة فاسدة بالمعاينة، وكذلك ما يعرض لها من الأحوال وخصوصاً الإنسانية.

فالعلوم تنشأ ثم تدرس وكذا الصنائع وأمثالها. والحسب من العوارض التي تعرض للآدميين، فهو كائن فاسد لا محالة. وليس يوجد لأحد من أهل الخليقة شرف متصل في آبائه من لدن آدم إليه إلا ما

كان من ذلك للنبي كرامة به، وحياطة على السر فيه»[1].

موقف الإسلام من العصبية:

توالت التوجيهات النبوية محذرة من العصبية الجاهلية بشتى أنواعها، وهي تحذيرات مخيفة ترهب الذين يخشون ربهم ويخافون وقوفهم بين يديه.

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: (من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، فمات، مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عمية، يغضب لعصبة، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة، فقتل، فقتلة جاهلية)[2].

وفي رواية عند مسلم: (من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، ثم مات، مات ميتة جاهلية، ومن قتل تحت راية عميّة، يغضب للعصبة، ويقاتل للعصبة، فليس من أمتي).

وروى أبو داود في سننه بإسناد صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عبية الجاهلية، وفخرها بالآباء، مؤمن تقي، وفاجر شقي، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن)[3].

وروى أبو داود بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود قال: (من نصر قومه على غير الحق فهو كالبعير الذي ردي فهو ينزع بذنبه)[4].

---

(١) المقدمة لابن خلدون: ص ٢٣٩.

(٢) مسلم بشرح النووي: (١٢/٥٤٧) طبعة دار الخير.

(٣) صحيح سنن أبي داود: ٣/ ٩٦٤ ورقمه: ٤٢٦٩ (عبية الجاهلية: فخرها وتكبرها. والجعلان: دويبة تنشأ في القاذورات).

(٤) صحيح سنن أبي داود: ٣/ ٩٦٤ ورقمه: ٤٢٧٠.

لقد كان هذا الذي نصر قومه على غير الحق في القمم السامقة باستمساكه بالإسلام، فلما نصر قومه بغير حق هوى من تلك القمم السامقة، كما يهوي البعير إلى واد بعيد قعره، فإذا هو ينزع بذنبه في تلك المهواة.

لماذا حارب الإسلام العصبية وحذر منها:

إن التجمع والتناصر على أساس العصبية يناقض أصول الإسلام وتعاليمه، إن المسلم الذي آمن بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولاً، يمتلئ قلبه بحب الله ـ تبارك وتعالى ـ وحب الذين يحبهم الله جل وعلا، وبغض الذين يبغضهم، فهو يوالي أحباب الله ويناصرهم، ويبغض أعداء الله ويعاديهم.

وقد حذر الباري عز وجل، المؤمنين من اتخاذ آبائهم وإخوانهم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان، وحذرنا أشد التحذير من تقديم محبتهم على حب الله ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ، قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٣، ٢٤].

إن الموقف الذي يجب على المسلم أن يقفه من قومه إن تنكبوا الطريق، وخالفوا الدين الذي جاءهم من عند الله هو موقف إبراهيم والذين آمنوا معه ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ

وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٣، ٤].

إن التجمع الذي يريده الإسلام ويرتضيه هو الاجتماع على الإسلام، فالإسلام يصلح القلوب والنفوس، ويشكل من المؤمنين به أمة واحدة، تتراص صفوفها، حتى تشكل بناء واحدا هو دولة الإسلام، وتصبح أمة الإسلام كالجسد الواحد، الذي تسري فيه روح واحدة، والمسلمون يتناصرون، ويوالي بعضهم بعضاً بالإسلام، وبه يرحم بعضهم بعضا، ويعاون بعضهم بعضا، فهم يد على من سواهم.

وهذه الرابطة رابطة عالمية تصلح لأن تكون رابطة للبشر جميعاً، فالقوم واللون واللغة والإقليم روابط جزئية، لا تصلح إلا لفئة من الناس، والعقائد المغرقة في الضلال والمبادئ الضالة لا تصلح رابطة عالمية؛ لما فيها من الضلال والانحراف الذي يجافي الفطرة السوية ويعارضها.

ومن هنا استطاع الإسلام أن يغزو قلوب من وصلت إليهم دعوته، وتحولت كثير من المجتمعات الجاهلية إلى الإسلام، لما رأوا فيه من الحق، وانظروا إلى استمساك المسلمين بالإسلام في مختلف بقاع الأرض حتى اليوم، فقد اعتنقوه باذلين في سبيله الأنفس والأموال، كما نراه اليوم في مسلمي الشيشان الذين يسطرون ملحمة بطولية قل نظيرها في التاريخ.

إن الإسلام لا يلغي في إطار الأمة الواحدة الأجناس والألوان، ولا يلزم المرء ببغض دياره ووطنه، فالمجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية يدخل في إطارها مختلف الشعوب والأجناس والقبائل، وتضم ديارا مختلفة، وهذا الاختلاف آية من آيات الله لا يؤدي إلى التخاصم والتدابر والتقاطع إذا استعمل فيما خلقه الله له، فقد شاء الله للبشر أن يكونوا أجناساً وشعوباً وقبائل ليتعارفوا ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ

وأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣].

فإذا اقتصر البشر في الانتماء إلى الأجناس والقبائل والأوطان على التعارف فلن يحدث مشكلة بين الناس بسبب انتماءاتهم، ولكن إذا أرادوا هذه الانتماءات للتفاضل فيما بينهم، فهنا يقع التخاصم والتدابر، إن الإسلام يقرر أن أصل البشر واحد، فالأصل الأول التراب ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥]، والأصل الثاني آدم خلق الله منه زوجه حواء ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١]، فإذا كان الأصل واحد، فلا معنى لأن يفخر أحد على أحد، أو يتعالى أحد على أحد، كلكم لآدم وآدم من تراب.

إن ميزان التفاضل لا يعود في الإسلام إلى الأجناس والألوان والأقاليم، بل يعود إلى التقوى والصلاح ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وهو الميزان للأمم كلها، وللبشر على اختلاف أشكالهم وألوانهم وأجناسهم، وهو ميزان عالمي إلهي رباني.

إن جعل ميزان التفاضل الجنس أو اللون أو الإقليم خرافة، فليس كل أهل مكة والمدينة حتى في العصر النبوي أخيارا، وليس كل قريش في العهد النبوي أخياراً، وليس كل أصحاب اللون الأبيض أفاضل، لقد كان من أهل المدنية منافقون، وكان في قريش أبو لهب وأبو جهل وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وهم أئمة الكفر في ذلك الوقت، إن جعل كل أهل فلسطين، أو أهل الكويت، أو أهل مصر أخياراً خطأ ما بعده خطأ، فكل الشعوب الإسلامية فيهم الأخيار والأشرار الصالحون والطالحون.

لقد صهر الإسلام الأجناس والشعوب والقبائل في بوتقة واحدة على الرغم من اختلاف ديارهم ولغاتهم وألوانهم، وشكلوا جميعاً دولة

واحـدة يحكمهـا حاكم واحـد، يقـودها بكتاب الله وسنة رسـوله ﷺ، ولكن الدعوات الجاهلية التي كـانت ولا تزال تدعو المسلمين إلى التجمع على غيـر الإسلام، كالاجـتمـاع على الولاء للقبيلـة أو الوطن أو المبادئ المنحـرفـة الضـالة لم تزل مـوجـودة، فـإذا كـان الإسـلام قـوياً فـإن هذه الدعـوات توأد في مـهـدها، وإذا ضـعف الإسـلام أطلت هذه الدعـوات برؤوسها، فتمزق كيان الإسلام، وتهدم معاقلة، وتبيح دياره للأعداء.

كيف الخلاص من العصبية:

الخلاص من العصبيـة يكون بالإخلاص لله رب العالمين، فالذي يؤمن بالله رباً، وبالإسـلام دينا، وبمـحـمـد رسـولاً، سـيـوالي من يحب الله، ويتـخـذه أخـاً ووليـاً، ويعـادي من يعـادي الله، ولـو كـان أبا أو ابنا، ويناصـر المسلمين، ولو كانوا من غـير جنسـه، ويعادي من يـعادي الله، ولو كـانوا قومـه وعشـيـرته، فإن لم يفـعل ذلك، فليس مـؤمنا، أو في إيمانه خلل، وهذا يدل على أن فـقهـه للإسلام فـيه وهن، وأن انتـماءه للإسلام مشوب بالهوى.

لقد رسم لنا القـرآن طريق الخلاص بقوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٢] والمناداة بالعصبية تنافي الاعتصام بحبل الله، وهي في الوقت نفسـه دعوة إلى الفرقـة والاختلاف، وردة إلى الجـاهلية الأولى، حيث جعلت العصـبية الأمة العربية أمة مـتعادية، وقد ذكَّرنا الله بحـالهم تلك مـحـذراً من عودتنا إلـيهـا ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[آل عمران: ١٠٢].

لقد تحول حالنا من أمة متعادية مـتقاتلة إلى أمة متآلفة القلوب، فأدى ذلك إلى تلك الأخـوة التي أصـبـحت مـضـرب المثل في أرض الواقع، وكـان السـر الذي حـوّل أعـداء الأمس إلى أحـبـة اليـوم هو الإسـلام،

فالإسلام جعلهم أصحاب رسالة يجتمعون على مبادئها، ويحملون لواءها، الكريم فيهم من جاهد في سبيل انتصارها بعد أن تمثلها في نفسه، وليست المسألة عنده مسألة قوم أو جنس ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤] وعندما يعرض أهل الإسلام عن هذا المنهج يكون مصيرهم مصير الذين أعرضوا عن هدي الله من قبل فكانت الفرقة وكان العذاب ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

إن الاستقامة على المنهج والثبات على الحق الذي جاءنا من عند ربنا، والاعتصام بالوحي المنزل، والاجتماع عليه، والقيام بحق الرسالة، جعل هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ومما يخلص النفوس من العصبية أن يعلم المسلمون أن رفعهم لراية العصبية يذلهم ويضعفهم، ويسلط عدوهم عليهم، وها هي الأحداث شاهدة على صدق ما نقول، فلم يكن المسلمون أذل وأهون مما هم عليه اليوم، ولم يصبنا ما أصابنا اليوم من قلة، بل نحن كثير، ولكننا كما وصف الرسول ﷺ غثاء كغثاء السيل، وها هي الأمم اجتمعت علينا اجتماع الأكلة على القصعة، ماذا فعل بنا التنادي بالقومية!! وماذا فعل بنا قيام الدول الضعيفة التي يتحكم بها أعداؤها!!

لقد هبت على العالم الإسلامي عبر تاريخه أعاصير هائلة، حاولت أن تجتث بنيانه من القواعد، ولكن عوامل القوة في البناء الإسلامي صمدت للأمواج العاتية، وتكسرت تلك الأمواج على شواطئه الصخرية الصلدة، لقد كان في بناء الإسلام من القوة ما جعله يصمد للحملات

الصليبية المتتالية على العالم الإسلامي، بل إن العالم الإسلامي لم يكتف بصد الهجمات، ولكنه غزا الغزاة في معاقلهم، وحول كثيرا منهم إلى مسلمين، وهذا ما فعلته تركيا بأوروبا، وهذا ما فعله المسلمون بالتتار.

إن الخلاص من العصبيات بشتى أشكالها التي أضعفت بناء الأمة الإسلامية لا يمكن أن يتحقق بغير البديل الإسلامي الذي يذهب بالعصبية ويحجمها، ويفجر طاقات الأمة لمقاومة العدو، وقد عقد ابن خلدون في مقدمته فصلا عنون له بقوله: «الفصل الخامس في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عدوها» والسبب في ذلك كما يقول ابن خلدون «إن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس».

فإذا فعل الإسلام فعله هذا في النفوس، وأذهب العصبية فإنه يفجر طاقات النفس البشرية، وعند ذلك لا يقف في وجهها شيء، يقول ابن خلدون «فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم، لم يقف لهم شيء، لأن الوجهة واحدة، والمطلوب متساو عندهم، وهم مستميتون عليه، وأهل الدولة التي هم طالبوها، وإن كانوا أضعافهم، فأغراضهم متباينة بالباطل، وتخاذلهم لتقية الموت حاصل، فلا يقاومونهم، وإن كانوا أكثر منهم، بل يغلبون عليهم، ويعاجلهم الفناء بما فيهم من الترف والذل كما قدمناه».

واحتج لصدق مقولته بانتصار المسلمين في حروبهم الأولى، وهذا كما وقع للعرب في صدر الإسلام في الفتوحات، فكانت جيوش المسلمين بالقادسية واليرموك بضعا وثلاثين ألفاً في كل معسكر، وجموع فارس مئة وعشرين ألفاً بالقادسية، وجموع هرقل على ما قاله الواقدي أربعمائة ألف، فلم يقف للعرب أحد من الجانبين، وهزموهم وغلبوهم على ما بأيديهم.

وضرب المثل على ذلك بما وقع في عصره، وفي ذلك يقول: «واعتبر ذلك أيضاً في دولة لمتونة ودولة الموحدين. فقد كان بالمغرب من القبائل كثير ممن يقاومهم في العدد والعصبية، أو يشفّ عليهم، إلا أن الاجتماع الديني ضاعف قوة عصبيتهم بالاستبصار والاستماتة كما قلناه، فلم يقف لهم شيء.

واعتبر ذلك إذا حالت صبغة الدين وفسدت، كيف ينتقض الأمر، ويصير الغلب على نسبة العصبية وحدها دون زيادة لدين، فتغلب الدولة من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها، أو الزائدة القوة عليها، الذين غلبتهم بمضاعفة الدين لقوتها، ولو كانوا أكثر عصبية منها وأشد بداوة.

واعتبر هذا في الموحدين مع زناته، لما كانت زناته أبدى من المصامدة، وأشد توحشاً، وكان للمصامدة الدعوة الدينية باتباع المهدي، فلبسوا صبغتها، وتضاعفت قوة عصبيتهم بها، فغلبوا على زناته أولاً، واستتبعوهم، وإن كانوا من حيث العصبية والبداوة أشد منهم، فلما خلوا عن تلك الصبغة الدينية، انتقضت عليهم زنانة من كل جانب، وغلبوهم على الأمر، وانتزعوه منهم، والله غالب على أمره».

ومن نظر اليوم إلى ما مر به أعداء الإسلام أصحاب القوميات، وسخروهم لمآربهم، يعلم حاجة المسلمين إلى الإسلام، كي يعصم المسلمين من الزلل، ويحفظ كيانهم، حتى لا يتلاعب بهم، ذكر ابن إسحق أن رجلا من اليهود مر بملأ من الأوس والخزرج فساءه ما هم عليه من الاتفاق والألفة، فبعث رجلاً معه، وأمره أن يجلس بينهم، ويذكرهم ما كان من حروبهم يوم بعاث، وتلك الحروب ففعل، فلم يزل ذلك دأبه، حتى حميت نفوس القوم، وغضب بعضهم على بعض، وتثاوروا، ونادوا بشعارهم، وطلبوا أسلحتهم، وتواعدوا الحرة، فبلغ ذلك النبي ﷺ فآتاهم فجعل يسكنهم، ويقول: (بدعوى الجاهلية وأنا

بين أظهركم) قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٠] فندموا على ما كان منهم واصطلحوا وتعانقوا وألقوا السلاح[١].

(١) تفسير ابن كثير: ٨٦/٢.

المحاضرة الثالثة عشرة

الأمان في تطبيق شريعة الرحمن

تقديم

الأمة الإسلامية بين الحاضر والماضي[1]

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ، قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ١ - ٢].

والصلاة والسلام على من بعثه ربّه رسولاً لهذه الأمة ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وعلى آله وصحبه، وعلى من اهتدى بهديه، واستن بسنته، وبعد:

فإن الأمة التي تستحق الحياة الكريمة هي التي تملك من الخصائص ما يجعلها تقاوم عوامل الفناء، وبذلك تستعصي على الذوبان، وهذه الأمة تملك من الخصائص ما لا تملكه أيُّ أمة أخرى، فكتاب الله وسنة رسوله عاصم لها من الفناء والزوال، أضف إلى ذلك تلك الفئة الخيرة التي تمثل الإسلام في كل جيل وعصر، لا تتركه ولو نشرت بالمناشير، وجرد لحمها دون عظمها امشاط الحديد.

وقد جرت على الأمة الإسلامية عبر تاريخها خطوب وأهوال تجاوزتها وخلصت منها بعد أن خلصت من العوامل التي أدت إلى هزيمتها وتأخرها، وتجري اليوم على الأمة الإسلامية خطوب وأهوال تحيط بالإسلام وأهله، ونحن مطالبون بأن نعود إلى كتاب ربنا وسنة

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة في (اسبوع الشريعة) الذي أقامته ودعت إليه جمعية الإصلاح الاجتماعي بدولة الكويت في مقرها في يوم الثلاثاء: ١١ من أكتوبر ١٩٩٤م.

نبينا لنتعرف على الأسباب التي أدت بهذه الأمة إلى هذا البلاء الذي يحيط بها، ويكاد يعصف بوجودها، ويزهق روحها.

إن آيات الكتاب تتدفق مذكرة لنا بتاريخنا، كيف تكونت أمتنا، وكيف علا منارها، وسطع نجمها، وأشرقت شمسها.

لقد كان الرعيلُ الأول من هذه الأمة فئة قليلة مستضعفة، يخافون أن يتخطفهم الناس، فآواهم ربهم وأيدهم بنصره ورزقهم من الطيبات ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٦].

ولقد كان هذا الإيواء الإلهي من القوي الجبار الغالب القاهر تحقيقاً لموعود الله لهذه الأمة متى آمنت وعملت الصالحات أن يستخلفها في الأرض، ويمكن لها دينها الذي ارتضى لها، ويبدل خوفها أمناً، بشرط أن تحقق العبودية لله الواحد الأحد ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

لقد كانت الأمة العربية قبل الإسلام قبائل متناحرة متباغضة متعادية، فألف الله بين قلوبهم بالإسلام، فأصبحوا بنعمة الله إخوانا ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

لقد ارتفع الرعيل الأول إلى مستوى متقدم من الرقي، لم يسبقهم إليه سابق، ولم يلحقهم فيه لاحق بفضل المستوى الإيماني المتقدم، وبفضل الأخذ بهذه الشريعة المباركة ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ

بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

نتذكر اليوم حال أسلافنا العظام والنعم التي سعدوا بها نعمة الإيواء الإلهي، وتأييد الله ونصره، ونعمة الإخوة القائمة على ألفة القلوب، ونعمة العزة والقوة - نتذكر ذلك كله ونحن نلعق جراحنا، ونرى النعم التي سادت أمتنا يوماً تبدلت وتغيرت، لقد عدنا إلى التعادي والتباغض والاقتتال من جديد، وحالت عزتنا ذلاً، وقوتنا ضعفاً، وما ربك بظلام للعبيد ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٥٣]. ﴿ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [البقرة: ٢١١]. إن الالتزام بالدين والنصر عند المسلمين قرينان، وإن التولي عن شريعة الله والهزيمة عندهم توأمان لا يفترقان، قدر كتبه الله على هذه الأمة، ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧] ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾ [محمد: ٣٨].

لا أمن للمسلمين بعيداً عن الشريعة الإلهية:

إنَّ قَدَرَنا أن ننعم في هذه الحياة بالأمن متى استقمنا على شريعة الله، وأن نحرمه ونفقده متى انحرف بنا المسار عن الله ومنهجه، وسنة الله في عباده أن الحياة لا تطيب لهم إذا فقدوا فيها الأمان، ولذلك فإنك ترى البشر يفرون من البلاد التي يفقد الأمن فيها إلى الديار التي تتمتع به تاركين أرضهم وديارهم وأموالهم.

إن الديار التي يفقد فيها الأمن تعدّ صحراء قاحلةً حرّى وإن كانت ذات جنات وارفة الظلال تجري من تحتها الأنهار، والبلاد التي تنعم

بالأمن تهدأ فيها النفوس، وتطمئن فيها القلوب، وإن كانت قاحلة جرداء ليس فيها من الغذاء ما يسدُّ الرمق، ومن الماء ما يروي الظمأ.

إن البلاد التي يفقد فيها الأمن كالسماء إذا فقدت نجومها، وكالأرض إذا زالت جبالها الراسيات، وكالسهول الخضراء إذا فقدت أنهارها وغارت عيونها، وذوى نباتها ويبست أشجارها.

ونحن اليوم ـ في هذا العالم المضطرب المتغير ـ أقدرُ من الأمم التي سبقتنا على معرفة قيمة الأمن، فحروب اليوم تحرق الأخضر واليابس، وتدمر المدن والقرى، وتدك البيوت فوق رؤوس أصحابها، وتحول الحياة إلى جحيم، ونحن في كل يوم نشاهد عبر الشاشة الصغيرة الكوارث التي سببتها الحروب في كل مكان، بل كثير منا عانى من هذا الدمار الذي يذهب العقول، ويذهل النفوس، ويرعب الكبار والصغار.

والله خالقنا وموجدنا يعلم مقدار حاجتنا إلى الأمن في هذه الأرض التي جعلها لنا وطناً وداراً وجهزها لتكون صالحة لحياتنا، وقد أخبرنا أن الأمن الأعظم يتحقق لنا إذا عشنا فوق هذه الأرض بالمنهج الذي رضيه لنا، وهو الدين الذي أنزله إلينا عبر رسله وكتبه، فإن حدنا عن منهجه حصل خلل واضطراب في التجمعات الإنسانية، يؤدي هذا الخلل إلى فساد وإفساد كما حدث للأمم من قبلنا عندما تركت شرعه ودينه، وحلَّ فيها الخصام محل الوئام، وزرعت في نفوس أهلها البغضاء بعد أن كانت تظللها المحبة والألفة والإخاء ﴿ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [المائدة: ١٤].

والخلل الذي يفقدنا الأمن في حال تمردنا على شريعة الله لا يتوقف على الثمار المرة التي ينتجها اختلافنا واقتتالنا، بل يتعداه إلى إفساد للكون الذي نعيش فيه ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١].

تأثير أعمالنا وأفعالنا في الكون الذي نعيش فيه:

إن هناك ارتباطاً هائلاً بين أفعالنا وأقوالنا وبين هذا الكون الذي نعيش فيه، فإذا صلحت نفوسنا وقلوبنا ومجتمعاتنا، بإن حقق العباد العبودية لرب العباد، واستقاموا على دينه ومنهجه، وأقاموا شريعته، فإن الله يفتح للعباد كنوز رحمته، وينزل عليهم بركات السماء، ويخرج لهم خيرات الأرض، وهذا قانون عام في الأمم كلها، فقد قال نوح لقومه في شكواه لربه ظلم قومه وكفرهم: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ، وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

وقال الله في اليهود والنصارى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦]. وقال هود لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

وقال الله في المعذبين من أهل القرى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال الله مخاطباً هذه الأمة: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ، أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ، وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ١ - ٣].

والقاعدة العامة التي هي سنة من سنن الله في عباده تضمنها قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ

أجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

وقد قال الله لأبينا آدم عندما أهبطه من الجنة، غبَّ معصيته بأكله من الشجرة: ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ، قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٦].

إن هذه النصوص التي سقناها ومثلها كثير في كتاب الله تعرفنا بأن الاستقامة على منهج الله وشرعه لا يعطينا الحياة الآخروية السعيدة في جنات النعيم فحسب، بل ويعطينا الحياة الطيبة في الحياة الدنيا.

التمرد على الله يوجب العقاب الدنيوي:

وإذا نحن تمردنا على أمر ربنا ونبذنا شرعه، فإننا نغضب ربنا، وإذا غضب علينا حلت بنا الكوارث العظام، وأغضب الله علينا الكون، وبذلك تدمرنا كوارثه وزلازله وبراكينه وفيضاناته، وقد حدثنا ربنا عن الذين كذبوا شرعه، وعصوا رسله وما فعل بهم ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

إن العذاب يحل بالظالمين أحياناً وهم نائمون في ظلمة الليل، وأحياناً وهم يلعبون في وضح النهار ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ، أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ، أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٧ - ٩٩].

لقد نزل العذاب بالمتمردين على شرع الله قاصماً شديداً، فحاولوا

الفرار، ولكن أين المهرب من عذاب الله ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ، فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ، لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ، قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ، فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ١١ – ١٥].

وها هي آثار الأقوام المعذبين الذين نبذوا شريعة ربهم، وتمردوا على دينه ووحيه في مختلف جنبات الأرض تقف شاهدة للذكرى والعبرة: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ [الحج: ٤٥].

غاية الشريعة المباركة:

لقد أنزل الله لنا شريعة مباركة هي خير الشرائع وأكملها، ليقيم العباد على منهج العبودية الحقة لله رب العالمين، وجعلها الله خاتمة الشرائع صالحة لتحكم المجتمع الإسلامي مهما اتسع وامتد، ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

ونعم المسلمون في ظل هذه الشريعة المباركة عصوراً متتالية، وقد عصم الله الأمة الإسلامية بهذه الشريعة من أن تضل في مسارها، كماحفظ الله بهذه الشريعة على الأمة الإسلامية دينها وعقيدتها وعقولها ونفوسها وأعراضها وأموالها، وحفظ بهذه الشريعة الضعفاء من ظلم الأقوياء، والمحكومين من استبداد الحكام، والفقراء من حيف الأغنياء، وأصبحنا بهذه الشريعة عندما استقمنا عليها خير أمة أخرجت للناس، وقادة لركب البشرية إلى الخير والرشاد، كما أصبحنا في موقع الصدارة نقف من البشر موقف المعلم من التلاميذ.

استمرار الشريعة حاكمة ديار المسلمين عبر القرون:

وقد حاول كثير من المسلمين حكاماً ومحكومين عبر القرون أن يتفلتوا من شريعتهم، ولكن كان في الأمة رجال يعيدونها إلى الرشد والصواب، ويقيمونها على أمر الله، وبقي المسلمون على مدار ثلاثة عشر قرناً ليس لهم قانون يحكمهم غير القانون الإسلامي وغير الشريعة الإسلامية، وإن وقع ثلم في تطبيق بعض أحكام الشريعة خاصة في مسائل الحكم ومسائل الأموال، إلا أن الخط العام والإطار العام كان التحاكم إلى شرع الله وحكمه.

مؤامرات الأعداء لصرف المسلمين عن دينهم:

وبقي الحال إلى ما قبل قرن من الزمان، فقد تنبه أعداؤنا إلى أن استمساك المسلمين بدينهم وشريعتهم سرُّ قوتهم، وسبب تماسكهم، فوضعوا مخططاً يهدف إلى اغتيال عقيدة المسلمين من جانب، وإقصاء الشريعة الإسلامية من حياة المسلمين من جانب آخر.

ومنذ وقت طويل وأعداء الإسلام يفتلون لنا في الذروة والغارب ليقصونا عن ديننا وعقيدتنا، وقد راجعنا كثيراً من مخططات أعداء الإسلام التي وضعوها في الماضي، وبذلوا جهوداً هائلة لتنفيذها، فوجدناهم قد بذلوا الكثير الكثير من أجل إقناع حكامنا وشبابنا ورجالنا ونسائنا بأن سبب تأخرنا وهزائمنا هو ديننا وشريعتنا، وأنه لا غنى لنا إن أردنا أن نتقدم ونتحضر، ونأخذ بأسباب الرقي من نبذ الشريعة، وعلينا إن أردنا العزة والكرامة أن نأخذ أنفسنا بما أخذ الغرب به نفسه من إقصاء الدين عن الحياة، وبذل الغرب جهوداً متواصلة وكثيرة حتى غرس هذه الفكرة في نفوس أبناء المسلمين، وربى جيلاً في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، أخذ هذا الجيل يهدم معاقل الإسلام ويدمر

حصونه، وينسف الأسوار الحامية للإسلام وأهله، وأخذت القلاع تسقط واحدة واحدة، وكان المخدوعون من هذه الأمة يصفقون ويفرحون ويطربون، وهم يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي أعدائهم، ظانين أنهم يبنون الأمجاد، ويقيمون صروح العزة والكرامة.

ماذا فعلنا بأنفسنا وماذا فعل أعداؤنا بنا:

لقد انهارت الخلافة العثمانية في الربع الأول من القرن العشرين، وتمزقت البقية الباقية من الأمة الإسلامية، فأصبحت دولاً، احتلت أراضيها، وديست كرامتها، ودمر اقتصادها، وأفسد التعليم فيها، وأقصيت شريعتها عن الحكم، ومكن في الحكم للرجال الذين رضعوا ثقافة الغرب وتغذوا بلبانه، وأصبح حمى المسلمين مستباحاً لكل دخيل، ولكل منافق عليم اللسان، وجرت علينا خطوب في مشارق العالم الإسلامي ومغاربه كنا فيها أضيعَ من الأيتام على مأدبة اللئام، وتداعت علينا الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، وما كان ذلك من قلة، ولكننا كما يقول الرسول ﷺ غثاء كغثاء السيل، زرع في قلوبنا الوهن: حب الدنيا، وكراهية الموت.

وكان نتاجُ هذه الجولة اقصاءَ الشريعة في ديار الإسلام عن الحكم، وإحلالَ القوانين الوضعية محل الشريعة الإسلامية، وكانت الثمار المرة لذلك كلِّه هذا الضياع الذي نعيشه والذي يلف العالم الإسلامي بأسره.

لقد زال العاصم الذي يحمي ديار الإسلام، وزالت المعاقل والحصون، فتلاعب بنا أعداؤنا كما يتلاعب الصبيان بالكرة، إن الفرقة والتشتت الذي أصابنا بعد زوال دولة الخلافة وإقصاء الشريعة أضعفت قوتنا وأذهبت ريحنا، فاستطال علينا أعداؤنا، فلا نستطيع حماية أنفسنا، إذ كيف تواجه دولة تعدادها مئات من الألوف أو بضعة ملايين أو

عشرات من الملايين دولاً كبرى تملك من السلاح ما يملأ البر والبحر والجو.

وزرع أعداؤنا فينا الفرقة والبغضاء، فأصبح بأسنا بيننا شديداً، فتقاتلنا وتناحرنا، ودمر بعضنا بعضاً، وسفك بعضنا دم بعض وأعداؤنا علينا يتفرجون.

تمكين القوانين الوضعية للفساد والمفسدين:

وجاءت القوانين الغربية لتمكن للفساد والإفساد في ديار المسلمين، لقد أفسحت هذه القوانين المجال للجريمة كي تطل برأسها، وتضرب بجذورها إلى الأرض، لقد انتشرت الفواحش في ديار المسلمين، وانتشر شرب الخمر والمخدرات، لقد انتشرت الفواحش في ديار المسلمين، وانتشر شرب الخمر والمخدرات، وجرائم الزنا وهتك العرض، إن القوانين الوضعية في ديار المسلمين وضعت لمجتمعات غير إسلامية، تتسم تلك المجتمعات بالانحلال وتمجيد الفاحشة والولوغ في الرذيلة، مجتمعات تجهض الأجنة، وتهلك الحرث والنسل، بينما هي تهتم بتربية الكلاب.

إن القوانين الوضعية أذنت للمنافقين وأصحاب النفوس المريضة أن ينشروا الفاحشة في ديار المسلمين، كما أذنت لهم أن يلغوا في أعراض المسلمين، وقد بلغ الأمر بأصحاب هذه النفوس أن ينزلوا في بعض البلاد إلى الأسواق لينزعوا بالقوة الحجاب من فوق رؤوس المحجبات، كما بلغ الأمر بالقوى السياسية الحاكمة في بعض البلاد الإسلامية ـ ولا أقول الغربية ـ إلى منع المحجبات من دخول المدارس والجامعات.

وأباحت القوانين الربا، فألجأنا أعداؤنا إلى الاستدانة بالربا، ونحن غير محتاجين إليه في كثير من الأحيان، وأوقعونا في دوامة من

المشكلات التي ألجأتنا إلى الاستدانة، كل ذلك كي يصبح مال الربا بعد ذلك أكبر أداة عرفتها البشرية لامتصاص دماء الشعوب، لقد استطاعوا بواسطة الربا أن يمتصوا خيراتنا، ويجعلونا نعمل ونعمل ونعمل، ولا يستطيع بعد ذلك الدخل القومي كله سداد الديون وفوائدها.

لقد أصبحت الديون عملاقاً ضخماً هائلاً يأكل لقمة عيشنا، ويميت أطفال الدول الفقيرة، ويزيد فقراءها فقراً، لقد استطاع المرابون أن يحولوا العالم اليوم إلى مزرعة الكل يعمل فيها لصالح المرابين.

وأقام المرابون أصحاب المال مؤسسات ضخمة تقوم عليها الدول القوية كالبنك الدولي لتحافظ على أموال المرابين، وتجبر الدول البائسة الفقيرة على أن تدفع عصارة كدها وتعبها للمرابين، لقد جرت القنوات الضخمة بسبب الربا تحمل الأموال من كل أنحاء العالم إلى برك المرابين، وأصبح المال دولة بين الأغنياء، على المستوى العالمي، وحرم منه الغالبية العظمى من البشر.

وكان ثالثةُ الأثافي والطامة الكبرى تآمرُ أعدائنا علينا عندما تركنا الجهاد ذروة سنام الإسلام، فجاؤونا بأعدى أعدائنا وأبغض خلق الله إلى الله فأقاموا لهم في أرض الإسراء دولة أذلت هذه الأمة وقهرتها وأخضعتها لسيادتها، ولم تعمل على اغتيال أهل الأرض المباركة في أنفسهم ودينهم وعقيدتهم ومقدساتهم فحسب، ولكنها تمدُّ أذرعها اليوم لاغتيال الأمة الإسلامية بأجمعها لتقيم على أشلاء هذه الأمة التي تركت الجهاد، ونسيت الاستشهاد دولة كبرى لأعداء الله وأعداء هذه الأمة.

وثارت الصليبية من جديد لتقيم حرباً طاحنة لأمة الإسلام، سالت فيها دماء المسلمين أنهاراً، وما أخبار المسلمين في البوسنة والهرسك والشيشان بسر، ووقفت الدول الكبرى تتفرج على مصارع المسلمين، ولولا خشيتهم من أن يثور المسلمون لبقيت رحى الحرب دائرة أمداً طويلاً.

مقاومة الأخيار لتيار الفساد:

إن المسلمين فيهم بقية خير، فدينهم محفوظ، وفيهم طائفة لا تزال تفقه الحق وتعمل به، وتقيم حجة الله على خلقه، وقد وقف هؤلاء في وجه التيار، وأسمعوا أصواتهم للمسلمين من على المنابر، وفي الجامعات ومراكز البحث العلمي، ووقفوا في البرلمانات، وكتبوا في الصحف والمجلات، وقد واجهوا عبر ذلك مسلسلات لا تنتهي من التعذيب والتشريد والسجن والقتل والحرق والأذى، لقد هاجم الأخيار من هذه الأمة القوانين الوضعية، وبينوا ما فيها من ثغرات، وما جاءت به من مصائب وبلايا، وعقدت من أجل ذلك المؤتمرات والندوات، وأصبح صوت المنادين بالعودة إلى الشريعة الإسلامية اليوم عالياً، يهز الأمة هزاً عنيفاً، ليقيمها من رقدتها، ويبصرها بحقيقة أمرها، ويعيدها إلى صراط الله المستقيم.

ولو تركت الأمة الإسلامية اليوم لتحكم نفسها بنفسها لما رضيت بشريعة الله بديلاً، ولا قبلت عنها تحويلا، ولكن جور الحكام، ومؤامرات أعداء الإسلام، كل ذلك يمنع الأمة من تطبيق شريعة ربها، والعودة إلى الأصالة التي تتصف بها هذه الشريعة.

وقد آن الأوان للذين يزورون بدين الله وشرعه أن يدركوا أن الإسلام قادم، وأن شريعة الله لا يمكن أن يطفىء نورها من لا يريدون لها الحياة، فالشريعة الإسلامية كالشمس العالية لا تستطيع الأفواه الضعيفة أن تطفىء نورها ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾ [التوبة: ٣٢].

وفي الختام، فإنني أخاطب الذين يزوِّرون بشريعة الله، ويأبون الأخذ بدين الله بما خاطبهم الله به في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا

ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ، وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ، وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ، أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ، إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٤٧ - ٥٢].

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من المفلحين الطائعين الفائزين والحمد لله رب العالمين.

المحاضرة الرابعة عشرة

أضواء على منهج التغيير

تقديم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فإن الباحثين اليوم أولعوا في الحديث عن المنهج فيما يعرضون له من دراسات في مختلف الموضوعات، ومن ذلك الحديث عن منهج التغيير للواقع السيء التي تتردى فيه الأمة الإسلامية.

وقد تنوعت رياح التغيير التي تهب على هذه الأمة من الداخل والخارج، وتصادمت هذه الرياح، ووضع كل أصحاب توجه منهجاً زعم أن فيه تخليصاً للأمة من بلائها.

وكانت الرياح الإسلامية واحدة من الرياح التي هبت قوية هادفة التغيير والإصلاح، واختلف المنادون من أصحاب هذا التوجه في المنهج أيضاً، حتى زعم بعضهم أن المنهج يحتاج إلى اختراع وابتداع وأطلقوا على المنهج الذي اخترعوه اسم التجديد.

والذي نظنه صواباً أن المنهج لا يحتاج إلى اختراع وابتداع، بل يحتاج إلى فقه واستيعاب، بل نذهب إلى أبعد من هذا، فالإسلام كما نراه منهج تغيير كامل، والمنهجية فيه واضحة لا تنكر، وليس التجديد في الإسلام اختراعاً لمنهج، وإنما هو إحياء للإسلام في النفوس وفق مقتضيات العصر، وبعث الإيمان من جديد حيّاً نابضاً بعد أن خبا نوره، وانمحى مناره.

وإذا أنت نظرت في معنى المنهج في لغة العرب، ورأيت أنه يعني الطريقة الواضحة التي اختطها مبدعها، بحيث تصبح مسلكاً له، يمتاز بها

عن غيره، ويتابعه الناس فيها، بحيث يسلكون فيها مسلكه، ويسيرون مساره، على النحو الذي أوضحه ذلك المختط للطريق والسالك الأول له، وأقرب مثال على ذلك ما وضعه دعاة الشيوعية اليوم، وما ابتدعه مزدك وبوذا وغيرهم من قبل.

وإذا أضيف المنهج إلى الله فإنه يراد به الطريق الواضحة التي اختطها الله لعباده كي يسلكوها دون سواها، والطريق الذي شرعه الله لعباده هو الدين الذي أنزله على رسله وأنبيائه، وهو دين واحد، وملة واحدة، لا دين غيره، وهو الإسلام ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]. ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وهذا التعريف على النحو الذي أوجزناه للمنهج قد يكون مفرق طريق للباحثين في مسار التغيير، فإن الدين الذي أنزله الله لعباده على مدار العصور ليس نتفاً من العلوم والعبر والعظات، ولكنه يشكل منهج حياة، ولو شئت أن تبحث عن معنى دقيق لكلمة دين لرأيت أن أقرب ما يُفسر به هو المنهج الذي يصوغ حياة الفرد والأمة، ولكنه ملحوظ فيه معنى الدينونة، وهو الطاعة والحساب، فالمنهج الإلهي الرباني هو الدين الذي أنزله، وإنما كان منهجاً لأن العبد يخضع ويذل فيه للواحد الأحد، وهو محاسب على مدى خضوعه لله ربه وفق منهجه.

وهذا الفقه للدين والمنهج يقودنا إلى معلم كبير في منهج التغيير، وهو التوجه إلى الإسلام لفقه المنهج الذي جاءنا من عند الله، بل الفقه لكيفية كونه منهجا للحياة، فنحن مطالبون بفقه علوم الإسلام، ومطالبون بفقه المنهج الإلهي الرباني الذي يصوغ الفرد والأمة.

إن الذين يظنون أنهم بحاجة إلى اختراع المنهج الذي يصلح أمتنا ويخلصها مما ارتكست فيه، ويجنبها الحيرة والشقوة والضياع مخطئون.

لقد علم الله ضعف الإنسان وكثرة جهله وقلة علمه، فأرسل له عبر

التاريخ من يحمل له مشاعل الهداية، أولئك الرسل الكرام والأنبياء العظام الذين يهدون الناس بأنوار الوحي، ويدلون الناس على الهدف الكبير الذي يجب أن يعرفوه ويقصدوه، عليهم أن يعرفوا ربهم ويعبدوه دون سواه، وعليهم أن يحققوا العبودية لله رب العالمين، هذا هو الهدف، وذاك هو المقصد، وقد بين لهم الطريقة التي يحققون بها العبودية لله الواحد الأحد الفرد الصمد، وجاءت الكتب السماوية تفيض في تعريف الناس بربهم، وتصفه لهم، وتدل الناس على أسمائه وصفاته وأفعاله، وتبين لهم الطريق الذي يوصلهم به.

وتتابع الرسل على مدار التاريخ الإنساني يحملون راية واحدة، ويمثلون أمة واحدة، فالرسل والأنبياء وأتباعهم منذ فجر التاريخ وإلى أن ينتهي الوجود الإنساني فوق ظهر هذه الأرض أمة واحدة، وقد صرح القرآن بهذه الحقيقة في أكثر من موضع، ففي سورة الأنبياء ذكر الله طرفاً من دعوات بعض رسله وأنبيائه منهم إبراهيم وإسحق ويعقوب ولوط ونوح وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذو الكفل وذو النون وزكريا كما ذكر أم عيسى معهم، وعقب على ذكرهم وما ذكره عنهم بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وفي سورة (المؤمنون) ذكر الله إرسال عبده نوح، وما جاء قومه به وما جرى له مع قومه، وكيف دمرهم الله بكفرهم بالله وتكذيب رسولهم، وكيف أرسل على أثره رسولاً آخر دعوته دعوة نوح، وكيف دمر قومه تدمير قوم نوح لسيرهم مسارهم، ثم أجمل الله ذكر ما أنشأه من أمم وما أرسله من رسل ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ، مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ، ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٢ - ٤٤]. ثم ذكر موسى وهارون وعيسى، وعقب على ذلك بقوله: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ

أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُون﴾ [المؤمنون: ٥٢].

إن الرسل والأنبياء وأتباعهم على الرغم من اختلاف العصور التي عاشوا فيها يمثلون أمة واحدة، لأنهم يدعون بدعوة واحدة، هي التوجه إلى الإله الواحد الحق الذي خلقهم فيعرفونه ويؤمنون به ويدينون له، وهذا الأصل العظيم متى حققوه بناهم بناء نفسياً وعقدياً وأخلاقياً واحداً، حتى لو قدر لهم أن يجتمعوا على الرغم من اختلاف عصورهم لرأيتهم يعرف بعضهم بعضاً، فلا ينكرون ما يرونه، ولا يخفى عليهم التوجه والحال (الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف).

إن عقيدة التوحيد تصوغ البشر صياغة مذهلة فتوحد عقولها وقلوبها ونفوسها ووجهتها، ويخرج البشر من إطار الأمة الواحدة التي أخبر عنها القرآن عندما تضل عن الوجهة الواحدة، وتعبد من دون الله أولياء، عند ذلك تتقاطع وتتدابر وتختلف وتتناكر وتصبح فرقاً ومزقا، ولذا فإن الحق بعد أن قرر في سورة الأنبياء أن الأنبياء وأتباعهم أمة واحدة عقب على ذلك مخبراً عن الذين حادوا عن منهج الأنبياء وضلوا عن الوجهة الصحيحة، وعبدوا من دون الله أولياء بقوله ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٣] وعقب في سورة المؤمنون بقوله: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣].

إن دعوة الرسل دعوة واحدة، جعلتهم هذه الدعوة أمة واحدة، وقد صرح القرآن بأن كل الرسل والأنبياء جاؤوا بهذه الدعوة الواحدة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وكل ما أوحاه الله إلى رسله وأنبيائه فإن خلاصته وعصارته وحقيقته هو العبودية لله الواحد الأحد وتوحيده ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ

وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٨]. كل ما أوحاه الله إلى رسوله ﷺ يتمثل في هذه الكلمات ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الأنبياء: ١٠٨].

إن الله والى إرسال رسله وأنبيائه ليرد البشر الضائعين الضالين الحائرين في صحارى الباطل إلى درب الحق وجادة الصواب التي سار عليها نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء، إن البشر مهما حققوا من الرقي المادي والترف الحياتي ضالون ضائعون، يعيشون فرقاً ممزقين إن لم يحكموا أمرهم كله بدعوة الحق التي أنزلها الله على خاتم رسله وضمنها كتابه الخاتم.

إن الدعوات التي تدعو إلى التغيير والتبديل في دنيا البشر تنتهي بالشقوة والضنك وترمي الناس في الهاوية إن لم تحكم بالمنهج والمسار الذي جاء به الإسلام.

رياح التغيير التي تهب على الأمة الإسلامية:

يكاد الباحثون في حال الأمة الإسلامية على اختلاف مشاربهم يجمعون على أن الأمة الإسلامية في حالة سيئة، ويجمعون على أن لا بدَّ من إصلاح الحالة المتردية التي تعيشها الأمة، بحيث يتغير هذا الواقع كي تتمكن الأمة من النهوض، ونحن نرى رياح التغيير التي تهب على الأمة الإسلامية، وتختلف هذه الرياح باختلاف المصدر والاتجاه التي تهب منه، **وأظن أنه يمكن تصنيف هذه الرياح إلى ثلاثة أصناف:**

الأول: الرياح الوافدة من وراء البحار، وهي رياح قوية عاتية، تحيط بنا من كل حدب وصوب، تريد تغيير كل شيء: العقيدة المستكنة في قلوبنا، وبقية الشريعة التي تؤثر في سلوكنا، وتحكم مجتمعاتنا، كما تريد استقطاب شبابنا ورجالنا ونسائنا، واستلاب ثقافتنا، إنها رياح قوية لينة الملمس، ولكنها تحمل إلينا الدمار، مثلها كمثل ريح فيها صر،

تحمل الرمال والحصى وشواظاً من نار يكوي وجوهنا وقلوبنا.

وقد زاد من عتو هذه الرياح أن لها أقواماً من بني جلدتنا يفتحون لها أبواب بيوتنا وجامعاتنا ومعاهدنا، ويزكونها عند الناشئة من المسلمين.

هذه الرياح تفد إلينا عبر الإذاعة والتلفاز والأقمار الصناعية، وعبر المجلة والجريدة، والكتاب، وعبر رجال الفكر من الوافدين أو أبناء المسلمين الذين رضوا بها، ورضعوا ألبانها، هذه الرياح هي رياح التغريب الوافدة، التي تزين الحضارة الغربية والسلوك الغربي والقيم الغربية والقذارة الغربية، إنها حضارة الغالب في وجه حضارة المغلوب.

وأحد المعالم البارزة في نهج هؤلاء محاولة تمييع هذا الدين بما يسمى بالدعوات التي تقارب بين الأديان والمذاهب. وإن الدعوات التي تريدنا أن نمزج مبادئنا الإسلامية باليهودية والنصرانية والعلمانية والقومية وغيرها من الدعوات هي من رياح التغيير القاتلة المدمرة التي تريد هدم الإسلام وتأخير النهضة الإسلامية.

إننا نقول لكل هؤلاء الذين تحدثنا عنهم لا بديل عن الإسلام ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ونقول لهم: إن النهضة بدون الإسلام ستؤدي إلى الهزيمة والخذلان، وقد وعدنا الله العزة والنصر بالإسلام وحده ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الفتح: ٢٨]. فما جاء به الرسول هو الهدى وهو الدين الحق، وهو المنهج الحق، وهو سبيل النصر والغلب والرفعة، والعلو والنهوض على كل الأديان والمذاهب والقوى ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

الثاني: رياح التغيير التي تهب علينا من داخل ديار المسلمين، وعلى

الرغم من أنها تهب من ديار الإسلام، فإنها ترفض ديننا وعقيدتنا، وتريد أن تغير واقع الأمة بمناهج تحاد الإسلام وتضاده، إنها تريد التغيير بفلسفات ونظريات ومناهج أنشأتها عقول البشر كالقومية والبعثية.

وقد ذقنا من بلاء مناهج هذه الدعوات الشيء الكثير، ووعدنا أصحاب هذه المناهج بالعز والغلب وصلاح الأحوال، ولكن الأمور ازدادت سوءاً، وحل بنا مزيد من الدمار والخراب في ظل هذه الدعوات المنحرفة، والنظريات المزيفة.

إن هذين اللونين من الرياح يجمعها مسار واحد، أنهما مضادان محادان لله ورسوله، معارضان لهذا الدين، ومن هنا فإنا نعدُّ هذه الرياح رياحاً بوراً كريح عاد، التي حملت الموت والخراب، ولم تحمل الخير والمطر، ولذا فقد قاوم أهل الرأي من هذه الأمة هذه الرياح بكل ما أوتوا من قوة ولا يزالون.

وهذه الدعوات تتلون بين الفينة والفينة لمزيد من الاضلال، فقد تكون صريحة كالدعوات التي حملها المبشرون والمستشرقون التي تدعونا إلى ترك ديننا والتي تغرس في أبنائنا الشكوك والأوهام تجاه الإسلام، وقد تختفي وراء دعوات التقارب بين الأديان ودعوات التحضر والتثقيف.

الثالث: وهؤلاء هم أصحاب التوجه الإسلامي الذين يبذلون جهودهم لتغيير واقع أمتهم، وهؤلاء جموع كثيرة منتشرة على الساحة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، وهم فيما بينهم مختلفون في المنهج الذي يحقق الهدف الذي قاموا من أجله، فمنهم الذي اختار التغيير بالقوة، فتوجه إلى تصفية الذين يمسكون بزمام الأمور في الدولة التي يعيش فيها، وقد يحكم بعض هؤلاء على من لا يرضى ما هم عليه من مكر ورأي فيستبيحون دمه، وقد جرت خطوب وأهوال في كثير من ديار

الإسلام بسبب هذا التوجه.

وذهب بعض أهل الرأي إلى أن علاج الأمة يتحقق بتكوين بعض الجمعيات الخيرية والمؤسسات الفكرية، فمثلاً وحيد الدين خان ذهب في كتابه «الإسلام والعصر الحديث» إلى أن علاج الأمة الإسلامية يكمن في ثورة فكرية تسبق الثورة التشريعية، وقزم الثورة الفكرية التي يدعو إلى تحقيقها في إنشاء مركز إسلامي متقدم، وفي ذلك يقول: «في حالتنا الراهنة نرى أنه ينبغي بدء إحياء الإسلام في أحسن صوره العملية بأن نقيم مركزاً إسلامياً على نطاق عظيم، ويكون هذا المركز مجهزاً بجميع الوسائل العصرية لنشر الأفكار، حتى يصبح هذا مصدر الطاقة المعجزة للحركة الإسلامية العالمية بحيث يكون هذا المركز الإسلامياً عالمياً وعصرياً في نفس الوقت»(1).

أنا لا أنكر على وحيد الدين ولا الذين لفوا لفه واقتنفوا أثره محاولة سد الفراغ في جانب من جوانب حياة الأمة كالمراكز الإسلامية، والجمعيات والمؤسسات، ولكن الذي ننكره أن يكون هذا الذي دعوا إليه يشكل منهجاً لبناء الأمة.

وذهبت جماعة من الجماعات التي تعمل للنهوض بالأمة الإسلامية إلى أن النهضة الصحيحة هي الارتفاع الفكري، على الأساس الروحي، فإذا وجدت الأفكار وجدت النهضة، وإذا عدمت الأفكار كان الانحطاط، فإن الأفكار في أية أمة من الأمم هي أعظم ثروة تنالها الأمة في حياتها وإن كانت الأمة ناشئة، وأعظم هبة يتسلمها الجيل من سلفه إذا كانت الأمة عريقة في الفكر، وإذا دمرت ثروة الأمة المادية، فسرعان ما يمكن تجديدها ما دامت الأمة محتفظة بثروتها الفكرية، أما إذا تداعت ثروة الأمة الفكرية، وظلت الأمة محتفظة بثروتها المادية

---

(1) الإسلام يتحدى، ص ٥٥، المختار الإسلامي للطباعة والنشر، القاهرة، الأولى ١٣٩٦ هـ ١٩٧٦م.

فسرعان ما تتضاءل هذه الثروة، وترتد الأمة إلى حالة الفقر».

وقد أقام المنادون بهذه النظرية بناءً ضخماً شكلوا على أساسها منهجاً كبيراً بنوا عليه طريقتهم في احياء الأمة الإسلامية، وجعلوا الثقة بأفكار الإسلام طريق التحرير، وقرروا أن الضعف الفكري سبب لانهيار الدولة، وجعلوا الفكر طريق إعادة الدولة الإسلامية، وجعلوا الجدل مرحلة من مراحل نشوء تجمعهم، ودعوا إلى الإنقلاب الفكري، وأطلق على القيادة التي تحمل هذا النهج اسم «القيادة الفكرية في الإسلام» وقرروا أن الرسول ﷺ بلغ دعوته بالصراع الفكري.

لقد أدى هذا النهج عند أصحابه إلى ضمور الجانب الروحي والأشواق الروحية والتفاعل الإيماني الداخلي، ولذا فإنك ترى هؤلاء القوم يسهرون الليالي في تداول الفكر وتدارسه، والحوار حوله والجدل به، ولكنهم لا يعنون بالعبادة والذكر والدعاء والصلة بالله، واستمع إلى مؤسس هذا التوجه يقول: «الإسلام يرى أن الأشياء التي يدركها الحس هي أشياء مادية، والناحية الروحية هي كونها مخلوقة لخالق، والروح هي إدراك الإنسان صلته بالله، وعلى ذلك لا توجد ناحية روحية منفصلة عن الناحية المادية، ولا توجد في الإنسان أشواق روحية ونزعات جسدية، بل الإنسان فيه حاجات عضوية لا بدَّ من إشباعها، ومن الغرائز غريزة التدين التي هي الاحتياج إلى الخالق المدبر الناشيء عن العجز الطبيعي في تكوين الإنسان، واشباع هذه الغرائز لا يسمى ناحية روحية ولا ناحية مادية، وإنما هي إشباع فقط».

إن هذا النهج بدل أن يقيم الأمة من عثارها شغلها بالجدل، وبدل أن يعمل هؤلاء الذين نحسن الظن بهم لبناء الإنسان بمنهج الله عبادة وسلوكاً وتربية روحية ليمثلوا المنهج الإسلامي الرباني أغرقونا بجدل عقيم يصدع الرؤوس، وتمله الأسماع.

وذهب بعض الذين يتصدون لمشكلات الأمة ممن نحسن الظن بهم إلى أن المنهج الذي يغير أحوالها ويرقى بها يحتاج إلى اختراع واكتشاف، وأن مهمة أصحاب العقول استقراء تاريخ البشرية، والنظر في ثمار عقول الفلاسفة والمفكرين والمصلحين كي يستلهموا المنهج، وهؤلاء لهم بصمات واضحة في هذا المسار، وقد يظن هؤلاء أن هذا الذي يقومون به هو التجديد الذي تحتاجه الأمة الإسلامية، والذي أخبر الرسول ﷺ أنه يبعث للأمة من يقوم به على رأس كل قرن.

ونحن نختلف مع هؤلاء أصحاب النوايا الطيبة اختلافاً كبيراً، فإننا نرى أن المنهج لا يحتاج إلى اكتشاف، ولكنه يحتاج إلى التعرف إليه، هم يقولون: المنهج غير موجود يحتاج إلى وضع، ونحن نقول: هو موجود يحتاج إلى فقه، كما يحتاج إلى رفع الركام عنه، وازاحة ما تلبس به من زيف.

نحن نقول: إن الإسلام هو المنهج كما أنه هو التعاليم والشريعة، فمحال أن يكون الكتاب الذي أنزله الله تفصيلاً لكل شيء عالج كل ما يحتاج إليه البشر صغيره وكبيره، ثم هو يترك تفصيل المنهج الذي يقيم بناء الأمة، ويبقيها في الصدارة، ويعيدها إلى ما كانت عليه إذا انحدرت يوماً عنه.

لقد أثبت هذا الدين أنه هو المنهج الحق عندما صنع ذلك الجيل الفريد الذي وصفه الله بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وما دام الدين وضعاً إلهياً جاء لإصلاح الإنسان، فإنه يضم في إطاره منهج التقويم والإصلاح، بل إنني أزعم أن لا أحق بمصطلح المنهج من الدين الذي جاءنا من عند الله عز وجل، ولم يعان الرسل والأنبياء فمن بعدهم كما لم يعان المصلحون من هذه الأمة من عدم وجود المنهج، ولكن الذي عانوا منه

الضياع عن المنهج، ومزاحمة المناهج الباطلة للمنهج الحق، فالدعوة التي يجب أن ترتفع رايتها، هي العودة إلى المنهج الأصيل الذي قرره الإسلام، ونبذ المناهج الباطلة التي تلبست به، وليس اختراع منهج جديد، يعيدنا إلى متاهة أخرى.

وأنا لا أخالف في أننا نحتاج إلى التعرف على النهج والعلم به، فالعلم بداية الأمر وأوله، وإنما يأتى العاملون في الحقل الإسلامي من القصور في إدراك ما أنزل الله إلينا، وأي داء أشد على الإنسان من الجهل.

وأصل الأصول في بناء المنهج أن ندرك المحور الذي يقوم عليه البناء كله؛ وقد أجهد الرواد في عالم الغرب والدول التي تدعي التقدم أنفسهم في وضع محور يكون أساس التربية والتشريع في حياة أمتهم، وتتصل بهذا المحور كل مناحي الحياة، وقد أسلفت في هذه المحاضرة كيف كان توحيد الله علماً ومعرفة وعملاً وسلوكاً هو محور الإسلام كله، ومحور التربية والتشريع ومحور حياة الفرد والمجتمع، وأن هذا المبدء هو خلاصة التعاليم الإلهية التي جاءت بها الرسل وتضمنتها الكتب.

وأزيد الأمر وضوحاً وأقول إن الجانب العقدي في المنهج القرآني النبوي موصول بالجانب العملي، فليس مقطوعاً عنه، ولا معزولاً منه، بل بينهما تلاحم عجيب يجعلهما في عالم الإنسان وحدة تصوغ الإنسان من داخله وخارجه، وتصل هذه العقيدة بين أبناء الأمة الواحدة بتوجهات تشريعية تشكل وحدة لا يستطيع وضعها وبناءها غير هذا الدين.

أليس حرياً بالدعاة وهم يصوغون مناهجهم أن يجعلوا العناية بالعلم بالله والتعريف به، وقصده والتوجه إليه وتربية الناشئة على ذلك، وصبغ

مناهج الحياة أفراحاً وأتراحاً بذلك، أليست هذه المهمة التي كانت محور دعوة الرسل هي المحور الذي ينبغي أن يشكل كل منهج إسلامي!!!

إن هذه القضية هي أول دعوة الرسل وخاتمة دعوة الرسل ولب دعوة الرسل، ويجب أن تكون كذلك في كل دعوة وجماعة، وأن تكون هي المنهج.

قد يبدو أن هذا هو الذي يتبعه الدعاة، وقد يظن أن هذا هو سبيل العاملين في الحقل الإسلامي جميعاً، ولكننا عندما نحقق في مناهج الدعاة نجد أن هذا المنهج مشوب عند الكثيرين، فإن المنهج العقدي الإيماني القرآني النبوي الذي جاء به الوحي السماوي مشوب مخلوط، فبعض الدعاة لا يستقون المعرفة العقدية والإيمانية من الوحي الإلهي، فقد وضعت قواعد وأصول في معرفة الله وتوحيده تصادم المنهج الإيماني، وبذلك تذهب بهاءَه، وتعكر ماءه، وتضعف هناءه، إن الفرق التي تنسب إلى الإسلام خلفها عقدي، خالفت فيه منهج أهل السنة والجماعة في بعض مسائل الاعتقاد، فأحدث هذا الخلاف شرخاً في النهج لدى اتباع تلك الفرقة، وأوجد هذا الخلاف تقطعا عند الأمة الإسلامية ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ [المؤمنون: ٥٣].

لقد وجد في الأمة الإسلامية من جعل الإيمان قضية عقدية لا صلة لها بالعمل، وهذه هي ظاهرة الإرجاء التي زينت للمسلمين القعود عن العمل، وأقرتهم على التكاسل والاتكالية وسهلت عليهم ترك الصلاة والزكاة والصوم والحج وصلة الأرحام ودفع الباطل ومجاهدته، وقد حول هذا الفقه المنكوس اتباعه إلى عجزة متواكلين، بل حولهم إلى غثاء يسعى بهم التيار كيفما سار، ولا يملكون أن يحركوا من تيار الحياة شيئاً، فأخرج هذا المنهج الأمة عن مركز القيادة والريادة في دنيا البشر، فلا مكان في حياة الناس للنوَّم الكسالى الذين لا يعمرون ولا يثمرون

ولا يعملون، والله يقول ﴿وقل اعملوا...﴾.

وهناك فرقة أخرى أدخلت العمل في الإيمان ادخالاً لا تنفصل عنه منه جزئية، فإذا وقع أي خلل في العمل فإنهم يطردون صاحبها من دائرة الإسلام والإيمان وأدي هذا بالأمة إلى التناحر والتقاتل، لأنك إذا حكمت على واحد بالكفر، وكانت القوة في يدك ضربت عنقه، وسلبت ماله، وهكذا أصبح بأس الأمة بينها، تتقاتل وتتصارع، ويكفر بعضها بعضاً، وتتعادى إلى درجة التقاتل، وقد أدى هذا بالأمة كما أدى المبدء السابق إلى أن تقطعت أمرها بينها زبرا كل حزب بما لديهم فرحون.

وأجاز فريق ثالث استمداد القضايا العقدية من الأصول الفكرية ونتاج العقول البشرية، فأضعف ذلك التيار الإيماني القرآني النبوي، وأصبحت مسائل الاعتقاد الميسرة السهلة التي جاء بها الرسل وجاشت بها الكتب السماوية أصعب مباحث العلوم الإسلامية، وإذا تحدث المتحدثون على طريقة الفلاسفة وعلماء الكلام وأساليبهم ترى مباحث جافة عقيمة.

لقد أعادنا هؤلاء مرة أخرى إلى الضلالة التي جاء الإسلام ليخلص البشرية منها، وأعادنا إلى الاختلاف المقيت والجهل الكبير الذي كان يقوم على الفكر الإنساني المجرد أو المخلوط بوحي السماء خلطاً لا يمتاز فيه الحق من الباطل، فضاع الحق الصافي الخالص، وضعف تأثيره في النفوس، وكم يشكو طلبة العلم، بل والعاملون في الحقل الإسلامي منهم من جفاف قلوبهم، وقساوة يجدونهم في أرواحهم، وأن ما يقرؤونه في كليات الشريعة في الجانب العقدي لا يعالج ذلك الجفاف وتلك القسوة.

إن الفقه العقدي الإيماني القرآني النبوي سهل ميسر يسري في الإنسان تياراً ندياً رقراقاً حلواً لذيذاً، ولا أدل على ذلك من حال

الذين يدرسون القرآن بلغة العرب بعيداً عن أساليب علماء الكلام ومباحث الفلاسفة، فإنك واجد فيهم من الصفاء والعطاء ما لا تجده عند غيرهم.

خلاصة القول في هذا الجانب: أنا أتفق مع الذين يؤكدون على وجوب التعرف على المنهج الإيماني القرآني النبوي عبر نصوص الوحي وتعاليمه، وقصر هذا المنهج بالذات على ما جاءت به النصوص، كما أوافق الذين يدعون إلى تصفية المنهج من الشوائب التي علقت به، فأفسدت بهاءَه، وأضاعت صفاءَه.

هذا الذي ذكرته أضواء على المنهج يحتاج إلى تفصيل يضيق عنه الوقت المخصص للمحاضرة، والحمد لله رب العالمين.

فهرس المحتويات

المقدمة.. ٥

المحاضرة الأولى
نظرة في تاريخ العقيدة

الداعي إلى هذه المحاضرة ١١
أهمية الموضوع وخطورته..١١
سر الفرقة العقائدية...١٣
ثمار الضلال العقائدي المرة.. ١٤
نواح الرازي على نفسه...١٤
حيرة الجويني وندمه.. ١٦
حاجة العباد إلى معرفة الله ربهم...................................١٦
أول انحراف.. ١٨
نوح يقوم المسار.. ١٨
تتابع الرسل تحقيقا لوعد الله..................................... ٢٠
أعظم ما صد العباد عن الهدى...................................٢١
ضلال البراهمة...٢١
تأليه البشر...٢٢
ضلال الفرس... ٢٢
الفلاسفة لم يستطيعوا الخلاص من الوثنيات ٢٣
ضلال بني إسرائيل.. ٢٤
ضلال النصارى..٢٥
إشراق شمس النبوة الخاتمة....................................... ٢٦
بداية الفرقة والاختلاف ونشوء الفرق............................. ٢٦

غلو الفرق في تقدير العقل........................ ٢٩
الطائفة الناجية المنصورة ومنهجها........................ ٣٠
دعوة جديدة خطرة........................ ٣٢

المحاضرة الثانية
التوحيد محور الحياة

الداعي لهذه المحاضرة........................ ٣٧
انتم الأمل لعالم يلفه الشقاء........................ ٣٨
أنتم حملة دعوة الرسل العظام........................ ٤٢
بالعلم باللّه ومعرفته تزكو النفوس........................ ٤٣
بالإيمان باللّه تكشف الأسرار ويتحدد المسار........................ ٤٧
اللّه هو الغاية وله التوجه والعمل........................ ٤٨
مدار القرآن كله على التوحيد........................ ٥١
من ضل عن اللّه خسر كل شيء........................ ٥١
الدعوة إلى التوحيد واجب الدعاة الأول........................ ٥٣
الشرك لم ينته من ديار الإسلام........................ ٥٣
الشرك الأكثر انتشارا في عصرنا........................ ٥٣
معالم هادية في أعظم قضية........................ ٥٤

المحاضرة الثالثة
أثر الإيمان في تحرير الإنسان

بين الحرية والعبودية........................ ٦٥
شوق البشر إلى الحرية........................ ٦٥
قد يقع البشر في العبودية وهم ينشدون الحرية........................ ٦٥
أرسل اللّه رسله لتحرير العباد........................ ٦٧
الإسلام يحرر القلوب........................ ٧٢
السبب في هزيمة الأمة الإسلامية........................ ٧٧
مفهوم الحرية في الإسلام........................ ٧٩

المحاضرة الرابعة
التاريخ الإسلامي بين الحقيقة والتزييف

الداعي لهذه المحاضرة.................................. ٨٥
مرادنا بالتاريخ الإسلامي.............................. ٨٥
في تاريخنا صفحات مشرقة وأخرى قاتمة.................... ٨٦
كيف ندرس التاريخ ونستفيد منه في ضوء المنهج القرآني؟........... ٨٧
هذا هو تاريخ البشرية.................................. ٨٨
نحن ننشد الحقائق ولا نزور بها............................ ٩٠
اعداؤنا يشوهون تاريخنا وتعاليمنا.......................... ٩١
هجوم على معاقل الإسلام................................ ٩٣
تحطيم القوة السياسية الإسلامية............................ ٩٤
جيوش المبشرين تجوس خلال ديار المسلمين................... ٩٦
دور المستشرقين في تدمير تاريخ الإسلام..................... ٩٨
نماذج من خرافات الصليبيين وأكاذيب المبشرين ١٠١
بحوث المستشرقين شبيهة باخبار المشعوذين.................... ١٠٤
أمور مهمة نختم بها محاضرتنا............................ ١٠٩
وفي الختام نود التنبيه إلى أمور مهمة نبه إليها بعض المحققين.......... ١٠٩

المحاضرة الخامسة
مجالات الصراع بين الخير والشر

وجود عدو يصارعه الإنسان ضرورة لا مناص منها ١١٣
ضرورة تحديد العدو ومعرفته............................... ١١٤
تعريف اللّه آدم بعدوه.................................. ١١٤
الشيطان العدو الأول للإنسان............................. ١١٥
أولياء الشيطان.. ١١٧
تحديد مجالات الصراع.................................. ١١٩
المجال الأول : نفسه التي بين جنبيه ١١٩
المجال الثاني : مجال الأمة الإسلامية ١٢١

المجال الثالث: المجال العالمي........................... ١٢٤

المحاضرة السادسة
منهج الإسلام في تزكية النفس

المبحث الأول : أهمية تزكية النفوس ١٣١
المبحث الثاني : معالم المنهج الإسلامي في إصلاح النفوس البشرية ١٣٨

المحاضرة السابعة
أسلمة التعليم في ديار المسلمين

أهمية هذا الموضوع وخطورته.......................... ١٤٩
معنى التعليم الإسلامي................................ ١٥١
المنطلق الذي ينبعث منه التعليم الإسلامي.................. ١٥١
الأهداف والغايات..................................... ١٥٤
واقع التعليم في ديار الإسلام............................. ١٥٥
السبب في انفصام العلم عن الدين......................... ١٥٧
التحديات التي تواجهنا في مجال التعليم ١٥٨
الأصول والمرتكزات التي يقوم عليها العلاج الناجع ١٥٩

المحاضرة الثامنة
أهل السنة والجماعة أصحاب المنهج الأصيل والصراط القويم

الداعي لهذه المحاضرة.................................. ١٦٥
المبحث الأول: المسلمون بين الاستقامة والانحراف ١٦٨
١- حالة المسلمين في القرن الأخير ١٦٨
٢- الفرقة والاختلاف بين العاملين بالإسلام ١٧٠
٣- نظرة فاحصة في طبيعة الاختلاف....................... ١٧١
٤- بناء الرسول- صلى الله عليه وسلم- الجيل الرباني بدين الله.. ١٧٣
٥- أثر تطبيق المنهج النبوي على الإسلام وأهله................ ١٧٦
٦- ماذا فعل النزاع والاختلاف بأمة الإسلام ؟ ١٧٧

٧- لم يصل الداء إلى الجذور ١٨٠
٨- السائرون على المنهج الأمثل بقوا ظاهرين على الحق ١٨٢
المبحث الثاني : الفرق بين العقيدة وضوابط العقيدة ١٨٥
المبحث الثالث : أصول أهل السنة والجماعة في باب الاعتقاد......... ١٩٢
١- تحديد دائرة الإيمان ومعرفة أهله ١٩٢
٢- الإيمان أصول وفروع ١٩٣
٣- نصوص الوعيد عند أهل السنة ١٩٤
٤- منهج أهل السنة والجماعة في صفات الله وأسمائه ١٩٤
٥- موقفهم من رؤية الله في الآخرة ١٩٥
٦- إيمانهم بالبرزخ واليوم الآخر ١٩٦
٧- التصديق بالشفاعة في القيامة................................ ١٩٦
٨- الإيمان بالقدر ١٩٦
٩- الإيمان بكرامات الأولياء ١٩٧
١٠- تولي جميع صحابة رسول الله وآله الكرام................... ١٩٧
١١- إنكار المنكر والجهاد في سبيل الله ١٩٧
المبحث الرابع :المؤلفات في الاعتقاد على منهج أهل السنة والجماعة.. ١٩٨
المبحث الخامس : خصائص منهج أهل السنة والجماعة ومميزاته.......... ٢٠١
أولا : إدراكهم حقيقة الهدف العظيم الذي يجب أن يعنى به علما وعملا ٢٠١
ثانيا : الاقتصار على الكتاب والسنة في التعرف على الحق........ ٢٠٢
ثالثا : عدم التقديم بين يدي الله ورسوله........................ ٢٠٣
رابعا : اتباعهم للمنهج القرآني النبوي في العلم والمعرفة.......... ٢٠٥
خامسا: التوسط والاعتدال..................................... ٢٠٧
سادسا : الاتفاق على الحق والدعوة إلى الوحدة.................. ٢٠٨
سابعا : الحكم على الناس بالعدل............................ ٢٠٩
ثامنا: أسلوب تناول العقيدة وطريقة الاستدلال................... ٢١٠
الجماعات الإسلامية ليست فرقا اعتقادية ٢١٣

المحاضرة التاسعة
كيف تستعيد الأمة مكانتها من جديد

التعريف بموضوع المحاضرة وبيان أهميته........... ٢١٩
الفصل الأول: فضل الأمة الإسلامية........... ٢٢٢
المبحث الأول: معنى الوسطية........... ٢٢٢
المبحث الثاني: سر هذا الفضل ٢٢٤
المبحث الثالث: لم عرف الله الأمة الإسلامية بمكانتها وفضلها .. ٢٢٥
المبحث الرابع: عوامل ارتقاء الأمة الإسلامية إلى المكانة الفضلى.. ٢٣٠
الفصل الثاني : تأخر الأمة وانحطاطها........... ٢٣٣
المبحث الأول : العوامل التي أدت إلى تأخر الأمة وانحطاطها.... ٢٣٤
المطلب الأول : الفرقة في الدين والاعتقاد ٢٣٦
المطلب الثاني: الفرقة التشريعية........... ٢٤١
المطلب الثالث : الفرقة السياسة........... ٢٤٤
المبحث الثاني:أثر إثارة النعرات والعصبيات في الفر قة السياسية.. ٢٤٦
الفصل الثالث: طريق الارتقاء بالأمة الإسلامية ٢٤٩
المبحث الأول : الانتماء للإسلام دون سواه ٢٥٠
المبحث الثاني : توحيد مصدر الهداية........... ٢٥٢
المبحث الثالث : وحدة العقيدة ٢٥٦
المبحث الرابع : جعل الكتاب والسنة محور الدراسة ٢٥٧
المبحث الخامس : إقامة دولة الإسلام وإرجاع الخلافة الراشدة ٢٥٩
خاتمة البحث : مرحلة المخاض ٢٦٤

المحاضرة العاشرة
معالم الشخصية الإسلامية

نافذة على عالم البشر........... ٢٧٥
السا ئرون على الدرب ٢٧٧
خصائص واضحة........... ٢٧٨
الشخصية السوية........... ٢٧٨

الشخصية الإسلامية الممسوخة........................ ٢٧٩
الشخصية الإسلامية عبر القرون........................ ٢٧٩
الشخصية الإسلامية اليوم........................ ٢٨٠
بناء الشخصية الإسلامية من جديد........................ ٢٨١
لماذا نبحث عن مكونات شخصيتنا المسلمة؟........................ ٢٨١
معالم الشخصية الإسلامية :
أولا : صبغة إلهية........................ ٢٨٣
ثانيا : البصيرة........................ ٢٩٣
ثالثا : العزة........................ ٢٩٥
رابعا : التمسك بالحق........................ ٢٩٦
خامسا : المجاهدة........................ ٢٩٨
سادسا : الثبات على الحق........................ ٢٩٩
سابعا : الرضا النفسي والاطمئنان القلبي........................ ٣٠١
ثامنا : إدراك غاية الحياة........................ ٣٠٥
تاسعا : الأوبة إلى الحق........................ ٣٠٦

المحاضرة الحادية عشرة
المرأة بين دعاة الإسلام وأدعياء التقدم

الداعي لهذه المحاضرة........................ ٣١١
السفهاء الذين يدعون الإصلاح........................ ٣١٢
أدعياء التقدم........................ ٣١٣
متاجرة هؤلاء بقضايانا........................ ٣١٤
دعاة الإسلام هم أنصار المرأة........................ ٣١٤
بشائر النصر........................ ٣١٤
عويل الذئاب وفحيح الأفاعي........................ ٣١٥
رجع الصدى وترديد الببغاوات........................ ٣١٦
جذور هؤلاء........................ ٣١٧
رويدكم يا أدعياء التقدم........................ ٣١٨

مكر وخديعة........................ ٣٢٠
نماذج من المكر والخداع........................ ٣٢١
وقل جاء الحق وزهق الباطل........................ ٣٢٢
بصيص من النور من بلاد الكفر........................ ٣٢٣
أنقذوا العائلة في الغرب من الموت........................ ٣٢٤
أطفالي ملوثون باليأس........................ ٣٢٥
طفلة تفكر في الهروب من عالم الغرب........................ ٣٢٦
الناس هناك يسيرون في جنازة هم الأموات فيها........................ ٣٢٦
الإنسان الآلي........................ ٣٢٧
تفشي الجريمة بين النساء في المجتمعات الغربية المتحررة........................ ٣٢٨
السعادة المفقودة........................ ٣٢٩
مزيد من الحقائق عن المرأة في عالم الغرب........................ ٣٣٠
الكبت الجنسي........................ ٣٣٣
المرأة ودعاة الإسلام........................ ٣٣٥
الرجل والمرأة في ميزان الإسلام........................ ٣٣٥
حرية الرجل والمرأة........................ ٣٣٦
لا ظلم ولا استبداد........................ ٣٣٨
مصدر الخطأ........................ ٣٣٨
لا نسوغ الأخطاء........................ ٣٣٨
المرأة في المجتمع الإسلامي........................ ٣٣٩
التفاضل بين الرجل والمرأة........................ ٣٤٢
لا ضير على المرأة........................ ٣٤٦
لم يبلغ السيل الزبى........................ ٣٤٧
كلمة أخيرة........................ ٣٤٩

المحاضرة الثانية عشرة
أثر العصبية في توهين بناء الأمة الإسلامية

الداعي لهذه المحاضرة........................ ٣٥٥
تحديد مفهوم العصبية........................ ٣٥٨

مضار العصبيات وآفاتها........................ ٣٥٩
أنواع العصبيات........................ ٣٦٠
النوع الأول: عصبية القرابة والنسب ٣٦٠
والنوع الثاني: التعصب للمبادىء والمذاهب ٣٦١
والنوع الثالث : العصبية الإقليمية........................ ٣٦٢
والنوع الرابع: عصبية اللون........................ ٣٦٤
العصبيات لا تصلح إطارا للتجمعات الإنسانية........................ ٣٦٤
موقف الإسلام من العصبية........................ ٣٦٦
لماذا حارب الإسلام العصبية وحذر منها........................ ٣٦٧
كيف الخلاص من العصبية........................ ٣٧٠

المحاضرة الثالثة عشرة
الأمان في تطبيق شريعة الرحمن

الأمة الإسلامية بين الحاضر والماضي........................ ٣٧٧
لا أمن للمسلمين بعيدا عن الشريعة الإلهية........................ ٣٧٩
تأثير أعمالنا وأفعالنا في الكون الذي نعيش فيه........................ ٣٨١
التمرد على الله يوجب العقاب الدنيوي........................ ٣٨٢
غاية الشريعة المباركة........................ ٣٨٣
استمرار الشريعة حاكمة ديار المسلمين عبر القرون........................ ٣٨٤
مؤامرات الأعداء لصرف المسلمين عن دينهم........................ ٣٨٤
ماذا فعلنا بأنفسنا وماذا فعل أعداؤنا بنا........................ ٣٨٥
تمكين القوانين الوضعية للفساد والمفسدين........................ ٣٨٦
مقاومة الأخيار لتيار الفساد........................ ٣٨٨

المحاضرة الرابعة عشرة
أضواء على منهج التغيير

رياح التغيير التي تهب على الأمة الإسلامية........................ ٣٩٧
الفهرس........................ ٤٠٧